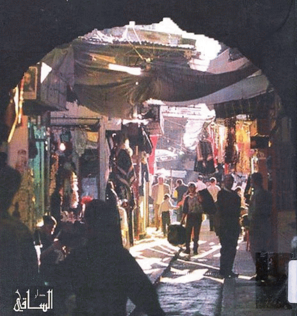
الشيخ علي الإبراهيم الطرابلسي

التشيّع في طرابلس وبلاد الشام



دار الساقي

التشيع في طرابلس وبلاد الشام

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

الشيخ علي الإبراهيم الطرابلسي

وقف كتابخانه عمومى حضرت آيت الله العظمى مرعشى نجفى دره
قم
تاسيس: ١٣٥٢ ه.ش

التشيّع في طرابلس وبلاد الشّام

اضواء على دولة بني عمّار





© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

ISBN 978-1-85516-769-8

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

إهـداء

إلى طرابلس الفيحاء

إلى مدينة العلم والعلماء

إلى مدينة العيش المشترك

إلى ثغر الإسلام والعروبة والرباط

إلى مدينة الأوابد والتاريخ والمعارف

أقدم هذا الجهد المتواضع.

ع.ا.

شكر

أتقدّم بجزيل الشكر من الأخ الدكتور القاضي الشيخ يوسف محمد عمرو لما بذله من صبر وجهد في مراجعة فصول هذا الكتاب، ولما تفضّل به علينا من ملاحظات قيّمة.

المؤلف

المقدمة

بقلم: سماحة الإمام الشيخ عبد الأمير قبلان
نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله محمّد، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه المنتجبين...

تعدُّ حركة التشيّع إحدى الميزات الهامّة للقرن الرابع الهجري، لا بل أبرز ميزاته نشاطاً علمياً وحراكاً ثقافياً. والمتتبع لنشاط الدول الشيعية التي قامت في ذلك العهد، يلحظ ـ بما لا يقبله الشكّ ـ الدّعم الهائل للحركة العلمية والثقافية، وهذا أمر لم يخفَ على الدارسين والباحثين فأغنوا المكتبات العربية والإسلامية والعالمية كتباً وأبحاثاً ودراسات، تلقي أضواء على إنجازات هذه الدول حضاريّاً وثقافياً.

ولئن كانت الدراسات حول هذا العصر كثيرة، فإنّ آفاق البحث لا تقفل، وكثيراً ما تبقى في الآفاق ساحات بكر، تفوت الباحثين، ويغفل عنها الدارسون.

يُقدم العلّامة الشيخ علي العزيز الإبراهيم في كتابه هذا «التشيّع في طرابلس وبلاد الشام» على سبر أغوار مدينة طرابلس، بدءاً من التسمية تاريخاً ولغة، وصولاً إلى الدور الحضاري الريادي الذي لعبته، وهو في بحثه يستكشف جغرافيتها وديموغرافيتها، ولا يفوته أن يستطلع محيطها وعلاقتها به، ما يغني البحث، ويقدم للقارئ رؤية شاملة تساعده على استكشاف الواقع الحقيقي لتلك المدينة.

ولعلّ أبرز ما استند إليه الكاتب في بحثه ودراسته مدوّنات المؤرخ الشهير «ناصر خسرو» الذي لاحظ أنّ أهل طرابلس في العام ٤٢٨هـ كانوا شيعة، وأنّ بني

عمّار كانوا على مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية. ويقدّم الكاتب في بحثه صورة مشرقة لطرابلس ـ الشام ويكشف النقاب عن ازدهارها وتقدّم مستوى العلم والثقافة فيها أيام عزّ الدولة الفاطمي الشيعي.

كما يفرد فصلاً للحديث عن بني عمّار وإنجازاتهم الثقافية والعلمية وإنشائهم مدرسة ومكتبة ذاع صيتهما في ذلك الزمان، حتى انجذب إليهما أشهر الأدباء والعلماء والشعراء العرب.

إن ما قام به فضيلة الشيخ علي الإبراهيم الطرابلسي من بحث ودراسات معمقة وإحاطات تكاد تكون مستفيضة حول التشيّع وتاريخه في طرابلس وبلاد الشام، لهو جهد يشكر عليه وعمل مبارك له فيه إن شاء الله لما يتضمّنه من إضاءات مشعة بدّدت الكثير من الشبهات التاريخية التي هي بأمس الحاجة إلى أمثال هذا الباحث الفاضل، والهادي بمصباحه الفكري إلى سواء السبيل.

لا نغالي إذا ما قلنا بأن الأخ فضيلة العلّامة الشيخ علي عزيز الإبراهيم حفظه الله من العلماء الأخيار والأجلاّء الذين يتمتعون بخصائص ترقى بهم وميزات تجعلهم على درجات من العلم والمعرفة تشد الناظرين إليهم، لسعة اطلاعهم وثراء فكرهم في مختلف مجالات المعرفة وبخاصة الميدان الديني الذي يشكل مرتكزاً أساسياً ومحوراً تلتقي حوله كل المعارف، لتنطلق بعدها مزهوة بحلل التقوى والتقى تنثر رذاذات الندى في الزمن الأعجف، حيث محاصيل الفكر الملوّث بالفئويات والعنصريات البغيضة قد استباحت القيم وهتكت المبادئ وارتهنت لما أسهم ويُسهم في إفساد الناس والطبيعة، وألبست التاريخ لبوسات من الزور والتزوير، فطمست الحقيقة وشوّهت، وانحرف المسار باتجاهات مختلفة ومتباينة، كل ذلك من أجل إضعاف المسلمين وكسر شوكتهم، من خلال إلهائهم بتجاذبات وصراعات دأب أهل الدس والتفريق على تحريكها وإثارتها بهدف إحداث الفتنة في ما بينهم وتفريق شملهم وإبقائهم محاصرين في دائرة الأحقاد والانقسام التي لا نجد ما يبررها على الإطلاق، طالما أن المسلمين بجميع مذاهبهم يشهدون بأن لا إله إلا الله وبأن محمداً رسول الله ﷺ.

توطئة

تمهد هذه الدّراسة الموضوعية لتسليط الضوء على الدور التّاريخيّ الذي اضطلعت به مدينة طرابلس، العاصمة الثّانية للجمهورية اللُّبنانيَّة اليوم، حينما ارتبطت بمصر بعد أن دخلت بلاد الشّام في فلك الدُّولة الإسلاميَّة الفاطميَّة (٩٠٠م ـ ١٠٧١م)، وانفصلت بالتالي عن إقليم دمشق، لتصبح ولاية يديرها عامل عيّنه الخليفة الفاطميّ بالقاهرة.

وشهدت طرابلس الشّام في عصر المسلمين الفاطميّين الشّيعة عهداً من أزهى عصورها، إذ ارتفع فيها مستوى الحياة المعيشية، ونمت ثرواتها التي امتازت بها، ونعمت برخاء شهد له المؤرخون العرب، كالإصطخري والمقدسي. فقد كانت بساتينها ومزارعها، وفقاً لكتاباتهم، مغروسةً بأشجار قصب السكر والفواكه والنخيل والتمر والنارنج، التي كانت بمجموعها مصدراً لثروتها الزراعية التي اشتهرت بها. وتعاظم دورها عندما كانت السلطة الإسلاميَّة الفاطميَّة القوة الوحيدة في شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط التي جعلت من حركة الجهاد «دعامة من دعائم العقيدة الإسلامية الشيعية»[1].

وقامت طرابلس الشّام، كمدينة من المدن الساحلية، بدور حضاري، يضاف إليه تطوير بناء السفن وحركة الملاحة البحريَّة، مما سيدخل تغييراً كبيراً على التكتيكات العسكرية، بقيام الأساطيل الحربيَّة البحريَّة، وتحويل المدن الساحلية إلى ثغور، علماً أنّ ثابت الجغرافيا سيبقى العامل الحاسم في التحولات التّاريخية للإستراتيجيات العسكرية، وستلعب من الآن فصاعداً الثغور البحريَّة دوراً خطيراً في

---

(١) عبد المجيد عبد الملك، ساحل بلاد الشّام والصراعات الدولية، منشورات بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، الطّبعة الثّانية ٢٠٠٢، الصفحة ٩٨.

الاستراتيجيات العسكرية، من دون أن يغيّر دلك الثوابت «الجغرافية الراسخة»[1].
وكان لنشأتها في السهل الواقع على مصب نهر «أبو علي» أثر كبير في شغل جماعة من سكانها بالزراعة، وكانت المناطق المزروعة لا تقتصر على الغوطة المحيطة بها، وتعرف أحياناً بالمرج، وإنما كانت تمتد على ضفتي هذا النهر وعلى سفوح الجبال المجاورة. وكانت تحمل الغلال منها من الفواكه اليابسة والرطبة إلى مصر في زمن الحاكم بأمر الله (٩٩٦م ـ ١٠٢١م). ويصف «الإدريسيّ» محاصيلها الزراعية في عصره بقوله: «ولها رساتيق وأكوار وضياع جليلة، وبها من شجر الزيتون والكروم وضروب الغلال الشيء الكثير». وقد ترتب على ثروتها الزراعية قيام بضع صناعات اختصت بها في ذلك العصر من العصور الإسلاميَّة، فمن الزيتون كان يستخرج الزيت في المعاصر، ومن الزيوت صنع الصابون، ومن قصب السكر كان يصنع السكر الذي ذاعت شهرته في العصور الوسطى، وإلى جانب هذه الصناعات فقد فاقت غيرها من مدن الشّام في صنع الورق. وكان من الطبيعي أن تصبح طرابلس في العصر الفاطميّ مركزاً مهماً للتجارة في بلاد الشّام لعاملين: الأول: ميناؤها الواسع الذي يمكن أن يستقبل عدداً كبيراً من السفن. والثّاني: قيام حرفتي الزراعة والصناعة بها وبأعمالها مما يترتب عليه ضرورة تصريف منتجاتها إلى الخارج، وقد ظهرت، منذ أن خضعت لمصر الفاطمية، مدينة تجاريَّة من الطراز الأول، وهو أمر تؤيّده أقوال الرحالة ومؤرخي تلك الفترة. «فناصر خسرو» يشيد بذكر أسواقها وخاناتها، ويمتدح صنع الورق فيها، ويعظم ثروتها الزراعية. ويشير كذلك إلى اتخاذها قاعدة تجاريّة في البحر المتوسِّط تصل إليها السفن من مختلف الأقطار. والإدريسيّ يؤكد أيضاً أنّها «مدينة عظيمة»، والوارد والصادر إليها كثير. كما يذكر أنها «معقل من معاقل الشّام مقصود إليها بالأمتعة وضروب الأحوال وصنوف التّجارة». وكانت السفن التُّجاريَّة الإسلاميَّة والإفرنجية منذ العصر الفاطميّ تصل ما بين مصر والشّام من طريق ميناء طرابلس، فقد أمر العزيز بالله (٩٧٥م ـ ٩٩٦م) بإرسال الميرة من غلال مصر لنجدة منجوتكين، فوصلت

(١) المرجع السابق، الصفحة ٤٨.

إليها، ومنها على ظهور الإبل إلى أفامية. وعندما حاصرها الصَّليبيّون، براً وبحراً، وقلّت بها الأقوات، وصلت إليها السفن الفاطميَّة من مصر تحمل الغلة والميرة»[1]. وهي بحكم موقعها في إقليم الشّام لا تستطيع أن تنسلخ من بيئتها، ومن الجغرافيا السِّياسيَّة المحيطة بها والمناخ العربيّ الإسلاميّ الذي تتنشق هواءه. فهي شامية الموطن، دمشقيّة الهوى. وبرغم ذلك كله فهي تحمل قلبين يجذبانها، أحدهما إلى دمشق الفيحاء، والآخر إلى القاهرة، وقلّما توجهت بعواطفها نحو بغداد، وربما المرة الوحيدة التي فتحت فيها ذراعيها لبغداد، كانت في مطلع القرن السادس الهجريّ - أوائل الثّاني عشر الميلاديّ - حين قصدها «فخر الملك بن عمار» (٤٩٢هـ - ١٠٩٨م/ ٥٠١هـ - ١١٠٨م)، وبالتحديد سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م، في الفترة الإسلاميَّة السلجوقية، لتدعم صموده في وجه الهجمة الصَّليبيّة. وكان في توجهه نحوها، يمثّل السلطة والقيادة الحاكمة، في حين كان التوجه الشعبي نحو مصر القاهرة عبر مياه البحر، ولم تكن دمشق في ذلك الوقت إلا مدينة تابعة لعاصمة سلاجقة بغداد. وتغلّب التأثير المصريّ، مدعوماً بالموقف الشعبي لتصبح طرابلس ميناءً «مصريّاً على ساحل الشّام»[2]، فالسيطرة على بلاد الشّام والتمدد الإسلاميّ الشيعي الفاطميّ تجاهها، قد مثّلت دعامة سياسيَّة وعسكرية، لتحقيق ضرورة دينيَّة يكمن فيها قرار نشر الدعوة الفاطميَّة. وقد أدرك الفاطميّون بالغريزة، كما قال المؤرخ الفرنسي «ويات»[3]: «إن مصر المستقلة يجب أن تكون حدودها بعيدة في سوريا، وهو إدراك كانت أصوله في التّاريخ البعيد، وقد ارتبط في التّاريخ الإسلاميّ باسم ابن طولون وصلاح الدّين وسلاطين المماليك، ولا يمكن اعتباره ادّعاءً طائشاً لا رويّة فيه»[4]. وتبعه المؤرخ والمستشرق الفرنسي «ده موبين» الذي

---

(١) الدكتور أحمد مختار العبادي والدكتور السيد عبد العزيز سالم، **تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشّام**، منشورات دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ١٩٨١، الصفحات ١٦٧ و١٦٨ و١٦٩.

(٢) الإنشاء (طرابلس، لبنان) عدد خاص، تشرين الثاني ١٩٩٨، ص ٥.

(٣) جواد بولس، **التحولات الكبيرة في تاريخ الشّرق الأدنى منذ الإسلام**، منشورات دار عوّاد للطّباعة والنّشر، لا تاريخ، ص ١٩٧.

(٤) المرجع السابق، ص ١٩٧.

قال: «إنّ السيطرة الفاطميَّة على سوريا، وإن لم تكن البتة مؤكدة ولا ناجزة ولا شاملة، فإنها كانت من الأمور المنطقية، بحيث أنها تدوم بقدر ما تدوم الأسرة الفاطميَّة نفسها». وانطلاقاً من هذا التنظيم القاعدي بالوسع الافتراض أنّ الفاطميّين كان يهمهم بلوغ هدف استراتيجي في الحوض الشّرقيّ للبحر الأبيض المتوسّط، وهو التمركز في موقع يعطيهم إمكان مجابهة الخلافة العبّاسيَّة، ومزاحمتها في ظروف أضمن للنجاح»[١]. ولعل ما ظهر من بعدما سمّاه «ماريوس كانار» «الإمبريالية» الفاطميَّة، يعزز بعض الشيء افتراضنا أن الفاطميّين كان لهم خيار استراتيجي شرقيّ، وأنهم لم يعتقدوا أنّ المغرب يصلح لتحقيق هذا الخيار الاستراتيجي[٢]، وقد ذكر اليعقوبي أواخر القرن الثّالث الهجريّ، في جغرافيته «أنّ ميناء طرابلس الشّام عجيب يحتمل ألف مركب»[٣]. وفي سنة ٩٦٦م، فتحها الفاطميّون في عهد المعزّ لدين الله (٩٥٣م - ٩٧٥م)، فغدت قاعدة للخلافة الفاطميَّة المتمركزة في القاهرة. وفي سنة ١٠٧٠م أصبحت دولة مستقلة، يحكمها القاضي العلاّمة حسن بن عمار. على أن الإقطاع الحربيّ الإسلاميّ، لم يعمم في جميع الدول الإسلاميّة في القرن الحادي عشر الميلاديّ، فلم تعمّمه الدّولة الفاطميَّة في بلادها مع ما هو معروف عنها من كثرة الإقطاعات لجنودها وأمرائها[٤]، وقد شهدت فترة الخلافة الفاطميَّة بداية «عصر اليقظة الاقتصادية» في المدن المطلة على الشاطئ الأوروبي للبحر الأبيض المتوسّط، والتي أدت إلى نمو هذه المدن وتطوّرها في طريق الحكم الذاتي»[٥]. وكانت حركة التّشيُّع من ميزات القرن الرّابع

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٧.

(٢) محاولات الفاطميّين الاستيلاء على مصر، الأبعاد الدولية والإستراتيجية: دراسات تاريخية، مجلّة علمية فصلية تعنى بالدّراسات حول تاريخ العرب، كانون الثّاني ١٩٨٢، تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق، الدُّكتور عمر السعيدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجامعة التونسية، ص ٨١.

(٣) آدم متز، **عصر النّهضة في الإسلام** - ترجمة: مُحمَّد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، الطّبعة الرّابعة، ١٩٦٧م، ص ٤٣٢.

(٤) الدُّكتور إبراهيم عليّ طرخان، الإقطاع الإسلاميّ أصوله وتطوره: دراسة مقارنة، تاريخ العرب والعالم - الحلقة الثّانية، ١٩٨٠، ص ٥٦.

(٥) الدُّكتور أحمد دراج، مصادر تاريخ القاهرة، مجلّة «المجلّة» المصريّة الأدبيّة، عدد أيار ١٩٦٩، ص ١١.

الهجريّ، فكانت مدينة طرابلس الشّام من المراكز الشيعية المهمة إضافة إلى جانب الكوفة والبصرة ودمشق، وجزيرة العرب، عدا مدنها الكبرى، وبلاد فارس وقم وأصفهان ونيسابور وقهستان وهراة. وإذا كان «ناصر خسرو» قد وجد أهل طرابلس في سنة ١٠٣٧م شيعة، فقد جاء ذلك من أن بني عمار، وهم إحدى الأُسر الصغيرة الكثيرة على الأطراف، كانوا هناك على مذهب الشّيعة. و«خسرو» مفكر، درس الآداب المختلفة فحذق العربيَّة وعرف البهلوية واليونانية، ونظم الشعر وأحسن الكتابة، وقرأ في علوم الدّين والفلسفة، وكان توّاقاً إلى معرفة حقيقة المذهب الذي يتبع، ولا شك أنه كان قد اقتنع بالمذهب الفاطميّ بعد أن استمع إلى دعاته، ولا شك أيضاً أن أخباراً عنه قد بلغت مسامع الخليفة المستنصر بالله (١٠٣٦م ـ ١٠٩٤م) في القاهرة. فدعاه إلى زيارتها، حتّى يتيح له التعمق في درس طرق الدعوة، وحتى يوصله إلى أعلى مراتب هذه الدعوة، مرتبة «الحجة». ويحدثنا في ديوانه عن الآيات القرآنية الثلاث التي دفعته إلى رحلته هذه، وهي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨]. فهو إذاً يريد أن يذهب إلى حيث الشجرة التي بايع المؤمنون تحتها النبي ﷺ على أن يقاتل معه، المؤمنون من أمثال جعفر والمقداد وسلمان وأبي ذر، المؤمنون الذي ناصروا الإمام عليّ ﷺ، المؤمنون الشّيعة. ثم يتحدث في بداية رحلته عن سلسلة من الوقائع أيدت عزمه على المضي إلى المكان الذي يقيم فيه الخليفة الفاطميّ ليبايعه وليدعو إلى مذهبه. فسافر قاصداً مصر وهو مؤمن بأن المذهب الحق هو مذهب الفاطميّين في القاهرة. وتؤيد هذا رواية رشيد الدّين بأن «ناصر خسرو» استدُعي إلى القاهرة أيّام المستنصر بالله (١٠٣٦م ـ ١٠٩٤م) ليقابله في القاهرة، وهو يطلق لقب الإمام على المستنصر في ديوانه، ويذكر أنه عيّنه «داعياً» وهو من مراتب الدعوة الفاطميَّة. ثم تحدث عن لقائه مع «الإمام»، وكيف تعهد أمامه ألاّ يتحدّث عن المقابلة وما جرى فيها، وقد

قال له المستنصر إنه سيمده بكل ما يشبع رغبته في المعرفة مؤيداً بالدليل، ولكنه يشترط عليه ألاّ يبوح بالسر لكائن من كان. وفي حضرة شاهدين أمدّه بالدواء الذي يذهب الجهل، ووضع على شفتيه الخاتم حتّى يحفظ السر المقدس. ويقول «خسرو»: «حينئذ برأت نفسي عن شوائب الشك في الحقيقة، ثم إن «الإمام» أمسك بيدي ووضعها في يد «النبي» لنبرم معاً ميثاقاً تحت الشجرة المباركة التي تحوي ثمار العلم». ويتحدث في ديوانه أيضاً عن ارتقائه من مرتبة إلى أخرى أعلى منها حتّى بلغ مرتبة «حجة» التي يفخر بأنه نالها، وهي درجة رفيعة حقّاً، جعلته واحداً من اثني عشر رجلاً عيّنهم الإمام في العالم الإسلاميّ لرئاسة الدعوة الفاطميّة خارج القاهرة. ويشير إلى ذلك بقوله: «منحني هذه الرتبة خير الرجال، وهي مرتبة لم يبلغها أحد من عشيرتي. لقد كنت في قاع بئر من قطران، وها أنا رفعت فسموت فوق القمر، ليس من علو أكثر رفعة. إني رأيت نخلة مثمرة يبلغ سعفها عنان السماء، إنها شجرة ثمارها الحكمة، وبعد مشقة بلغت هذه الشجرة وذقت من ثمرها. قلت للإمام: وددت لو منحتني زاداً وأنا أسير في طريق الجهل، فأهداني نخلة، وهكذا أصبحت شجرة تحمل ثمار الحكمة.

فبينما عدوي ينفث سمومه، إذا بي أحمل الترياق. وعهد إليه «الإمام» وقد وثق به لتفسير بعض القضايا وتوضيحها، كقضية البرزخ والردّ على القائلين بالتناسخ. وكان ناصر قد لقب بداعي الدعاة المؤيد في مصر، ووصف كيف تفتّحت له أبواب الحكمة، وكيف عرف الظاهر والباطن، وهما أساس التأويل الفاطميّ للقرآن، وكيف اهتدى إلى إمام الزمان «المستنصر»، وهو يشبه «الإمام» بسحاب الربيع والناس بالتراب، ويشبه ضمائرهم بالليل، والإمام بالنّهار المضيء الذي يهديها، وهكذا حتّى ينتهي إلى القول إنه يعجب ممن يأكل الطعام نيئاً، والوقود أمامه، أو ممَن يظل عطشان على شاطئ النيل أو الشط. ويدعو الناس أخيراً إلى الدخول في المذهب الفاطميّ، في الحصن الذي لا يدخله إبليس، الحصن الذي شيّده الله من الغفران، وحماه جبريل من الشيطان، الحصن الذي فيه العز والسّلام وخارجه الشر والخذلان، ثم يختم قوله بمدح رب هذا الحصن، إمام الزمان الخليفة الفاطميّ. والعجيب أنه لم يشر إلى شيء من هذا كلّه في

«سفرنامة»، حتّى بلغ الأمر إلى أن ذهب البعض إلى أن هناك نصاً أصلياً غير السفرنامة المختصر الذي بين أيدينا، وأن التّرجمة العربيّة لحجة المستنصر بالله (١٠٢٦م ـ ١٠٩٤م) وصاحب فرقة الناصرية بيمكان[1]، نجد فيها أنه كان يتمتع بمركز ممتاز أثناء إقامته الطويلة بالقاهرة، حجّ مرتين في صحبة رسول الخليفة المستنصر بالله، مع أنّ الحجّ كان ممنوعاً بسبب قحط في الحجاز، وعاد في المرة الثّانية في صحبة أمير مكة. وطلب أن يرى مائدة المستنصر يوم العيد، فسمح له بذلك، ولكن لماذا لم يشر إلى اعتناقه المذهب الفاطميّ في كتاب رحلته؟ هل لأنّه كتب مؤلّفه بعد عودته إلى وطنه مباشرة وحين كانت سياسة الدّولة السلجوقية، تبطش بكل من ينتمي إلى الفاطميّين، بل الشّيعة عامة، فكان إخفاء صلته بالفاطميّين أولى من الجهر بها؟ أو لأنّه كان يؤثر ألا يعرّض أخاه ـ وكان من كبار رجال الدّولة السلجوقية ـ للأذى؟ أو يكون ذلك نتيجة اختصار النص الذي أملاه على كاتب سُنّي أعجب بالرحلة، ولم يرد أن يثبت ما يخالف المذهب السنّي؟ هذه فروض جائزة.

ولفت برنار لويس، أستاذ في مدرسة اللغات الشّرقيّة في لندن، أنّه علم أثناء زيارته لطهران أن مخطوط «زبدة التواريخ» المنشور، تضمن نصوصاً مطولة منقولة من «سفرنامة» الأصلي لناصر خسرو. والواضح أن حافظ إبرو صاحب «زبدة التواريخ» هو الذي كتب ذيل «جامع التواريخ» لرشيد الدّين، وكان تحت تصرفه وثائق هامة، وقد يكون «سفرنامة» المطول، الأصلي في عداد هذه الوثائق.

وقد تألقت طرابلس الشّام في الفترة الإسلاميّة الفاطميّة الشيعية وازدهرت أيما ازدهار، فاشتهرت في ذلك العصر بنظافة شوارعها وأسواقها، ودسامة أطعمتها وفاكهتها الوافرة، وبالصناعة ولا سيما صنع الورق المتفوق بجودته على ورق سمرقند، وصنع الصابون، ودباغة الجلود، وحياكة الأنسجة، واستخلاص العطور، بالإضافة إلى المرافق التّجاريّة والزراعية الكثيرة. فبلغت المدينة ذروة مجدها وعظمتها، فاكتمل ازدهارها العلمي والفني علاوة على ازدهارها الاقتصادي، وازدادت في هذه الحقبة مواردها ازدياداً مرموقاً، فأُحيط العلماء والأدباء بالتكريم

(١) في ندوة ألفيّة القاهرة، مجلّة «المجلّة» المصريّة الأدبيّة، عدد مايو/ أيار ١٩٦٩، ص ١٢.

والأُعطيات، فارتفع مستوى العلم والثّقافة، وبلغ أوجه، وذلك بعد إنشاء مدرسة ومكتبة ذاع صيتها في ذلك الزمان واعتبرت من أرقى المكتبات العربيَّة قاطبةً، إذ كانت تحتوي على أكثر من تسعمائة ألف مجلد، تبحث في شتى المواضيع العلميَّة والأدبيَّة، كتبت جميعها بالخط اليدوي، وكانت قيمتها لا تقدر بثمن، وهذا ما حدا أشهر الأدباء والعلماء والشعراء العرب وغيرهم على زيارة المدينة قاصدين مكتبتها العظيمة (دار العلم)، وسميت بالدَّولة الفاطميَّة التي خضعت طرابلس الشّام لنفوذها نسبة إلى فاطمة الزَّهراء عليها السلام ابنة الرسول ﷺ، وزوجة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقد أسسها عبد الله الشيعي أحد دعاة أئمة الشّيعة في الشمال الإفريقي، حيث قام بدعوته سنة ٢٨٨هـ، بعد أن نجح في موسم الحج باستمالة جماعة من قبيلة كتامة من البربر إلى عقيدة الشّيعة.

وتقع مدينة طرابلس الشّام حاضنة الشّيعة في الزمن الفاطميّ في منتصف الساحل الشَّرقيّ لحوض البحر الأبيض المتوسّط، وتبعد مسافة ٨٨ كيلومتراً عن العاصمة بيروت. أمّا من الناحية العمرانية فهي تتكوّن من قسمين: الميناء الذي يُعدّ الأساس التّاريخيّ لمدينة طرابلس القديمة التي يمتد تاريخها إلى أبعد من ثلاثة آلاف سنة، وتقع على ضفّتي نهر قاديشا المعروف بنهر «أبو علي»، في النقطة التي يصل فيها النهر إلى السهل متدفّقاً من مرتفعات جبل لبنان. وتقوم على ضفتي النهر تلّتان غنيّتان بأشجار الزيتون، عامرتان بالمباني الجديدة. والتلّتان اللّتان تشرفان عليها هما: التلة اليمنى وتسمّى «قبة النصر»، والتلّة اليسرى «أبو سمراء» المسمّاة سابقاً بتلّة الحجّاج، لأنها كانت موقعاً لاستراحة الحجّاج القادمين من أوروبا، والقاصدين بيت المقدس، وتجثم على الناحية الشَّرقيَّة الشَّماليَّة منها القلعة التّاريخية. وإذا قارنّا بين طرابلس القديمة الأثرية وصورة المدينة العربية الإسلاميّة النموذجية، نجد قرابة شديدة في الملامح الرئيسية التي تتمحور حول القلعة، ومركز المدينة، ومنطقة السكن، والضواحي الخارجيَّة، وتتسم قلعتها بطبيعة دفاعية، وهي تسيطر على المنطقة التي تشرف عليها وتحيط بها. وهذا هو العامل الأساسي لاختيار هذا الموقع لمدينة طرابلس، كما هو الحال في موقع مدينة حلب الذي توجد فيه تلّتها وقلعتها. ويجمع مركز المدينة النشاط الدِّينيّ والنشاط الاقتصادي،

ويضمّ رجال الدّين والعلماء والتجّار والحرفيين، ويشمل هذا المركز كذلك المسجد الجامع المنصوري الكبير، والمساجد الكبرى، والمدارس الدّينيّة: كالقرطاوية، والنورية، والأسواق المركزية: مثل العطّارين والصّاغة والحدّادين والبازركان، ومساكن طبقات الأعيان، ومحلّة النوري، وما يتبع ذلك من حمّامات: (الجديد)، و(عز الدّين)، و(العبد)، وخانات الصابون والعسكر، وتتميز الأحياء السكنية كتميّزها في المدينة الإسلاميَّة بخصائص مهمة منها: ترابط العلاقة بين أماكن السكن، والفروق الدِّينيَّة العرقية، وميل أبناء الدّين الواحد أو المحلّة الواحدة إلى التجمّع معاً والإقامة في حيّ واحد، وكان ذلك بغية التماسك والاستقلال النسبي، إذ إنّ المناطق أو الأحياء كانت تسمّى باسم ديني معين، أو باسم صاحب حرفة أو مهنة معينة، مثل «حارة النصارى»، أو «حارة اليهود»، و«حارة النحاسين»، أو «حارة الحدادين». وكانت تشكل الأحياء الخارجيَّة أو الضواحي مناطق للقوافل والوافدين الجدد والغرباء، وتقع على أطراف المدينة وخارج بوّاباتها. كما هو الحال في وجود المدافن خارج المدينة المسوّرة.

وتعتبر مدينة طرابلس العاصمة الثّانية للجمهورية اللبنانيّة، متحفاً تاريخياً يحتضن المعالم والمراكز الأثرية التي تعطي صورة متنوعة عن مختلف العهود الحضارية التي تعاقبت عليها، في وحدة تتناغم من خلال التعدّد، ومعالمها الأثرية الدِّينيَّة الإسلاميَّة والمسيحيَّة شواهد تاريخية ملموسة على حقيقة التعايش بين مختلف الطوائف التي تشكّل بمجموعها وحدة النسيج الاجتماعيّ المتكامل. وبرغم أنها قد اشتهرت بطابعها الإسلاميّ فهناك العديد من المساجد والكنائس المتلاصقة في الأحياء القديمة، حتّى أنّ بعضها يشترك في جدار واحد. وتمتزج آثارها القديمة التي يفوق عددها (الـ١٦٠) أثراً بالعمران الحديث والمباني الشاهقة، ويتعانق الشَّرق والغرب في جو من الانسجام الذي يثير الدهشة والإعجاب، ممّا يعطي التبرير الحضاري لدعوات الترميم التي تطلقها الجمعيات التراثية والثقافية والاجتماعية والبيئية، لمعالمها الدينية والأثرية، إذ خلص مؤرّخو الفن المعماري إلى أن الأصل في الترميم هو الاهتمام بإعادة الاعتبار إلى المباني التّاريخية، وإحياء الصورة التي كانت عليها وقت بنائها، قبل أن تعتورها عوامل الزمن والاستخدام. وهذا ما يطلق

عليه عملية الاهتمام بالحجارة استناداً إلى نظرة عضوية ترى في المباني التّاريخية مخلوقات حيّة، تولد وتنمو، وتشيخ وتموت، ومن الواجب التعامل معها بنبل ووفاء وواقعية، وعدم تركها إلى مصيرها المحتوم من دون عمليات ترميم وتجميل. وتكتسب هذه الدعوة الرائدة لمؤرخ الفن النمسوي الشهير «ألويس ريغل» أهميتها البالغة، من خلال الاتفاق على أنّ هناك مباني ومدناً تتمتع بقيمة تاريخية وفنية ومعمارية وأثرية وتذكارية، تستوجب معها الحفاظ عليها وترميمها. ومع أنّ الاختلاف قائم على المباني والمدن التي تكتسب هذه القيم، ومتى يحافظ عليها، وكيف، وإلى أي مدى يحق التدخّل في عمرانها ومبانيها، فإنّ خلاصة هذه الطروحات المختلفة قد أدّت إلى ظهور نظريات عديدة حصلت على غطاء الشّرعيّة الدوليّة، حينما قرّرت منظمة اليونسكو دخول معترك الترميم والحفاظ على الآثار، وتمّت ولادة منظمة (الإيكوموس) التي تمكّن خبراؤها من اعتماد مجموعة قواعد للترميم العالمية، حددتها وثيقة البندقية (١٩٦٦)، وتبعتها منظمة المدن الإسلامية المنبثقة عن منظمة المؤتمر الإسلاميّ بوثيقة لاهور (١٩٨٠)، وتشهد مدينة طرابلس في الفترة المتأخرة اهتماماً متزايداً بالحفاظ على التراث المعماري القديم للمدينة، من أجل تأصيل التراث، وضرورة ترميم أهم معالمها من جوامع، ومساجد، وكنائس ومزارات، وحمّامات وخانات، وقلاع وأبراج، وقصور وأسواق وغيرها ممّا تزخر به باعتبارها مدينة ذات تاريخ عريق. ومع ذلك فلا تزال بُناها العمرانية والمعمارية تعاني مشكلات ليس من السهل حلّها بالاهتمام بالعمارة فقط. فمع ازدياد حدة الأزمات الاقتصادية التي تشمل المجتمع الطرابلسي والأفراد، وتدفعهم إلى مزيد من الاستغلال العشوائي لمدينتهم ولمبانيها القديمة، ومع استمرار الضغط السكاني بتهديد بناها المعمارية والتحتية المكتظة، ومع تصاعد وتيرة الحديث عن مشاريع ضخمة لتنشيط الاستثمار السياحي والثّقافيّ في أحيائها القديمة، وإعادة تأهيل مبانيها التّاريخية لتوظيفها في خدمة هذا الاتجاه الاقتصادي الإنمائي، يظهر على سطح النقاش، سؤال جوهري لا يحاول أحد الإجابة عنه، لمن سترمم المباني التّاريخية في مدينة طرابلس، هذا إنْ رممت؟ إنّ مواجهة هذا السؤال الصعب مهمة جداً، ليس لأنها ستحدد الكثير من ملامح وأهداف الترميم الذي جرى ويجري

وسيجري اليوم وفي المستقبل القريب فحسب، بل لأنها ستسمح لنا بأن نتطرق لفكرة ترميم معالم طرابلس وعماراتها، وأن نتفحصها من خلال دورها الاجتماعيّ وعلاقتها بالذين يفترض أن يعيشوا نتائجها في حياتهم اليومية: أبناء المدينة أنفسهم، لا زوّارها والسيّاح في جنباتها، الذين ـ وإن كانوا يشكّلون مصدر دخل وطني لا يستهان به ـ لا يمكن أن يكونوا الهدف الأول للترميم، كما يظهر اليوم في أدبيّات الترميم الرسمية في أكثر من دورية ثقافيَّة. فأهل المدينة هم الأساس في التعامل مع العمارة والعمران سلباً أو إيجاباً، والمراقب العادي سيلاحظ أنّ مواطني طرابلس، ويا للأسف، لم يتعلّموا احترام عمرانها برغم الصورة المشجعة التي تظهرها مختلف وسائل الإعلام. فوعينا وتصرفاتنا لا يحملان ملامح تغيير كبير عما عهدناه من الإهمال والتسيّب والكسل التي طبعت مقاربتنا في الماضي للحفاظ على التراث العمراني والمعماري لطرابلس، كمواطنين وسكان لهذه الحاضرة، وفي بعض الأحيان للأثر التّاريخيّ نفسه. ولهذا أسباب عدة لعل أهمها أن أبناء المدينة لم يشعروا في أي وقت من الأوقات، أن معالمها ومبانيها تحظى بالأهمية عندهم، وأن من مصلحتهم كأفراد ومجموعات ومواطنين الحفاظ عليها والاعتزاز بها. وتحتضن مدينة طرابلس مركزاً للدراسات العليا المتخصصة في علم الترميم والحفاظ على الأوابد والمواقع التّاريخية، وهو المركز التعليمي الأول من نوعه في منطقة الشَّرق الأوسط، وقد ولد نتيجة لحاجة المدينة القديمة إلى خبراء يرممون آثارها، لإظهارها في أجمل صورها، ومن أهدافه الانفتاح أكثر فأكثر على العالم الخارجيّ وخبراته، وإقامة المؤتمرات العالمية التي تؤمن الفرص للخبراء العالميين بالاحتكاك وتداول آخر ما وصل إليه علم الترميم في العالم، وللمركز دور استشاري لمنطقة الشَّرق الأوسط كلها برغم أنه حالياً الوحيد فيها، وهذه الامكانات هي التي تدفعنا إلى طلب الكثير منه.

وتعتبر مدينة طرابلس من أغنى المدن المطلّة على الساحل الشَّرقيّ للبحر الأبيض المتوسّط بآثارها المتنوعة، إن لم تكن أغناها على الإطلاق، فالمدينة القديمة التي تمتد نحو كيلومترين طولاً، من بوابة (الحدادين) جنوباً، إلى بوابة (التبانة) شمالاً، نحو كيلومتر أو يزيد عرضاً، من (التكية المولوية) شرقاً، إلى

(سراي الأمير مُحمَّد) المعروفة بالسراي العتيقة غرباً، هي متحف مفتوح، دائماً وأبداً، لأهله وزائريه، وهي تضم ثروة حضارية لا تقدّر بثمن، بتنوع معالمها التّاريخية، واكتظاظ آثارها العسكرية والدِّينيَّة والمدنية على نحو لافت لا مثيل له إلاّ في القاهرة ودمشق.

فالقلعة القائمة على تلة الحجاج شهدت معالمها عصوراً متعاقبة من تاريخ المدينة، ففيها الآثار الفاطميَّة، والصَّليبيّة، والمملوكية، والعثمانيَّة، وحولها، في سفحها، تنتشر المساجد والمدارس، والزوايا، والتكايا، والحمّامات، والخانات، والمياه، والعقود والقصور، والمزارات، والأديرة، والكتابات المنقوشة، والأعمدة والتيجان، والضرائح، والبوابات، والقناطر، والقباب، والأبراج، وغير ذلك من المعالم الأثرية والإنسانية. هذا فضلاً عن معالم مدينة الميناء وآثارها المتنوعة، بين أبراجها الحربيَّة المنتشرة على ساحل البحر، ومساجدها، ومدارسها، وكنائسها، وحمّاماتها، وخانها الكبير، وسورها القديم، وأحيائها القديمة، التي أنشأها الفينيقيون قبل نحو ثلاثة آلاف عام، وتعاقب عليها (الرومان، والبيزنطيّون، والفرس، والأمويون، والعبّاسيّون، والطولونيون، والإخشيديون، والفاطميّون، وبنو عمار، والصَّليبيّون، والمماليك، والعثمانيّون)، ولا تقتصر الآثار على المدينة والميناء فحسب، بل إنّ مدن محافظة الشمال وقراها، تعتبر من أغنى محافظات لبنان بالآثار القديمة والمتنوعة، مثل: عرقة، وحلبا، وعكار العتيقة، والسفيرة، والقليعات، وإيعال، والبترون، وأنفه، والقلمون، والبلمند، وبشمزين، وبكفتين، وكفر قاهل، وأميون، ووادي قاديشا، والمسيلحة، وغيرها.

إن هذه الثروة الهائلة من المعالم الأثرية ينبغي حمايتها والحفاظ عليها، إن لم نتمكن من تنميتها عن طريق التنقيبات والكشف والبحث، في ظل الظروف الراهنة، والإمكانات المتواضعة، وإن الدُّول الأوروبية تعتبر آثارها الموروثة ثروة قومية ووطنية، وموردًا حيوياً لصندوق دخلها، ولذا تعنى بالحفاظ على آثارها، برغم عدم قدم معظم تلك الآثار وأهميتها الحضارية، قياساً على آثارنا العريقة. وليس غلواً في القول إن هناك إهمالاً متعمداً تجاه آثار محافظة الشمال عامةً،

ونجاه آثار طرابلس خاصةً، وتكفي الاشارة إلى أن فرع مديرية الآثار في طرابلس والشمال لا وجود له منذ سنة ١٩٧٦ حتّى الآن. ونتيجة لهذا التغيّب، نجد تجارة تهريب الآثار إلى خارج لبنان رائجة، وترمي إلى سلخ تراثنا وأصالتنا، لنكون أمة لا تراث لها ولا تاريخ، وهذه من أخطر الحلقات التي تستهدف حضارتنا. وتبقى الحاجة ماسة إلى اكتشاف طرابلس أركيولوجياً وتاريخياً. ودفعت الحفريات باتجاه معرفة الشيء الكثير عن بعض المدن مثل (جبيل وصور وصيدا وبعلبك) ولم تكشف (طرابلس) عن أسرارها وكنوزها الأثرية التي أعطت صورة عن خصائص مدينة تمتاز بأهمية حضارية استثنائية باعتبار أن «الأونيسكو» قد صنّفتها الثّانية بعد القاهرة مدينةً غنية بالآثار المملوكية. وفيها مرفأ يتمتع بموقع تجاريّ تاريخي ممتاز، ومعرض دولي، وتزيّنها جزر بحريَّة متناثرة، ومحميات بيئية، ومنتجعات سياحية، مما يجعلها موئلاً للزوار من جهات العالم الأربع. أهم حرفها: النحاسيات، والحفر على الخشب، وصناعة المفروشات والصابون والزجاج. وتشتهر بحلوياتها الذائعة الصيت، وبإنتاج (ماء الزهر) و(الورد). وتحيط بها مناطق جبلية من أروع أماكن الاصطياف والإشتاء، وتتمتع بمسحة جمالية طبيعية خلاّبة حيث مراكز التزلج، والشلالات والمنحدرات المائية، والمطاعم والمتنزهات والفنادق، كانت في الماضي منطقة زراعية مميزة، ولقبت (بالفيحاء) وتفوح بأريج أزهارها الربيعية، وتنتج الحمضيات والفاكهة والخضر والزيتون والزيت.

طرابلس: جذور التسمية

تذكر دراسات تاريخية عدة أنّ (طرابلس الشّام) قد أسسها الفينيقيون في القرن السّابع، قبل الميلاد، على امتداد الشاطئ الشّماليّ الشّرقيّ لشبه جزيرة (الميناء)، وأطلقوا عليها اسم «أثر»، وكانت تتألف يومئذ من ثلاثة أحياء ضربت حولها الأسوار.

سكن المدينة الجديدة، ذات الأحياء الثلاثة، مجموعة من أهالي المدن الفينيقية الساحلية الثلاث: صور وصيدا وأرواد، الذين برعوا في صنع السفن المشهورة بشكلها المميّز، وبسرعة حركتها، ممّا أتاح لهم فرص التفوق والتقدم التّجاريّ في مدن حوض البحر الأبيض المتوسّط، حتّى لقبوا باسم: عرائس البحر.

وقد أخذت طرابلس اسم المدينة المثلّثة «تريبوليس»، ثم عرّبها الفاتحون. ولم تلبث مع الأيّام، لأهمية موقعها الإستراتيجي، أن أصبحت عاصمة الاتحاد الفينيقي، ومقراً لمؤتمره السنوي العام الذي كان يضم ممثلين عن سكان جميع المدن الفينيقية، وكان لهذا المؤتمر الأثر الفاعل في إشعال نار الثورة على الاجتياح الفارسي سنة ٣٥١ ما قبل الميلاد. وإن دلّت هذه الظاهرة على شيء، فإنما تدلّ على أنّ الديموقراطية التي جسّدها مؤتمر الشعب الفينيقي في طرابلس، ثمّ تطورت فأصبحت انتخاباً لممثلين عن الشعب في مؤتمر مجلس الشعب هي أول مولد للديموقراطية في العالم، وكان ذلك على هذه البقعة من الأرض التي اسمها (طرابلس)، وعندما استتب الحكم للفاطميين في هذا الساحل، كانت (طرابلس) إمارة يحكمها (آل عمّار)، وهم أسرة من العلماء والحكماء، اشتهرت بالعدل والتسامح ورحابة الصّدر والمرونة، وكانوا ألمع أمراء العرب وأوسعهم جاهاً وثراءً، فعرفت المدينة في أيّامهم مرحلة من الطمأنينة والهناء والمسرّة والازدهار، مما حمل بعض المناطق الساحلية على الانضمام إلى طرابلس، طلباً للعدالة التي

بلغت ذروتها، وللازدهار الذي بلغ أوجه في مرافق العمران والاقتصاد والزراعة والصناعة، ولا سيما صناعة الورق. وفضلاً عن ذلك كلّه، كان أمراء بني عمار يحيطون العلماء والأدباء بالأعطيات والتكريم، فارتفع مستوى العلم والثّقافة، وتجسد بإنشاء مدرسة ومكتبة ذاع صيتها في ذلك الزمان، واعتبرت من أرقى المكتبات العربيَّة قاطبة، إذ كانت تحتوي على أكثر من تسعمائة ألف مجلد تبحث في شتى المواضيع العلميَّة والأدبيَّة، كتبت جميعها بالخط اليدوي، وكانت قيمتها لا تقدر بثمن، مما حدا أشهر الأدباء والشعراء العرب وغيرهم على ارتياد المدينة، وزيارة مكتبتها التي سميت «دار العلم».

استناداً إلى هذين الحدثين التّاريخيين الكبيرين، اختير لطرابلس شعار «طرابلس مهد الديموقراطية ودار العلم»، وإطار الشعار عبارة عربيّ استعمله الطرابلسيون لدى صدّ هجمات الحروب الصّليبيّة، وفكّ الحصار عن المدينة، واقتحام قلعة (سان جيل) وحرقها، في موقعة حربيَّة في ٢٨ مارس/آذار ١١٠٥ ـ بقيادة الأمير فخر الدّين بن عمار الملقب باسم «أبو علي»، وقد أعطيَ بعدئذ اسمه للنهر الذي يخترق المدينة آتياً من وادي قاديشا. أمّا النقش المحيط بهذه فهو النقش العربيّ المسمّى بـ«العروة الوثقى»، دلالة على التعاضد والتلاحم والوفاق، وفوق الكتاب المفتوح، الذي يرمز إلى العلم والديموقراطية، كُتبت كلمة (طرابلس) بالحرف الكوفي. يتوسط الترس قطاع بحريّ تسبح فيه ثلاث عرائس بحر إشارة إلى الفينيقيين مؤسسي المدينة المثلّثة. وتحت القطاع البحريّ إلى اليسار، رسم لقلعة (سان جيل) ذات الدور التّاريخيّ في حياة أهالي المدينة، وكتب اسم المدينة تحت الرسم، بالأحرف القوطية، نسبة إلى منشئيها (الغولواز)، للدلالة على غنى طرابلس بالآثار البالغ عددها في الوقت الحاضر أربعين أثراً، ثم يعتلي هذا الرسم الرمزي شاهد إسلاميّ تتوسطه أرزة الخلود رمز الدّولة، رمز الجبل الأشم، ورمز العلم، إشارة إلى موقع طرابلس في هذه المنطقة الشمالية اللبنانيَّة، وإلى كون المدينة عاصمة شمال لبنان، وتجسيداً للحمة اللُّبنانيَّة والوحدة الوطنيَّة بين أهالي الجبل والساحل.

وقد تناول المؤرخون اسم مدينة طرابلس كلّما ذكروها في كتبهم بألوان

مختلفة من التأويل والتعليل والتحليل، وذهبوا في تفسيرها كل مذهب، وبرغم أنّ الرأي التقليدي لأكثر هؤلاء المؤرّخين كاد يستقر على أن كلمة «طرابلس» ترجع في أصلها وتركيبها إلى اللُّغة اليونانية، فإن هناك آراء أخرى، وإن كانت قليلة، تجزم بأن هذه الكلمة اليونانية قد أصبحت اسماً للمدينة في مرحلة تالية من تأسيسها للمرة الأولى، وأن اسمها الأساسي كان غير ذلك. ولمّا كانت وجهات النّظر غير متفقة في هذا الموضوع، فإننا نورد مختلف الأقوال التي قدّمها المؤرخون، من قدامى ومحدثين، في بيان أصل اسم طرابلس والمعاني التي التصقت بهذا الاسم عبر التّاريخ.

(طرابلس) هو اسمها الحالي، وقد جاء في المجلد السّادس من مجلّة «المقتبس» الدّمشقيّة، في الصفحة ٧٦٣: «سمّيت (طرابلس) بهذا الاسم، أي البلاد الثلاثة، لأنّ مهاجري ثلاث مدن فينيقية، وهي: (صور) و(صيدا) و (أرواد) بنوها، وكان كل حيّ من أحيائها الثلاثة يفصله عن الآخر سور، على أنّ الاسم الفينيقي غير معروف». ويؤخذ من كلام «المقتبس» أنّ صاحب المقال المذكور، يعتقد بأنّ كلمة طرابلس أصبحت علماً على المدينة من حين إنشائها، لكي تكون مقرّاً لاجتماع ممثلين عن الممالك الفينيقية القديمة: (صور) و(صيدا) و(أرواد)، وذلك حوالى أواسط القرن الرّابع قبل الميلاد (٣٥٩ ـ ٣٣٨). وإن كان يشير إلى احتمال وجود اسم فينيقي لها، ولكنّ هذا الاسم تعذرت معرفته على المؤرخين. بيد أنّ واقع المدينة ومنطق الأحداث التي تعاقبت عليها، لا يشجعان الباحث المدقق على اعتماد هذا الاستنتاج، وذلك بأنّ ممثلي الممالك المذكورة، ما كان لهم أن يختاروا المقام في أرض خلاء، لا تتوافر فيها مقومات السكن قبل قدومهم إليها، ليتّخذوا منها نادياً يضمهم من أجل تبادل الرأي فيما بينهم حول مصالح ممالكهم، أو لعقد مؤتمرهم الدائم فيها لدراسة الأحداث السيّاسيّة التي تحيط بهم. فممّا لا شك فيه أنّ المدينة كانت قائمة البنيان، وعامرة بالسكان، قبل أن تنزل وفود أهل (صور) و(صيدا) و(أرواد) فيها. وهذا ما أكّده مؤلفا كتاب «ولاية بيروت»: (مُحمَّد بهجت ورفيق التميمي)، في الصفحة ٢١٣ من الجزء الأول، حين قالا: «كانت هذه المدينة موجودة في القرون الأولى. ويزعم قدامى المؤرخين، أنّ فينيقيي

(صور) و(صيدا) و(أرواد) أسّسوا مجلساً دائماً، يلتئم في (طرابلس) لأجل الاشتغال بالأمور الخطيرة. وقد كانت كل بلدة من هذه الثلاث ترسل مائة عضو إلى هذا المجلس، وكان أولئك المفوّضون يسكنون في محلات متفرقة، وهكذا سميت بالثلاثة بلاد، وكانت هذه البلاد في موقع الأسكلة (الميناء)، و(السلفتانية) التي هي مقبرة للروم الأرثوذكس، وموقع (البحصاص)». على أنّه إذا كانت الأقوال المتناقلة قد وصلت إلينا، بأنّ الدُّول التي كانت ترسل مندوبيها إلى طرابلس في شكل مؤتمر قومي، هي ثلاث فقط، فليس علينا أن نعتبر أنّ هذا الرقم حقيقة تاريخية ثابتة، لأنّ الواقع يخالف ذلك، إذ إنّ الذين كانوا يجتمعون في طرابلس في ذلك العهد كانوا يمثّلون دولاً أربعاً، لا ثلاثاً، وهي: (أرواد) و(صور) و(صيدا) و(جبيل). ويقول الدُّكتور فيليب حتّي، في الصفحة ٢٤٦ من الجزء الأول من كتابه «تاريخ سورية ولبنان وفلسطين»، المترجم إلى العربيّة: «كانت دمشق المدينة الرئيسية في سورية في العهد الفارسي، أمّا في فينيقيا فسمح لأربع مدن هي: (أرواد)، (جبيل)، (صيدا)، و(صور) بممارسة الحكم الذّاتي المحلّي، وأعطيت كلّ منها حق الحكم على دولة صغيرة. وفي القرن الرّابع ما قبل الميلاد، اتّحدت دويلات المدن الفينيقية هذه، وجعلت من (طرابلس) وهي مدينة حديثة العهد، مقرّاً للمؤسسات الاتحادية». وعلى هذا فإنّ مدينة (طرابلس)، إنّما أنشئت، وحفلت بالساكنين فيها، على عهد السيادة الفارسيَّة بالبلاد الفينيقية. وليس من المعروف أنّ اليونانية واللاتينية كانتا من اللّغات المحكية لدى عامة الشعب الفينيقي يومئذ، أو أنّهما كانتا بالضرورة مصدراً لغوياً تؤخذ منه أسماء الأمكنة وأعلام المدن. فضلاً عن أنّ افتراض نسبة «تريبولي شي ى» إلى الممالك المؤتمرة في المدينة، على أنها ثلاث، لا يتفق مع عددها الحقيقي، وهو كما رأينا أربع لا ثلاث. إذاً، لا بدّ أن تكون كلمة «طرابلس» جاءت متأخّرة عن زمن إنشاء المدينة. وأنّ الّذين أطلقوها ثم استعملوها كما هي عليه اليوم، إنما فعلوا ذلك في فترة لاحقة، وقد أكّد «جايمس» حسبما نقل عنه «الفيكونت دي طرزي» في الصفحة ٢٥ من كتابه: «أصدق ما كان عن تاريخ لبنان»، أنّ المقدونيين «اليونان» هم الذين أطلقوا عليها اسم طرابلس، إشارة إلى مدن ثلاث كانت قائمة تلك الأيام في موقعها نفسه.

وبعد أن تبيّن لنا أنّ الّذين كانوا يجتمعون في طرابلس من الفينيقيين هم مندوبو أربع مدن لا ثلاث، لم يعد بوسعنا تفسير كلمة «تريبولي» من خلال عدد ممالك هؤلاء المجتمعين، وأصبح لزاماً علينا أن نفسّرها من خلال واقعها الإقليمي المحلي، ولعل ذلك يدنينا من حقيقة أصل هذه الكلمة ومعناها الواقعي. وعلى هذا الأساس نجدنا متّفقين بالرأي مع مؤلفي كتاب: «ولاية بيروت»، اللذين قالا كما بيّنا من قبل، إن كلمة «طرابلس» تعني ثلاث مدن كانت تقوم قديماً حيث توجد اليوم: الأسكلة (الميناء)، و(السلفتانية) (حيث مقبرة الروم حالياً)، وموقع (البحصاص) (الذي يبتدر القادم إلى طرابلس الحالية من طريق بيروت). على أنّ «سايس الإنكليزي» تبنّى رأي العلّامة الألماني «دالتزش» الّذي يؤكد أن المدن القديمة الثلاث التي عرفت فيما بعد باسم «طرابلس» كانت: (محالات) و(مايزا) و(كليزا). ولقد بنى العلّامة الألماني المذكور رأيه هذا، على ما وجده الأثريون في الحقبة الأخيرة، وهو عبارة عن أعمدة ثلاثة نقش عليها ٣٨٩ سطراً، بالقلم المسماري واللّغة الآشورية، جاء فيها على لسان الفاتح الآشوري «أشور ناتسيربال» الآتي: «يومئذ حللت لبنان، وإلى البحر العظيم، علّقت سلاحي، ونحرت النذور للأرباب، وأخذت الخيرية من ملوك سواحل البحر، و(الصوريين)، و(الصيداويين)، و(الجبيليين)، و(المخالاتيين)، و(الكايزيين)، و(المايزيين)، و(الفينيقيين)، ومن أهل (أرواد) الذين في وسط البحر، فضةً وطهباً ورصاصاً، ونحاساً وصحاف نحاس، وملابس شتى وثياب كتّان، وصولجانات، كباراً وصغاراً، وخشب «أوزو»، ومقاعد من العاج، وسلاحف بحريّة، كل ذلك، أخذت جزية، وقد قبّلوا رجلي. وإلى جبال «خماني» صعدت، وجسوراً قطعت، ونحرت الذبائح لآلهتي، ونصبت نصباً لأعمالي الحربيَّة، وكتبت عليه. (وذلك على الصخور القائمة إلى جانب نهر الكلب شمالي مدينة بيروت).

ويقول (جرجي ينّي)، في الصفحتين ١٣١ و١٣٢ من مجلّة «المباحث» - السنة العاشرة: «وجرياً على خطة إطلاق أسماء المدن على سكانها، استنتجنا أن (المخالاتيين) و(المايزيين) و(الكايزيين) هم أهل مدن كانت تسمى: (مخالات) و(مايزا) و(كليزا). على أنّنا لا ندري أين موضع هذه المدن من الساحل أو إلى

جواره؟ وإنّما آثر العلاَّمة «دالتزش» الألماني أن تكون هذه المدن الثلاث على مقربة بعضها من بعض، في الموضع الذي عرف فيما بعد باسم «تريبولي شي ي»، وكان العلاّمة «سايس» أقرّ بهذا الرأي فأدرجه في كتابه واستشهد به. وسواء أأخذنا برأي، داتزش، أو برأي مؤلفي كتاب، ولاية بيروت، فإنّ كلا المصدرين قد عالج اسم طرابلس بأسلوب أقرب من غيره إلى المنطق والمعقول، لأن كلمة «بوليس» اليونانية تعني في اللُّغة العربيَّة: المدينة، فليس من المستبعد أن يكون اليونانيون قد استعملوا كلمتهم (تريبولي) للمدن الثلاث المذكورة، التي أصبحت في أيّامهم مدينة واحدة، ولقد رأينا من قبل كيف أنّ معظم الّذين حققوا كلمة «طرابلس» حرصوا على معناها التثليثي سواء أكان هذا التثليث نسبه إلى الممالك الفينيقية القديمة، أو إلى المدن أو الأحياء التي كانت موجودة في مكان طرابلس القديمة نفسها، على ساحل البحر الأبيض المتوسّط. إلا أن هؤلاء وجدوا إلى جانبهم فريقاً آخر من المؤرخين الذين لا يعتدون بفكرة التثليث البلدي «اليونانية»، بل يذهبون إلى أنّ هذه المدينة، «طرابلس»، لم تكن في الأصل من حيث الواقع الإقليمي، إلاّ بلداً واحداً، وأنّ اسم هذا البلد في القديم، قبل أن يستقرّ فيها اليونانيون ويتعرفوا عليها، هو «أثر» أو شيء يشبه هذه الكلمة أو معناها. والحجة العلميَّة التي بنى عليها هؤلاء نظريتهم، هي أن طرابلس عرفت في تاريخها القديم امتداداً أرضياً واحداً تحت حكم الملك الفارسي «أرتحششتا الثّالث»، أو «كورش»، وذلك من سنة ٣٥٩ حتّى سنة ٣٣٨ق.م. ودليلهم على ذلك، ما ورد في قطعة نقود محلية طرابلسية يرجع تاريخها إلى ما بين سنتي ١٨٩ و١٨٨ق.م، كما ذكر ذلك فيليب حتّي في الصفحة ٢٤٦ من مؤلفه المذكور آنفاً. وليس لدينا على هذا الرأي أي تعليق لعدم توافر المراجع. أمّا المؤرّخ اللُّبنانيّ العلاّمة جواد بولس، فقد ذكر في كتابه الذي ألّفه باللُّغة الفرنسية في خمسة أجزاء تحت عنوان: «تاريخ وحضارات الشّرق الأدنى»، أنّ طرابلس قديماً كانت تسمّى «وهلية»، ونظراً إلى غرابة هذا الاسم، وعدم وروده في غير الكتاب المذكور، فقد اتصل الشيخ الراحل طه الولي ببولس عله يقف مباشرة، على مزيد من الإيضاح عن هذا الاسم الطريف، لكنّه اكتفى بالقول: إنّ الأسماء لا تعلّل، وأنّه وقع على هذا الاسم القديم لمدينة

طرابلس أثناء مطالعاته التّاريخية، ولم يزد على هذا بأي شرح أو تعليق.

والواقع أنّ جميع الذين حققوا كلمة «طرابلس» ودرسوها وأرّخوها، كادوا يجمعون، على أنّها يونانية اللُّغة والتركيب، إذ هي في رأيهم مزيج من كلمتي: «تري» أي ثلاثة، و«بولي» أي مدن، وليس من شك في أنّ الإجماع له ما يبرّره علمياً وتاريخياً، ذلك أنّ كثيراً من المدن في الشّرق، أو في الغرب، تحمل من الأسماء ما يشابه اسم طرابلس، من حيث التّأليف اللّغوي باليونانية، إذ لا تزال كلمة «بوليس» تأتي في ختام أسماء المدن التي أنشئت في أزمنة مختلفة بين الماضي والعصور الحديثة، غير أنّ المؤرّخ الولي وجد نفسه قبل أن يرفع قلمه عن البحث في أصل طرابلس ومعناها، مدفوعاً إلى التساؤل بشيء من الفضول: لماذا لا تكون كلمة «طرابلس» نابعة من اللُّغة الفينيقية، وهي لغة السكان الذين أسسوا المدينة بالذات؟ وما أثار في نفسه الرغبة في هذا التساؤل الذي لا يخلو في الواقع من الفضول، وهو ما لاحظه من وجود المقطع الأخير فيها «لوس» وهو اختصار «إيلوس» الذي يحاكي إلى مدى كبير، المقطع الأخير الذي تنتهي به أسماء العديد من المدن والقرى في سورية الطبيعية والعراق، حيث أسّس السكّان الأقدمون مواطنهم الأولى، وأطلقوا عليها اسم معبودهم الأكبر يومذاك الإله «إيل». ولعلّنا لسنا بحاجة إلى تكرار الشواهد في هذا الصدد. فكتب تقويم البلدان المعروفة تنطوي على أسماء مدن كثيرة في هذه المنطقة، ترجع إلى أصل سرياني أو (كلداني)، أو (آشوري)، أو (فينيقي)، وكلّها تنتهي بالمقطع نفسه «إيل»، مثال ذلك، (قرنائيل) و(بابل)، و(بيت إيلا)، و(أربيل)، و(جبرائيل)، وما إلى ذلك ممّا لو أردنا إحصاءه لطال بنا البحث، وعلى هذا، فلماذا لا تكون كلمة «طرابلس» فينيقية الأصل، ومركبة من كلمتي: «تراب» و«إيل» أي «تراب الله»، وبمعنى آخر «أرض الله»، كقولنا في اسم مدينة جبيل الواقعة إلى الجنوب من مدينة طرابلس، التي أصلها مركّب من كلمتي «جب» و«إيل» أي «معبد الله»، مع العلم أنّ «إيل الفينيقية» هي نفس «الله» العربيّة و«هيليو» اليونانية. وفي هذه الحال إذا اعتبرنا كلمة «طرابلس» مؤلفة من كلمتين فينيقيتين، فإننا نستبعد أن تكون هذه الكلمة يونانية الأصل، وأنّها لم تعرف بهذا الشكل إلاّ في العهد اليوناني في البلاد، ولاسيما أنّنا

قد رأينا من قبل، أنّ اجتماع مندوبي الممالك الفينيقية، إنّما عقد في رحابها خلال السيادة الفارسيّة عليها (٣٥٩ ـ ٣٣٨ق.م.)، وممّا يزكّي لدينا هذا التعليل لاسم «طرابلس» ويدفعنا لأن نميل إلى ترجيحه والأخذ به، أنّنا نجد في جوار هذه المدينة، إلى الجهة الشّماليّة الشّرقيّة، جبلاً يطلّ عليها مباشرة، وهو يسمّى «جبل تربل». ويقول السيد عبد العزيز سالم في الصفحة السّابعة من كتابه «طرابلس الشّام في التّاريخ الإسلاميّ»: «إنّ لفظة «تر» فينيقية، معناها الجبل»، وتقابلها لفظة «طور» بالعربيّة بمعنى الجبل الذي يكسوه الشجر (ياقوت في «معجم البلدان»، مادة طور، المجلد الرّابع، طبعة بيروت، ١٩٤٧)، كما هو الشأن في طور سيناء. وتكرّر هذا الاسم «تربل» مرّة ثانية في سهل البقاع (سوريا المجوفة كما عرف قديماً)، حيث نجد كذلك كلمة «تربل» علماً لإحدى القرى الزراعية في ذلك السهل، ولم نعهد أحداً من علماء تقويم البلدان (الجغرافيا) وأسماء الأمكنة حاول تفسير هذه الكلمة التي للجبل أو القرية، من خلال اللُّغة اليونانية، مع أنّ تركيبها الحرفي يكاد يكون من نفس تركيب كلمة تريبولي الفرنسية المعروفة، والتي تعني المدن الثلاث بالعربيّة. بعد هذا، أفلا يحقّ لنا في مثل هذه الحالة، أن نجد في تكرار اسم «تربل»، في كل من المدينة والسهل والجبل، ما يدلّنا على أنّ القاسم المشترك بين هذه الأسماء الثلاثة المتشابهة هي دائماً كلمة «تراب».

وعند رجوعنا إلى ما كتبه أنيس فريحة في الصفحتين ٧٨ و٢٠٦ من كتابه: «أسماء المدن والقرى اللُّبنانيَّة»، تحت مادتي (طرابلس) و(تربل)، وجدناه يكاد ينحو في تفسير هاتين الكلمتين منحى الشيخ العلّامة الولي، مع اختلاف شكلي في ما يتصل بالمقطع الأخير في كلتا الكلمتين وهو «إيل». ففريحة قال: «الشائع أنّ اسم طرابلس إغريقي، يعني ثلاث مدن، ولا نرى داعياً لأن يكون الاسم إغريقياً فإنّ طرابلس أقدم من الإغريق، إذن لها اسم أقدم من مقدم الإغريق، ونحن نرجّح أنّ يكون الاسم «تربل» جبل الإله «بيل» ثم أضيفت إليه اللاحقة الإغريقية. و«بيل» إله ساميّ قديم، وقد يكون «تربل» بجانب «بيل»، أو بالقرب من «بيل»، وقد يكون «تربل» «دهن الله». وهكذا يكون فريحة قد سبق الشيخ الولي إلى استبعاد الأصل اليوناني عن كلمة «طرابلس»، إذ بادر إلى تحليلها من خلال اللُّغة الفينيقية المحلية

التي كانت لغة القوم الذين بنوا المدينة، قبل أن تدخل في حوزة الأمم الأخرى، من يونانية أو فارسيَّة أو غيرهما، إلاّ أنه رأى أن يضيف «الباء» التي في وسط كلمة طرابلس إلى المقطع الأخير من هذه الكلمة، وجعل منه كلمة مستقلة تعني إلهاً قائماً بذاته، أو محرفاً عن اسم الإله الفينيقي «بعل»، في حين يتراءى أنّ هذا الحرف «الباء» هو في الواقع جزء متمّم للمقطع الأول من الكلمة، بحيث تبدو كلمة «تراب» متكاملة الغرض والمعنى. في حين أنّ المقطع الأخير «لوس» هو نفس كلمة «إيل» اسم المعبود الفينيقي الرئيسي القديم، وذلك بعد سقوط الحرف الأول منه أي «الهمزة»، بسبب اتصال الكلمتين اللّتين تشكلان المقطعين: «تراب» و«إيل»، وتحوّلهما على ألسنة الناس إلى كلمة واحدة بعد إضافة الواو والسين إلى آخرها.

وقد أخذ السيد عبد العزيز سالم أستاذ التّاريخ الإسلاميّ المساعد بجامعة الإسكندريَّة، برأي فريحة المتقدم، إذ قال في الصفحة ١٨ من كتابه «طرابلس الشّام في التّاريخ الإسلامي»: وعلى هذا الأساس فإنّني أميل إلى تسميتها، أي طرابلس، إلى تربيل أو طوربيل في الفترة الواقعة ما بين إنشائها إلى أن تأسّست فيها الأحياء الثلاثة الممثلة لمدن فينيقية الكبرى (صور) و(صيدا) و(أرواد). واعتبر سالم أن رأيه الذي يعرضه على أهل الاختصاص هو في شكل تساؤل، لا يطمح إلى أن يلزم به التّاريخ، ولا المؤرخين، ولكنه قدّمه إلى بساط البحث والمناقشة فلعلّ أحداً ممّن هم أفضل منه علماً، وسعة أفق، وإطّلاع، في الدّراسات اللغوية والتّاريخية، يدلي إلى جانبه بدلوه، ويساعده على تخليص اسم (طرابلس) العريقة الخالدة، من البقاء الأجنبي اليوناني الذي أُضفي عليها، ويعيد إلينا هذا الاسم، إلى طبيعته القوميَّة وأصالته الوطنيَّة، كما وضعه أولئك الأسلاف الذين وهبوا الأرض التي أبصروا فوق تربتها المقدسة نور الحياة، إلى الخالق الأعظم، حين قالوا إنها تراب الله، أمّا حرفا الواو والسين اللذان ألحقا بحرف اللام في آخر الكلمة فلن يكونا عائقاً دون ما نذهب إليه من التعليل والتحليل، لأنّ هذين الحرفين، هما من علامات التفخيم والتعظيم التي تضاف إلى آخر أي اسم ذي بال، لاسيما عند الرومان واليونان، وليس لهذين الحرفين نصيب من أصل الاسم ولا معناه كما هو معروف.

ومن الأمثلة الحية على ذلك كلمة «بيريت» بيروت التي أصبح لقبها:

«بيريتوس» بعد أن منحوها لقب المستعمرة الممتازة. و«هيليوبول» (بعلبك) التي دعاها هؤلاء «هيليوبوليس»، بعد أن أصبحت عندهم كذلك مستعمرة ممتازة، ومن أسماء الأشخاص مثل «أوغست» الإمبراطور المعروف باسم «أوغسطس»، وهكذا.

ومعروف أنّ العرب لا يبدأون كلامهم بساكن، وإذا وقعوا على كلمة منقولة عن لغة غير لغتهم وتُلفظ مبدوءة بساكن فهم بين واحد من أمرين: إمّا أن يحرّكوا حرفها الأول، أو أن يضعوا قبل هذا الحرف همزة متحركة يبدأون بها الاسم الذي يبين أيديهم، وهكذا نجدهم قد فعلوا بالنسبة لكلمة (طرابلس) التي وجدوا أهلها يلفظونها مبتدئين بتسكين الطاء في أوّلها. فإنّ هؤلاء العرب وضعوا من عندهم قبل أول الكلمة همزة متحركة بالفتح ولفظوها «أطرابلس»، ولقد جاء في الصفحة ١٠٤ من كتاب «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشّام والجزيرة»، لابن شداد، الذي عني بنشره المعهد الفرنسي للدّراسات العربيَّة بدمشق، تحت عنوان «أطرابلس» ما يأتي: «قال البلاذري في مكان آخر من كتابه»: وكان معاوية أرسل سفيان بن مجيب الأزدي إلى «أطرابلس» وهي ثلاث مدن مجتمعة. «ثمّ قال ابن شداد نقلاً عن البلاذري»: وكان معاوية يوجه كلّ عام إلى «أطرابلس» جماعة كثيفة من الجند شحنها بها، ولم يكتب ابن شداد في الأعلاق اسم طرابلس إلاّ مبدوءاً بالهمزة، على نحو ما هو متّبع عند أمثاله من المؤرّخين السابقين له والمتأخّرين عنه على السواء. وفي حاشية كتاب «الأعلاق الخطيرة» كتيب حقّقه الدُّكتور سامي الدهّان نقلاً عن بعض المؤرّخين المسلمين الآتي: «في صبح الأعشى ١٤٢/٤: وهي (أي طرابلس) بفتح الهمزة، وسكون الطاء، قال السمعاني: وقد تسقط الألف عنها، فرقاً بينها وبين أطرابلس التي في الغرب (ليبيا الآن).

وأنكر ياقوت في المشترك، على المتنبي حذفها منها في بعض شعره (وقصرت كل مصر عن «طرابلس»)، فقد قال ياقوت في هذا الصدد: وقد فرق بعضهم بينهما، (أي بين طرابلس الشّام وطرابلس الغرب) فجعلوا التي بالشّام بالهمزة، والتي بالغرب بغير همزة.

ونعود إلى ما كتبه الدُّكتور الدهان في حاشية ابن شداد، «ك» في الإدريسيّ

(نزهة المشتاق) الورقة ٢٤٠، «ومدينة أطرابلس الشّام مدينة عظيمة عليها سور من حجر منيع، ولها رساتيق (مفردها الكورة أي المنطقة) وضياع».

وفي الصفحة ١٤٢ من الجزء الرّابع من (صبح الأعشى) (للقلقشندي): «ومعنى أطرابلس فيما يقال، ثلاث مدن وقيل مدينة الناس».

وفي النُّجوم الزّاهرة (لابن تغري)، ورد في الصفحة ٣٢٢ من الجزء السّابع، نقلاً عن شرف الدّين مُحمَّد بن موسى المقدسي في «السيرة المنصورية»، أن طرابلس «كانت عبارة عن ثلاثة حصون مجتمعة باللسان الرومي».

وأضيف إلى ما تقدم أن الشيخ الولي قد قرأ في بعض المراجع أنّ طائفة من المؤرخين المسلمين كانوا يفرقون بين طرابلس الشّام التي نحن بصددها وبين طرابلس الغرب، بأن يسموا الثّانية «أنطابلس»، والأولى «أطرابلس»، وذلك للتميز بينهما.

وإلى جانب اسم طرابلس، عرفت المدينة بألقاب ونعوت مختلفة تبعاً لشهرتها السيّاسيَّة، أو طبيعتها الإقليمية، أما لقبها النابع من شهرتها السيّاسيَّة، وذلك في عهودها القديمة، أيّام الفرس، فقد كان «دار الندوة»، أي المكان الذي اتخذه ممثلو المدن الفينيقية: أرواد وجبيل وصور وصيدا، نادياً لهم يجتمعون فيه لتداول شؤون إدارتهم المحلية، وعلاقتهم مع الدُّول التي كانت تحكمهم، أو تربطهم بها ظروف معينة، من خاصة وعامة، ولعل هذا اللقب قد غلب على المدينة في عهدها الفارسي، حينما كانت مقراً للزعماء الفينيقيين الذين تداعوا إليها لاتخاذ موقف موحّد من التدابير القاسية التي فرضها عليهم «أرتحششتا» الفارسي، قرابة القرن الرَّابع (ما قبل الميلاد، وأما اللقب النابع من طبيعتها الإقليمية فهو «الفيحاء الصغرى» ذلك لأنّها تحاكي بجمال موقعها وتقاليد أهلها وازدهار حدائقها، مدينة دمشق التي عرفت كذلك باسم «الفيحاء الكبرى». وليس من شك في أنّ الذي أطلق على طرابلس لقب «الفيحاء»، أصاب كبد الحقيقة، نظراً لأنّ هذه المدينة تبدو في أيّام الربيع في حلة قشيبة من الحدائق الخضراء، ذات المساحات الواسعة، حيث يأسر البصر منظر أشجار الليمون، على اختلاف أنواعه وضروبه، وقد غشت

أغصانه وفروعه أفانين الزهر العابق بأريج العطر الذي يضمخ المدينة بأنفاسه المنعشة التي تنتشر فوق ربوعها الجميلة، مع نسيمات العشي والآصال. ولله درّ الأدهمي الذي وصف طرابلس بقوله: «ومرجها اليانع الأخضر، وهضابها العقيق الأحمر، ولبنانها الأبيض المنيف المطلّ على زرقة البحر الكبير، ونهرها العذب الغضبان الذي أينع به من كل فاكهة زوجين» (كان نهر طرابلس يدعى «الغضبان»، وكذلك سمّاه عبد الغني النابلسي، أمّا اليوم فيُدعى «أبو علي» كما ذكر عبد القادر المغربيّ، (في مجلة المجمع العلمي العربي في الصفحة ٣٥٥ من الجزء الثّامن، وفي المجلد السّابع العائد لسنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م).

وتدعى المدينة في أيّامنا طرابلس، وقد تضاف إليها كلمة لبنان، لتكون علامة فارقة تتميز بها عن توأمها طرابلس التي تقع في ليبيا، وتعرف باسم طرابلس الشرق، ولقد أضيفت طرابلس إلى لبنان أخيراً، بعد أن كان لبنان من قبل يضاف إليها، وفي هذه المفارقة العجيبة يقول المرحوم الشيخ عبد القادر المغربيّ الطرابلسي في تعليقه على ما جاء في كراس الأدهمي المذكور آنفاً، «وكذلك جبل لبنان، نسبه المؤلف إلى طرابلس نسبة التابع إلى المتبوع فقال: «ولبنانها أي لبنان طرابلس»، أمّا اليوم فانعكس الحال، وأصبحوا يقولون: «طرابلس لبنان مكان لبنان طرابلس»، فسبحان المغيرّ ولا يتغيّر.

فها هي طرابلس في أسمائها وألقابها وصفاتها، نتقدم بها في هذه العجالة، وعندنا رغبة صادقة في متابعة الحديث عنها بما ينفع غلة القارئ إلى التوق لمعرفة هذه المدينة، عبر تاريخها ومن خلال تطورها، فلعلّنا نبلغ في ما نكتب ما نطمح إليه من الوفاء للمنزل الأول الذي ارتفع فيه رأسنا، ولا نقول سقط، من ضمير العدم إلى رحاب الوجود، والله هو المستعان على كل حال.

وكان الاعتقاد ولأمد طويل ـ يقول حارث البستاني ـ أنّ طرابلس قد تأسّست في الفترة الفينيقية إذ أفادت المصادر الإغريقية بأنّ تسمية «طرابلس» تعني «تريبوليس»، أو المدن الثلاث، أو الضواحي الثلاث التي تجمعت البضائع التّجاريّة في مرافئها الثلاثة الرئيسية في تلك الحقبة، وهي صيدا وصور وأرواد، مع أنّ التنقيبات والوثائق تشير إلى عكس ذلك.

ومن خلال النتائج الأولية غير النهائية لتلك الوثائق، يبدو أنّه في المكان نفسه أو الحيز الجغرافي الذي توجد طرابلس عليه اليوم، كان هناك منشأة مدينيَّة أكثر قدماً وتعود إلى الألف الثاني ما قبل الميلاد.

والذي دفع إلى إعادة الاعتبار إلى تلك المسألة هو القراءة المتأنية للنصوص التاريخية التي تعود إلى النصف الثّاني من الألف الثّاني ما قبل الميلاد، وهي لوائح «تل العمارنة» وحوليات الملك «آشوربانيبال الثّاني».

وعلى العموم فإنّ الأجزاء العائدة لتلك الوثائق، والتي تتناول منطقة لبنان الشّماليّ، فقد أطلقت الوثيقة الأولى منها تسمية «وحليا» على طرابلس، وأطلقت الوثيقة الثّانية تسمية «محلاتا» على المدينة. ويتحقق التقارب بين الاسمين، عندما نعلم من الناحية اللغوية أنّ «الحاء» في بداية الكلام في اللغات البابلية والآشورية القديمة قد انقلبت إلى «ميم» في النصوص التّاريخية المتأخرة.

وهناك تقارب آخر بين كلمة «محلاتا» ومصطلح «محلات» في العربيَّة التي تدل على الأمكنة.

واللغات السامية قريبة بعضها من بعض عموماً، وهذا ما يمكّننا من شرح المصطلح الآشوري باللُّغة العربيَّة. ونتوصل إلى استنتاج بأنّ مدينة طرابلس القديمة قد أثارت اهتمام باقي المدن الفينيقية في كل حين، إذ إنّ موقعها على الساحل كان استراتيجياً سواء أكان بالنسبة للملاحة، أم لتخزين البضائع التّجاريَّة.

ويصعب علينا التفكير في أن الفينيقيين الذين كانوا في ذلك العصر أسياد البحر والملاحة، لم يكترثوا لمدينة كطرابلس، خصوصاً في وقت كانت حضارتهم في أوج مجدها، وعصر توسعهم التّجاريّ وبناء المستعمرات قد بدأ بالنسبة إليهم في القرنين الثّالث عشر والثّاني عشر ما قبل الميلاد.

وحينما تعززت العلاقات مع الإغريق قبل الحروب الميدية وبعدها، وفي حقبة أطلقت على «ملك صيدون» تسمية إضافية «صديق الإغريق»، كانت هذه العلاقات الحميمة والطبيعية قد سهلت حركة المبادلات والمضاربات التّجاريَّة التي شملت كل المدن الفينيقية، حيث كان يأتي تجار الإغريق على نحو منتظم لتصريف

بضائعهم. هذا ومن المحتمل أن تسمية «محلاتا» قد استبدلت منذ ذلك التّاريخ بـ «تريبوليس».

ولم تتوانَ «تريبوليس» عن الازدهار، فأصبحت سريعاً مدينة كوسموبوليتية، مسكونة من مختلف شعوب المنطقة التي كانت تأتي إليها، بدافع الثروة وأهمية الحركة التّجاريَّة فيها.

وفي العصر الروماني، خضعت طرابلس لسيطرة «الإتروسك»، وما لبث أن برز نجم القائد العسكري «بومبي» الذي بدأت فتوحاته للشرق، فعارض وجود «الإتروسك»، وتمكن من إلحاق الهزيمة بهم في معركة قصيرة قتل فيها قائدهم، وأصبحت طرابلس تحت سيطرة الرومان، وبقيت تحت سيطرتهم وسيطرة البيزنطيين إلى حين بدء الفتح العربيّ، إذ وقعت بين أيدي القائد العسكري «سفيان» سنة ٦٣٥م، وأصبحت جزءاً من الدَّولة الأموية، ومن ثم الدَّولة العبّاسيَّة، إلى حين مجيء الصَّليبيّين لمرحلة قصيرة ما بين ٦٨٥ و٧٠٥م.

وسنة ٦٨٥م ثار مسيحيو المشيئة الواحدة ونجحوا في وضع المدينة والمنطقة تحت سيطرة الحكم المركزي في دمشق وأعلنوا استقلالها.

ومن سنة ٧٠٥م إلى حين سقوطها بين أيدي الصَّليبيّين مرّة ثانية، كان خضوع طرابلس يترنَّح بين الأمويين والعبّاسيّين والإمارات الصغيرة التي نشأت في المنطقة على هامش دولة الخلافة المركزية، مستفيدة من ضعف تلك السلطة وتفتتها.

ويبقى يوم الخامس عشر من شهر يوليو/ تموز من سنة ١٠٩٩م من الحوادث المهمة في تاريخ هذه المنطقة، إذ يسجل استيلاء الصَّليبيّين على القدس عقب حملة ترأسها أكثر قادة الحرب شهرة في الغرب «ريمون دي سان جيل»، أمير تولوز الذي توج سيطرة عرش المملكة اللاتينية على القدس. ومن ثم غادر القدس إلى الشمال للبحث عن إقليم يمكن أن يستملكه ليبني سلطته الذاتية، وبعد أن تمكن من السيطرة على جبيل وشمال لبنان، ابتعد عن طرطوس سنة ١١٠٢م وضرب حصاراً حول طرابلس ومنطقتها، الهدف الأقصى لحملته، لأنه كان يريد أن يجعل منها عاصمة لمملكته.

كانت طرابلس في تلك الحقبة مدينة محصنة ومحمية. ولكي يتمكن من إسقاطها وإخضاعها لسيطرته، احتل «ريمون دي سان جيل» الهضبة التي تشرف عليها، والتي تعرف اليوم بأبي سمراء، سنة ١١٠٢م، إذ حلّ وجنوده، وبنى برجاً سمّاه «جبل الحج»، بعدما محا كلّ أثر لاحتلال سابق، وجميع الحضارات التي تعاقبت على هذه التلة، من الألف الثّاني ما قبل الميلاد، وصولاً حتّى الحقبة الفاطميَّة، مروراً بالحقب الفارسيَّة والرومانية والبيزنطية.

وفي الحقبة الفاطميَّة تطوّرت على رأس هذه التلة مقبرة شيعية تحيط بمعلم أثري بثماني أضلاع، ليس سوى شاهد أقيم تكريماً لأحد الأئمة. وكان قد اعتقد، لزمن طويل، أنّ هذا المعلم يضمّ جثة ريمون دي سان جيل. لكن، في ضوء التنقيبات والنصوص التّاريخية العائدة لتلك الفترة، تبين أنّ هذا المقام ذا الأضلاع الثماني، قد أقيم في فترة الثورة الوثنية، ومن ثم استخدم لبناء كنيسة كانت معالمها ماثلة في ذاكرة «الكونت ريمون دي سان جيل» آنذاك، وهكذا وحول تلك الكنيسة تطوّرت المقبرة المسيحيَّة الجديدة.

وسنة ١١٠٥م، وعلى إثر الجروح البليغة التي أصيب بها، توفي «ريمون دي سان جيل» في قصره الذي يشرف على طرابلس، ونقل جثمانه إلى القدس حيث دفن. وسنة ١١٠٩م، وبعد الاستيلاء على ميناء طرابلس، توسع خلفاؤه بالقصر الكبير، فشهد تغيرات كبيرة، وأصبح كنيسة تحتوي على مهد رخامي من المحتمل أن يكون قد حُطِّم. وبقي القصر بين أيدي الفرنجة حتّى سنة ١٢٦٧م، الحقبة التي سقط فيها تحت السيطرة الإسلاميَّة بقيادة «بيبرس» الذي وجد صعوبة كبيرة في محاصرة ميناء طرابلس التي لم تسقط بأيدي المماليك إلاّ سنة ١٢٨٩م، وهكذا دُمّرت المدينة القديمة كلياً، وبنيت مدينة جديدة على أقدام القلعة، وفي مكان لم يكن سوى سوق متواضعة يرتادها التجار، ويجتازون ضفتي النهر المجاور ليبلغوا من ثمّ الطريق الساحلية.

ومنذ نهاية القرن الثّالث عشر، انتبه المماليك إلى أهمية القلعة (القصر)، فأعادوا النّظر بها وسعوا إلى ترميمها وتوسيعها. وسنة ١٥٢٠م، أكمل العثمانيّون ما

بدأه المماليك، وشيدوا باباً للقلعة يعتبر من تحفهم المعمارية الأثرية. وعلى العموم فإنّ أعمال الترميم والتحسين الأكثر أهمية والتي شهدها تاريخ القلعة هي تلك التي تحققت في القرن التّاسع عشر في أيّام «مصطفى بربر آغا» حاكم طرابلس، ووُجد فيها عدد كبير من المخطوطات المكتوبة بالعربيَّة والكرشونية، يعود إلى القرن الثّامن عشر. ويُعزى الفضل إلى الحفريات الأركيولوجية، التي أعلمتنا حالياً أنّه لا يجوز الجمع ما بين كنيسة القلعة وتلك العائدة لمار يوحنا في جبل الحاج، والتي تقع على بعد مائتي متر إلى الجنوب من القلعة، ونطورت حولها المقبرة التي تحمل اسمه. هذا المزيج الثّقافيّ كان قد بني ما بين ١١١٣ و١١٢٧م. ومقبرة مار يوحنا شبيهة من مختلف جوانبها بتلك المحيطة بالقلعة التي تطورت إلى كنيسة مزدوجة تتكون من مذبحين متداخلين، ويبدو المذبح الجنوبي مبنياً على نحو كامل، واستخدم في المناسبات الجنائزية، أمّا الشّماليّ فيظهر بالمقابل كل خصائص المعلَم غير المكتمل. أما المشكلة الثّالثة فتتلخّص بالمكان الذي توجد فيه كنيسة القديس توما. هذه الكنيسة الكائنة على جزيرة تقع مقابل شاطئ ميناء طرابلس، وقد أشار إليها المؤرخ «أبو الفداء» بأنّها كانت ملجأً للصليبيين الهاربين من طرابلس سنة ١٢٨٩م، ويصف الهلع الذي كان مسيطراً عليهم وهم يفرون على ظهور جيادهم، ويسبحون في مياه البحر باتجاه تلك الجزيرة، وإذا كان وصف أبي الفداء دقيقاً فإنّ الجزيرة ستكون واقعة على بعد عشرات الأمتار من مرفأ طرابلس، وأنّ أشجار النخيل القريبة ٦ كيلومترات، من المرفأ، وآثار الاحتلال الصّليبيّ السابق يتيح الفرضية القائلة بوجود الكنيسة والجزيرة. ولكنّ المؤشرات المحددة لأبي الفداء تؤكد في الوقت الحاضر الحكمة في إطلاق الأحكام على تلك النتائج، وإذا كانت نتائج الحفريات قد ارتكبت بعض النواقص المتعلقة بتحديد هوية معالم طرابلس فإنها قد أثارت إشكاليات أخرى.

على العموم، إذا كان بإمكاننا اعتبار كنائس الأرض المقدسة في العصر الصّليبيّ قد أخذت التصميم، على الأقل بالنسبة لاستبدال أمكنة أكثر الكنائس قدماً، والمعاد بناؤها، وفقاً لمبادئ العمارة الغربية العائدة لذاك العصر، والأمثلة عن تحولات المعالم الإسلاميَّة إلى أمكنة للعبادة المسيحيَّة نادرة بل غير موجودة.

وزيادة على ذلك، نحن لا نعلم البتة أنّ هناك كنائس صليبية تحتوي على زوايا ذات ثماني أضلاع أو غيرها، في حين أنّ هذا التصميم تفيد عنه المراكز العليا للعبادة المسيحيَّة في الأرض المقدسة، وعلى نحو ملحوظ في المرحلة العليا للقرون الوسطى الأوروبية. الفرق الوحيد القائم بين مجموع هذه المعالم وكنيسة القيامة في جبل الحج يكمن في الواقع في الحالة الأولى، هو ضرورة العبادة التي فرضت اعتماد هذا التصميم أو سيطرة ذاك، في حين أن في طرابلس، أو بالأحرى تصميم المعلم الكائن فيها (الشاهد) هو الذي حدد التعيين، وربّما في النهاية الخلاف أيضاً.

ويعقّب حسّان سلامة سركيس على حارث البستاني مشيراً إلى أنّه يعتدي مجدداً على حقوق الآخرين الأدبيَّة، إذ نشرت صحيفة «الأوريون لوجور»، الصحيفة الفرنسية اللُّبنانيَّة، مقالة وقّعها البستاني تحت عنوان: «لم تكشف طرابلس بعد جميع أسرارها وكنوزها الأثرية». وبعد قراءة هذه المقالة، تبيّن أن البستاني قد استعمل حرفياً وعلى نحو فاضح بعض منشورات سركيس، من دون أن يتكلف عناء ذكر مصادر معلوماته، أو الإشارة إليها على الأقل، وهو أمر من بديهيات أي نتاج علمي، وتحميه مبدئياً قوانين الملكية الأدبيَّة.

إنّ القسم الأول في المقال المذكور المخصص لعرض تاريخ طرابلس القديم، منقول بتصرف عن مقالتين نشرتا في السبعينات، الأولى في مجلّة «دفاتر العاصي» (عدد ١٠، ١٩٧١/١٩٧٢، الصفحات ٨١ ـ ١٠٢، تحت عنوان: «تاريخ طرابلس: منذ أقدم العصور حتّى الاحتلال الفرنجي». والثّانية في مجلّة «الدّراسات المختلطة»، الصادرة عن جامعة القديس يوسف في بيروت، (عدد ٤٩، ١٩٧٥/ ١٩٧٦، الصفحات ٥٥١ إلى ٥٦٣، تحت عنوان: «وحليا ـ محلاتا ـ طرابلس؟» ففي المقالة الأولى يقول سركيس: «كنا أول من طرح مسألة تفسير أحد النصوص الآشورية التي ورد فيها اسم «محلاتا»، واعتبرناه مرادفاً لكلمة «محلة» العربيَّة، وأرفقناه بخارطة توضيحية، وعلى إثر عثورنا في أثناء حفرياتنا في قلعة طرابلس على بعض الأثريات التي تعود إلى فترة «تل العمارنة» (القرن ١٤ ق.م.) عدنا إلى

الموضوع عينه، وربطنا اسم «محلاتا» الوارد في النص الآشوري باسم «وحليا» الوارد في رسائل «تل العمارنة» الشهيرة. وعلى الرغم من أنّ الكتب التي تعالج قواعد اللغات المشرقيّة القديمة، أقرّت بتحول حرف «و» الوارد في النصوص البابلية والآشورية القديمة، إلى حرف «م» في اللُّغة الآشورية الحديثة، فقد كنا أول من طرح مسألة الترابط بين«وحليا» و«محلاتا»، وأوّل من طرح مسألة المعادلة بين الاسمين، ومسألة كونهما يثبتان تواصل تاريخ طرابلس منذ أواسط الألف الثّاني ق.م. على الأقل حتّى الزمن الحاضر. كل هذا، دون أن يكلّف السَّيِّد البستاني نفسه عناء ذكر المجهول الذي قام بأعمال الحفر في طرابلس، وجاء بمثل هذه النتائج التي يتباهى اليوم، وبعد مرور ربع قرن، بعرضها على الرأي العام!».

أمّا القسم الثّاني من مقال البستاني فهو نقل سافر وحرفي لما جاء في «خاتمة» كتاب سركيس حول «طرابلس في الفترة الصَّليبيّة» (دار (غونتر»، باريس ١٩٨٠، من الصفحة ٢٤٧ إلى ٢٥٤)، والذي احتوى على درس جميع الحفريات المرتبطة بهذه الفترة ونتائجها، والتي أجريناها في عاصمة الشمال بين عامي ١٩٦٩ و١٩٧٥، من «المشهد الفاطميّ» إلى نقض نظرية «موريس دونان وبول ديشان» في شأن هوية هذا البناء، وعدم علاقته بقبر «ريمون دي سان جيل»، إلى إعادة الاعتبار إلى رواية المؤرخين العرب عن نقل جثمان «سان جيل» ودفنه في بيت المقدس، إلى إعادة تشكيل الكنيسة الصَّليبيّة في القلعة، إلى العثور على الصكوك والحجج الصَّليبيّة وتحليلها وإبراز هوية كنيسة القلعة على أنها «كنيسة القبر المقدس التي على تلة الحجاج»، إلى اكتشاف «كنيسة القديس يوحنا وجبّانتها»، وحلّ الإشكاليات السابقة بشأنها، إلى تفسير مسألة وجود الكتابات المدفنية العربيَّة والكرشونية، وإبراز دور مصطفى آغا بربر في ترميم القلعة، إلى تفسير مسألة إدخال الباب العثمانيّ الرئيسي في واجهة تعود إلى عصر المماليك، إلى حفريات جزيرة الأرانب، وإشكالية كنيسة «سنطمس»، وتحليل نصوص أبي الفداء، وما إلى ذلك.

وقد فتح العرب المسلمون طرابلس بقيادة الصحابي الجليل سفيان بن مجيب الأزدي سنة ٢٤هـ، واهتم بها الأمويون كمرفأ بحريّ، ومنها انطلق معاوية بأساطيله

نحو جزر المتوسّط، وجعلها الفاطميّون قاعدة لقواتهم البرية والبحريَّة في الشّام. وعندما غزاها الصَّليبيّون جعلوها عاصمة لإحدى إماراتهم الأربع. وخرجت من تحت يد الصَّليبيّين على يد السلطان المنصور قلاوون سنة ١٢٨٩م، الذي جعلها عاصمة لنيابة السلطنة، وأصبح اسمها في زمن المماليك «المملكة الطرابلسية الشَّريفة المحروسة». ومنذ سنة ١٥١٦م صارت طرابلس مدينة مهمة لدى العثمانيّين، وكانت عاصمة لإحدى إيالات بلاد الشّام. كما أطلق عليها لقب «مدينة العلماء»، لأنّها حفلت منذ أواخر القرن التّاسع عشر بعشرات المفكرين والعلماء في مختلف العلوم الفقهية والشرعية والأدبيَّة. وتميزت عبر تاريخها الطويل بأنها مدينة العيش المشترك والوطنيَّة، ولعبت الدور الأكبر في استقلال لبنان عن الدَّولة المنتدبة سنة ١٩٤٣، وفي النضال من أجل استقلال وتحرر الدُّول العربيَّة وجميع القضايا العربيَّة والإسلاميَّة والإنسانية.

الفصل الأول

التحولات التّاريخية في طرابلس الشّام وانطلاق الدعوة الإسلاميَّة الفاطميَّة الشيعية

تمتع الساحل الشّامي من إنطاكية إلى جنوب فلسطين في حقب تاريخية مختلفة، والذي تندرج في سياق خريطته الجغرافية مدينة طرابلس الشّام بأهمية استراتيجية كخط تجاريّ أشار إليه المؤرخون باعتباره منطقة تجاذبات وصراعات دولية، ويمر دوماً بمراحل تحولات مع تغيّر موازين القوى في العلاقات الدولية، مما جعله عرضة «النزاعات واجتياحات، كثيراً ما تنعكس ليس فقط على أمنه الخارجيّ وحسب، وإنما على أمنه الداخلي كذلك»[1]. وكان العرب حينذاك قد بدأوا منذ ولاية الخليفة العبّاسيّ المعتصم بالله (٨٣٣م ـ ٨٤٢م)، بالاعتماد اعتماداً شبه كامل على الشعوب الإسلاميَّة الأخرى في تكوين جيشهم وحرسهم الشخصي، بسبب الصراعات المذهبية بينهم، وبقايا خلافاتهم القبلية، والمشكلات التي أدت إليها النزاعات حتّى بين الأخوة، على المُلك، بتأثير من الشعوبية، فلم تجد نكبة هارون الرشيد للبرامكة نفعاً في وقف هذه السيرورة، وكانت سلطة العرب أيضاً قد بدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة من الداخل، حتّى ضمن قصر الخلافة.

هذا الوضع المتردّي، وسيطرة الترك والديلم واستئثارهما النهائي بالسلطة، واضطهادهما العرب، لمنع عودة سلطتهم في مركز الدَّولة، دفع العرب الطامحين

---

(١) عبد المجيد عبد الملك، ساحل بلاد الشّام والصراعات الدولية (٢٥٠٠ ق.م ـ ٢٠٠١م): دراسة جيوبوليتيكية وجيوستراتيجية، منشورات بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، الطّبعة الثّانية، ٢٠٠٢، الصفحة ٢٠.

لإعادة السلطة إليهم، إلى الاستعانة بالأطراف لإقامة سلطة ترنو بطرف عينها إلى بغداد، ترمي إلى هدم الدَّولة السنية الهرمة والعاجزة، والمحكومة بغير العرب، والمستهترة بمصير العرب على الثغور، وبمصير الأرض، فقامت ثلاث حركات شيعية على الأطراف، وتعاطفت معهم إمارة عربيَّة تتمتع بحكم ذاتي في جبل لبنان (التنوخيون)[١]، فكان مصير الخلافة إلى الفاطميّين نذيراً بزوال عروش العبّاسيّين في بغداد، والإخشيديّين في مصر، والأغالبة في إفريقية الشمالية، والأمويين في الأندلس، والأمراء الصغار في هذه الرقعة هنا وهناك، ممن يطيب لهم القرار على ما هم فيه، ولا يطيب لهم التبديل والانتقال[٢]. «وإنّ انتقال مركز الخليفة والخلافة الفاطميَّة من المهديَّة، في إفريقيا الشمالي، إلى القاهرة، في مصر، يكون منعطفاً جديداً وتحولاً كبيراً في تاريخ الشّرق الإسلاميّ، إذ إنّ نتيجة هذا الحدث الذي فرضته عوامل الجغرافيا والتّاريخ والسياسة للإسلام، من حوض دجلة والفرات، مركز الخليفة والخلافة الإسلاميَّة السنية العبّاسيَّة، إلى وادي النيل، مركز الخليفة والخلافة الإسلاميَّة الشيعية الجديدة، ولمّا كانت الخلافة الفاطميَّة في القاهرة تكويناً سياسيّاً ودينياً مستقلاً، في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية المسيحيَّة، وكان قد انضمّ جزء كبير من سكان مصر إلى مذهب سادتهم الجدد الدِّينيّ، المذهب الفاطميّ، أي الشيعي الإسماعيليّ، فقد غدت الخلافة الفاطميَّة هي الممثلة الفعّالة والفعلية للشرق والإسلام بدلاً من الخلافة العبّاسيَّة السنية في بغداد التي أصبحت ضعيفة، مجزأة وخاضعة، منذ ٩٤٥م، لسيطرة الفرس البويهيين الشيعيين، الذين لا يعترفون للفاطمية بانتسابها إلى الإمام عليّ وفاطمة بنت الرسول، وبدأ الصراع المذهبي بين الخلفاء الفاطميّين في القاهرة، الذين ينتمون إلى العقيدة الإسلاميَّة الفاطميَّة، المتحدّرة من العقيدة الشيعية، وبين الخلفاء العبّاسيّين المسلمين السنيين في بغداد، وفي الحقيقة، كانت هذه الخصومة، استمراراً للثابتة التّاريخية التي عملت، من جهة، ووادي النيل، من جهة ثانية، من أجل السيادة على مناطق الممر

(١) المرجع السابق، الصفحة ٩٠.

(٢) عبّاس محمود العقّاد، فاطمة الزّهراء والفاطميّون، موسوعة العقّاد الإسلاميَّة، منشورات دار الكتاب العربيّ، بيروت.

السوري الفلسطيني»[1]، وهي أيضاً الدَّولة التي قامت بين ست دول، أو أكثر من ست دول إسلاميَّة وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبة قيامها، وأسست حقّها على دعوة يتألب الخصوم من حولها على إنكارها، واعتمدت في الدعوة على وسائل لم يسبقها إليها سابق ولم يلحقها نظير لها في تلك الوسائل إلى هذا القرن العشرين[2]، ولا سيما أساليب دعاة تلك الدَّولة في دخول البلاد التي يقصدونها بالدعوة، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوباً لا طالباً، وأن يكون له حماة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله إذا استطاع[3]، وهذا ما ينطبق تماماً على طرابلس الشّام، حيث «كان على أهلها أن يتوجهوا نحو دولة تشد من أزرهم، خاصةً وأنهم طردوا من مدينتهم الأمير الإخشيديّ، هذا إذا أخذنا في عين الاعتبار أن طرابلس كانت تضم بين جنباتها عناصر ترجع في أصولها إلى الفارسيَّة حيث كان المذهب الشيعي سائداً فيها»[4]. وهكذا يصبح لدينا «قرائن تاريخية حول الوجود المبكر للشيعة في «طرابلس» وجوارها، علماً أنّ هذا الوجود قد نضج في بداية القرن الخامس الهجريّ على الأقل، كما سجله الرحالة ناصر خسرو (٣٩٤هـ ـ ٤٨١هـ) (١٠٠٣م ـ ١٠٨٨م)، أثناء زيارته للمدينة ومشاهدته لهذا الوجود الشيعي، الذي لا بدّ من أن يكون قد سبقته مقدمات طويلة حتّى وصل إلى الحالة التي وصفها الرحالة الفارسي»[5]. وهذا ما دفع بعض المؤرخين إلى ملاحظة الوجود الشيعي المبكر في طرابلس الشّام، في العصر العبّاسيّ، في بعض المدن، ومنها تلك الجبال المحيطة بها. «وكان الشّيعة في بعض المدن مثل عرقة وطرابلس وصور، وفي نواح من عكار والضنية»[6]. كما تأكد عودة الوجود الشيعي في طرابلس الشّام إلى «زمن

(١) جواد بولس، **التحولات الكبيرة في تاريخ الشّرق الأدنى منذ الإسلام**، منشورات دار عوّاد للطّباعة والنّشر، دون تاريخ، الصفحتان ١٩٩ و٢٠٠.

(٢) العقّاد، مرجع سابق، الصفحة ٤٤.

(٣) المرجع السابق، الصفحة ٤٥.

(٤) التّدمريّ، الصفحة ١٤١.

(٥) يحي قاسم فرحات، **الشّيعة في طرابلس من الفتح العربيّ حتّى الفتح العثمانيّ**، دار الملاك، الطّبعة الأولى، ١٩٩٩، الصفحات ٦٢، ٦٦.

(٦) **دراسات في تاريخ السـاحل الشّامي: لبنان من قيام الدّولة العبّاسيّة حتّى سقوط الدّولة الإخشيديّة**، دار جروس برس، طرابلس، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٩٩٢، الصفحة ١٢٩.

مبكر جداً، إذ ربما وجد في مطلع القرن الثّالث الهجريّ[١]. كذلك يمكن الإقرار ودائماً بحسب بعض المؤرخين» أنّ المجتمع الطرابلسي في عهد صاحبها «اليو الطرابلسي» كان يتكون من خليط بشري من جنسيات مختلفة وديانات. فالمسلمون من السنة والشّيعة الإماميَّة»[٢]، و«نخال أن قطر لبنان بقي حتّى أيّام الصَّليبيّين يتسم بتفوق عددي واضح من الشّيعة»[٣]. والفترة التي امتدت من القرن العاشر إلى ما بين القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر شهدت تطوراً كيفياً في التجارة، وخاصة حول حوض البحر الأبيض، بحيث سمي هذا التطور ببداية «الثورة التِّجاريَّة». وهذا للزيادة الضخمة في حجم التجارة ولاستعمال الأساليب الجديدة وانتشار المعاملات التِّجاريَّة، ولاندفاع الروح المقدامة لدى التجار، وكذلك للتحولات السيّاسيَّة والاجتماعيَّة والفكرية التي مهدت لعصر النَّهضة. وقد أصابت الإمبراطورية الفاطميَّة جانباً من هذ الثورة التِّجاريَّة، واشتركت فيها بسهم، وجمعت بعض ثمارها في العصر الفاطميّ الأول[٤]. ولم يكن ممكناً أن تثبت أمور التجارة الخارجيَّة في أيدي الفواطم دون الاستيلاء على الشام ذات الأهمية الكبرى في ذلك الوقت من حيث أنها مصب لتجارة الشَّرق، وملتقى الطرق المؤدية إلى الشمال الرومي والجنوب العربيّ. وعلاوةً على ذلك، فقد كان من أهداف الحملات الفاطميَّة على سوريا وفلسطين السعي لحماية مصر من الغزو العبّاسيّ المحتمل، وإقامة الحاجز في وجه القرامطة، ومنع الروم من عبور القنطرة الشّاميَّة للهجوم على مصر[٥].

ولم يستعص فتح طرابلس على الفاطميّين، ولا سيّما أنهم يملكون أسطولاً بحريّاً قوياً. وهي بموقعها المهم على البحر المتوسِّط، تحتاج إلى دولة إسلاميَّة

---

(١) التّدمريّ، مرجع سابق، صفحة: ١٤.

(٢) التّدمريّ، مرجع سابق، صفحة: ١٤٢.

(٣) لوران شابري وآني شابري، سياسة وأقليات في الشّرق الأدنى: الأسباب المؤدية إلى الانفجار، ترجمة الدُّكتور ذوقان قرقوط، مكتبة مدبولي القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، الصفحة ١٧٨.

(٤) أحمد صادق سعد، تاريخ مصر الاجتماعيّ الاقتصادي في ضوء النمط الآسيوي للإنتاج، الطّبعة الأولى، حزيران ١٩٧٩، منشورات دار ابن خلدون، بيروت، الصفحة ٢٥٢.

(٥) المرجع السّابق، الصفحة ٢٩١.

قوية، لها قوة بحريَّة يركن إليها، لدفع الخطر البيزنطي الذي اقترب من أبوابها بعد حملة نقفور[١]. وكان على أهلها أن يتوجهوا نحو دولة تشدّ أزرهم، ولذلك انتشرت فيها الدعوة الفاطميَّة الشيعية بصورة جعلت فتحها سهلاً على الفاطميّين، إن لم يكن سلماً بدون أي قتال، ومن المرجح أن موقف طرابلس لم يختلف عن موقف بيروت وصور وبقية مدن الساحل الشّامي[٢]. وعندما استولى الفاطميّون على دمشق، أفردوا طرابلس عنها وولّوا فيها من جهتهم. وأول من وليها ريان الخادم، وكانت قبل ذلك مضافة إليها[٣]. فدخلت مدينة طرابلس الشّام في رحاب العصر الإسلاميّ الفاطميّ الشيعي، فانتسبت في تلك المرحلة من تاريخها العربيّ الإسلاميّ إلى العقيدة الشيعية التي مثّلتها حينذاك الخلافة الفاطميَّة «وهي الخلافة الشيعية الوحيدة الكبرى في الإسلام، حيث تركزت متحديةً خلفاء بغداد العبّاسيّين، ومتعمدة منازعتهم في الزعامة الإسلاميَّة التي كانت بيدهم»[٤]، وكان الخلفاء الفاطميّون «جادين في توحيد الخلافة الإسلاميّة التي كانت قسمة بين خليفة عبّاسيّ في بغداد، وأموي في الأندلس، وخليفة فاطمي في مصر، وقد أعدّ الفاطميّون في القاهرة جهازاً قوياً للدعوة لفكرتهم، وكان الخليفة الفاطميّ على رأس هذا الجهاز. ولم يكن الشّرق الإسلاميّ المستظل بلواء الخليفة العبّاسيّ مستقراً، إذ قامت فيه دولة البويهيين الشّيعة التي حكمت في بغداد، حيث الخليفة العبّاسيّ السنّي. وقامت فيه الدّولة السامانية الفارسيَّة التي جهدت في إحياء مجد الفرس، وكان هوى حكامها مع العلويين في الوقت الذي كان جنودها من الأتراك السنّيين الذين يؤذون الخليفة العبّاسيّ. ثم أديل من السامانيين الفرس إلى الغزنويين الترك، ومنهم إلى السلاجقة الترك السنّيين أيضاً، وفي هذا الجو الذي سادته المغامرات والثورات، فقامت دول واندثرت أخرى، نشط الخليفة الفاطميّ في القاهرة في بث الدعوة الفاطميَّة، فأرسل دعاته حيث نجحوا في إدخال كثيرين في المذهب الفاطمي».

---

(١) المرجع السابق، الصفحة ٢٩١.

(٢) التّدمريّ، مرجع سابق، الصفحات: ٢٥٩ و٢٦٠ و٢٦١.

(٣) التّدمريّ، مرجع سابق، الصفحة ٢٦٢.

(٤) زكريّا كايا، حقيقة تاريخ المشرق: مطارحات فكرية في المسألة الشّرقيَّة، منشورات الجبهة المشرقيّة، الطّبعة الأولى، ١٩٩٤، الصفحة ٢٦١.

ويبدو من سهولة الفتح الفاطميّ للمناطق اللبنانية «أنّ هذه المناطق كانت متأثرة بالدعوة الفاطميَّة قبل وصول الجيش الفاطمي»[1]، إذ من المعروف أن التَّشيُّع كان قد بدأ ينتشر في بلاد الشّام بعد عهد الخليفة العبّاسيّ المتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١م). وحينما كانت تجارة البحر الأبيض المتوسّط قد أخذت تتوسع باتجاه غرب أوروبا، أصبح للدولة الفاطميَّة في أواخر القرن الميلاديّ العاشر أو في أوائل القرن التالي، تجارة مباشرة مع المدن الإيطالية الناشئة في بلاد «الفرنجة»، ومنها (البندقية) و(جنوة) و(بيزا) و(ملف)، بالإضافة إلى تجارتها المستمرة مع بلاد الروم، وكان هذا التوسع الملحوظ في المصالح التِّجاريَّة للدولة الفاطميَّة، ولا شكّ، من الأسباب التي دعتها إلى الاهتمام الخاص بثغور الساحل الشّامي، ومنها (طرابلس) و(جبيل) و(بيروت) و(صيدا) و(صور)، فاستمرت هذه الثغور تنمو نمواً مُطرداً من الناحية الاقتصادية، وكان حظّ (طرابلس) و(صور) من هذا النمو أوفر من حظ سائر الثغور الشَّاميَّة ما عدا (اللاذقية). «وممّا لا شكّ فيه أيضاً أنّ الوضع التِّجاريّ القوي الّذي تميزت به (طرابلس) و(صور) في ذلك الوقت، كان من العوامل الأساسية التي ساعدت على قيام حكم مستقلّ ناجح في كل من الثغرين في ذلك الوقت»[2].

وكان لمدينتي (طرابلس) و(صور) «المكانة الاقتصادية والاجتماعيَّة على طول الساحل الشَّرقيّ للمتوسّط، (الساحل الشّامي)»[3]، برغم الفوضى السياسية التي أصابت بلاد الشّام والمناطق اللبنانية، فإنّ السواحل ظلّت إلى حدّ ما بعيدة عن تأثير هذه الفوضى، فتفشّت الدعوة الشيعية في معظم المناطق اللُّبنانيَّة، والبارز في هذه الفترة «كان ازدهار المدن الساحلية اللُّبنانيَّة، ووصف خسرو ما شاهد من ازدهار المدينة وحياتها الاقتصادية والاجتماعيَّة، فقال: «فيها مكاتب لفرض

---

(١) مُحمّد عليّ مكي، لبنان من الفتح العربيّ إلى الفتح العثمانيّ: ٦٣٥ ـ ١٥١٦، منشورات دار النّهار، ١٩٧٧، الصفحة ٨٨.

(٢) كمال سليمان الصّليبيّ، منطلق تاريخ لبنان، الطّبعة الأولى، ١٩٧٩، منشورات كارافان، نيويورك، ص ٧٢.

(٣) مُحمّد عليّ مكي، مرجع سابق، الصفحة ٩٨.

الضريبة الجمركية على السفن القادمة إليها من بلاد الروم أو الغرب وغيرهما... وللسلطان ـ أمير المدينة ـ سفن تحمل تجارته إلى بيزنطية وصقلية والغرب، وأهل طرابلس كلهم شيعة، وأرباض المدينة تملؤها البساتين، وقصب السكر ينمو هنا بكثرة، ومثله البرتقال والليمون والتمر. وقد كانوا أيّام وصولنا يستخرجون عصير قصب السكر. وفنادق المدينة تتألف من أربع طبقات أو خمس، وقد تصل إلى ست، وبيوتها وأسواقها حسنة البناء ونظيفة». ويتبين من هذه النصوص المعاصرة للفترة المذكورة أنّ الساحل كان مزدهراً فعلاً، وأن التجارة كانت تتم مع مختلف المناطق في البحر المتوسّط، وخاصة البلاد البيزنطية، ونلاحظ التركيز عند الرحالة الفارسي على أهمية الفنادق وضخامتها مما يدل على وجود أجانب بكثرة، ويدل على الثروة كذلك، أما تركيزه على الشّيعة فربما كان متأتياً من أنّه كان إسماعيليّاً متعصباً، ونلاحظ استغرابه بالنسبة إلى قاضي صور السنّي، علماً بأنّ أكثر سكان المدينة شيعة»[1]، فضلاً عن أنّ الوجود المبكر للشيعة في طرابلس وجوارها، قد نضج في بداية القرن الخامس الهجريّ على الأقل، وقد سبقته مقدمات طويلة حتّى وصل إلى الحالة التي وصفها خسرو[2].

واعتبر بعض المؤرخين والجغرافيين والرحالة ومنهم خسرو، أنّ مدينة طرابلس قد حافظت على مساحتها في القرون الأولى للحكم الإسلاميّ فيها، حتّى إمارة بني عمار حيث حدد موقعها حينذاك. فقد ذكر خسرو أنّ مدينة طرابلس «مشيّدة بحيث أن ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر، فإذا ماج علت أمواج السور». وفي ذلك إشارة إلى موقع طرابلس في أقصى رأس الميناء، ثم يتابع وصفه «أمّا الجانب المطلّ على اليابسة ففيه خندق عظيم، وعليه باب حديدي محكم. ومساحة المدينة ألف ذراع مربع، ولا يوجد خارج طرابلس بيوت أبداً، عدا مشهدين أو ثلاثة»[3]. نستنتج من ذلك أنّ المدينة في العهد الفاطميّ ظلّت ضمن حدودها

(١) مُحمّد عليّ مكي، مرجع سابق، الصفحتان ٩٧ و٩٨.

(٢) يحيى قاسم فرحات، مرجع سابق، الصفحة ٦٦.

(٣) ناصر خسرو، «سفرنامة»، الصفحتان ٤٦ و٤٧، ترجمة يحيى الخشّاب، بيروت، ١٩٧٠.

القديمة التي كانت عليها في العهود السابقة[1]، والجدير ذكره أنّ السور الذي وصفه ناصر خسرو، تهدّم من جراء زلزال ضرب المدينة سنة ١٠٦٤م[2]، ثم أعيد بناؤه في مرحلة لاحقة، نظراً للمقاومة الشديدة التي لقيها الصَّليبيّون إبّان حصارهم للمدينة[3]. كانت الضرورة السيّاسيَّة والحربيَّة تقضي على الفاطميّين بعد أن وطّدوا سلطتهم في مصر أن يولوا وجوههم شطر بلاد الشّام، في وقت برزت دول رسمت بحضورها خارطة النفوذ في المشرق العربيّ الإسلاميّ الذي تندرج ضمن إطاره مدينة طرابلس الشّام، عشية بروز نجم الدّولة الفاطميَّة، وهي:

الدّولة الطولونية: (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م)

في عهد الخليفة الواثق، كانت مصر من نصيب «باكباك» التركي، حيث ازداد نفوذ الأتراك، وأخذوا يتولّون المناصب الكبرى، ويتقاسمونها فيما بينهم. ولكنّ «باكباك» فَضَّلَ أن يبقى في العاصمة «بغداد» ويبعث من ينوب عنه في ولاية مصر. ووقع الاختيار على أحمد بن طولون، ذلك الشاب الذي نشأ في صيانة وعفاف ورياسة ودراسة للقرآن العظيم مع حسن صوت به، وكان والده مملوكاً تركيّاً بعث به والي بلاد «ما وراء النهر» إلى الخليفة «المأمون العبّاسيّ»، ولمّا مات والده تزوّج «باكباك» أمه، وجاء أحمد بن طولون ليحكم مصر نيابة عن «باكباك» التركي. ولكنّ موقع مصر الجغرافي، وبعد المسافة بين العاصمة المصريَّة «الفسطاط» والعاصمة العبّاسيَّة «بغداد» شجع والي مصر الجديد على الاستقلال بها. فلم يكد أحمد بن طولون يستقر في مصر سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م، حتّى أخذ يجمع السلطة كلّها في يده. لقد عزل الموظف العبّاسيّ المختص بالشؤون المالية في مصر، واسمه «عامل الخراج» وصار هو الحاكم الإداري والمالي والعسكري. وكان له ما أراد، فأقر الأمور في البلاد، وقضى على الفتن، ونشر الطمأنينة في ربوع الوادي، وعَمَّ البلاد

(١) الدُّكتور فارق حبلص، **طرابلس: المساجد والكنائس**، الطَّبعة الأولى، ١٩٨٨، منشورات دار الإنشاء للصحافة والطّباعة والنّشر بطرابلس، لبنان، الصفحة ١٥.

(٢) التّدمريّ، مرجع سابق، الصفحة ٢٥٢.

(٣) ابن الأثير، **الكامل في التّاريخ**، دار صادر، ١٩٦٦، الجزء العاشر.

الرخاء. ولقد أتاحت له الظروف أن يعلن استقلاله بالبلاد في عهد الخليفة المعتمد العبّاسيّ، عندما بعث ابن طولون بإعانة مالية للخلافة مساعدة منه في القضاء على «ثورة الزنج». ولكنّ «طلحة»، أخا الخليفة، بعث يتهم ابن طولون بالتقصير في إرسال المال الكافي، ويتهدده ويتوعّده، وهنا كان رد ابن طولون قاسياً وعنيفاً، ولم يكتف بهذا بل أعلن استقلاله بالبلاد. وتأسست في مصر «الدَّولة الطولونية» نسبة إلى منشئها أحمد بن طولون، وراح أحمد بن طولون يعدّ جيشاً قويّاً لحماية البلاد داخلياً وخارجياً. وقد بلغ جيش مصر في عهد أحمد بن طولون مائة ألف جندي. وراح يفكر في اتخاذ عاصمة له غير «الفسطاط» تضارعها وتنافسها، فاتخذ الأرض الواقعة بين (السَّيِّدة زينب) والقلعة وسمّاها «القطائع»، وعليها أقام جامعه الكبير الذي ما زال موجوداً حتّى الآن، وجعله معهداً لتدريس العلوم الدِّينيَّة، وكان ابن طولون رجل صلاح وبرّ، يتصدّق من خالص ماله في كل شهر ألف دينار. وقد رابطت في العاصمة الجديدة طوائف الجند حيث أقطعهم أحمد بن طولون أرضاً يقيمون عليها.

ونتيجة ما وصل إليه أحمد بن طولون من قوة، كان لا بدّ أن تتقرّب إليه الخلافة العبّاسيَّة ليقف إلى جانبها في مواجهة الروم البيزنطيين، الذين لا يكفّون عن الاغارة من آسيا الصغرى.

إن شمال الشّام منطقة حسّاسة، وكانت المناطق الملاصقة للروم فيه تُعرف باسم «إقليم العواصم والثغور» وتشتمل على المنافذ والحصون القائمة في جبال طوروس.

فليس عجيباً إذن أمام ضعف الخليفة وقوة أحمد بن طولون، أن تعُهد ولاية الثغور الشّاميَّة للدفاع عنها ورد كيد المعتدين.

لقد كان أحمد بن طولون مهيّاً لهذه المهمة وجديراً بها، فبعث بجزء من جيشه وأسطوله ليرابط هناك على الحدود، يحمي الثغور، ويؤمّن المنافذ والحصون. ثمّ يتوفى والي الشّام التركي سنة (٢٦٤هـ)، فيضم أحمد بن طولون البلاد إليه لكي يستكمل وسائل الدفاع عن إقليم الثغور. وصارت مصر والشّام في

عهد الدَّولة الطولونية وحدة لها قوتها في الشَّرق العربيّ، تحمل راية الدفاع عن أرض الإسلام ضد الروم البيزنطيين، في حين عجزت الخلافة العبّاسيَّة في ذلك الوقت عن مواجهة تلك القوة، وبإزاء قوة أحمد بن طولون وتوحيده الشّام ومصر تحت إمرته، خشي أباطرة الروم سلطانه، وخافوا سطوته، فبعثوا إليه يودّون أن يعقدوا هدنة معه، بل لقد حدث أكثر من ذلك، عندما عزم الخليفة العبّاسيّ «المعتمد» على مغادرة البلاد سرّا فراراً من سيطرة أخيه الموفق «طلحة»، فأين يذهب يا ترى؟ لقد قرر اللجوء إلى أحمد بن طولون صاحب القوة الجديدة في مصر والشّام، ولكنّ أخاه الموفّق أعاده إلى عاصمة الخلافة بالعراق.

وظلّت الوحدة بين الشّام ومصر قائمة في عهد أحمد بن طولون، وراحت قواته البحريَّة والبرية تحمي هذه الوحدة وتعلي قدرها، في شرق البحر الأبيض المتوسّط. ويتولّى ابنه «خُمارويه» بعده حاملاً راية الدفاع عن مصر والشّام كما كان أبوه. ولكنّ «طلحة» أخا الخليفة «المعتمد»، يعود إلى محاولاته ودسائسه لإعادة مصر والشّام إلى سيطرة الخلافة العبّاسيَّة. فيعدّ خمارويه جيشاً يتولّى قيادته بنفسه، ويهزم قوات أخي الخليفة عند دمشق في معركة «الطواحين»، سنة (٢٧٣هـ/ ٨٨٧م)، فلا يملك إلاّ أن يعقد مع «خمارويه» صلحاً اعترفت به الخلافة العبّاسيَّة بولاية خمارويه على مصر والشّام، ولأبنائه من بعده لمدة ثلاثين سنة. وكان نصراً رائعاً أتاح له أن يسيطر على منطقة العواصم والثغور، وأصبح «خمارويه» قوة يرهبها الروم. وهذه القوة تكسب أصحابها الاحترام والسيطرة والنفوذ، وتزداد العلاقة بين خمارويه والخلافة العبّاسيَّة قوة، إذ يتزوّج الخليفة المعتمد «العبّاسة» بنت خمارويه المعروفة باسم «قطر الندى»، وهي التي جهّزها أبوها بجهاز لم يُسمع بمثله. وراح خمارويه يهتم بمرافق الدَّولة، ويخصص الأموال لمساعدة الفقراء والمحتاجين، ويشيد القصور الضخمة في عاصمة أبيه «القطائع». وظل خلفاء خمارويه في الحكم ما يقرب من عشر سنوات بعد وفاته مقتولاً سنة ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م. لقد ولّي مصر بعد خمارويه ثلاثة من آل طولون لم يسيروا على نهجه، بل انغمسوا في اللهو والملذّات، فكثر الطامعون في الحكم، وانتشرت الفوضى، وانتهى الأمر بعودة جيوش الخلافة العبّاسيَّة لاسترداد مصر من يد رابع الولاة

الطولونيين عليها. وسنة (٢٩٢هـ/ ٩٠٥م) دخلت الجيوش العبّاسيَّة «القطائع» تحت قيادة مُحمَّد بن سليمان، وقد قبض على الطولونيين وحبسهم، وأخذ أموالهم وأرسلهم إلى الخليفة، وأزال بقايا الدَّولة الطولونية التي حكمت مصر والشّام ثمانية وثلاثين عاماً.

الدَّولة الإخشيديَّة: (٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م)

عادت مصر بعد سقوط الدَّولة الطولونية إلى الخلافة العبّاسيَّة، وبرغم ذلك ظلت ثلاثين عاماً تعاني الاضطراب والفوضى والفتن الداخلية. ولبث النفوذ العبّاسيّ غير مستقر في مصر بعد زوال الدَّولة الطولونية. ويتطلع أحد القادة الأتراك في الجيش العبّاسيّ في مصر إلى الانفراد بالسلطة وحده دون القادة المتنازعين، والولاة العبّاسيّين.

فمن هو يا ترى؟

إنه مُحمَّد بن طُغج الإخشيد. لقد ساعده على ذلك ما قدّمه من خدمات في الدفاع عن البلاد ضد هجمات الدَّولة الفاطميَّة التي قامت في تونس، وراحت تهدد مصر من جهة الشمال الإفريقي، وذلك سنة ٣٢١ ـ ٣٢٤هـ/ ٩٣٣ ـ ٩٣٦. وفي سنة ٣٢٣هـ (٩٢٥م) تولّى الإخشيد ولاية مصر وصار الحاكم المطلق في البلاد، ولكن من أين لمُحمَّد بن طغج لقب «الإخشيد».

لقد رغب الخليفة «الراضي» العبّاسيّ في اكتساب مودة مُحمَّد بن طغج، فمنحه لقب «الإخشيد» وهو لقب إيراني تلقّب به الأمراء. ويدلّ هذا على مكانة الإخشيد في مصر، وما بلغه من سلطان واسع، ونفوذ كبير. لقد أصبح مُحمَّد بن طغج مؤسس الدَّولة الإخشيديَّة في مصر، وإليه تنتسب أسرته. وظلت الأمور على ما يرام بين مُحمَّد بن طغج الإخشيد والخلافة العبّاسيَّة حتّى جاء اليوم الذي أرسل فيه الخليفة الراضي جيشاً بقيادة مُحمَّد بن رائق إلى الشّام لانتزاع مصر من الإخشيد سنة ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م. عندئذ ألغى الإخشيد اسم الخليفة العبّاسيّ من الخطبة، وأعلن استقلاله بمصر، واستطاع هزيمة القائد ابن رائق والاحتفاظ بملكه سليماً، وكان

ابن رائق قد هزم مُحمّد الإخشيديّ في بداية الأمر، وانهمك جنود ابن رائق بجمع الأسلاب، فخرج كمين لابن الإخشيد عليهم، وهزمهم، وفرقهم، وتفرّغ الإخشيد بعد هزيمة قائد الخليفة إلى الداخل، فنجح في القضاء على الفتن والقلاقل الداخلية، وراح يدرس أحوال العالم العربيّ المجاور لمصر. وأخذ يفكر في وحدة تقف في وجه عدوان الروم الخارجيّ. وبعد سنتين من قيام الدَّولة الإخشيديَّة، ضم الإخشيد إليه الشّام بعد موت ابن رائق سنة (١٣٠هـ)، ليعيد القوة إلى الشَّرق العربيّ، وليتسنى له الوقوف في وجه الروم البيزنطيين، وهنا خاف أباطرة الروم، وأسرعوا يخطبون وده، على غرار ما فعلوا مع أحمد بن طولون. وفي العام التالي لهذه الوحدة، مدّ الإخشيد نفوذه إلى مكة والمدينة، وراح يتولّى أمر الحجاز ويشرف على الحرمين الشَّريفين. ولقي الإخشيد ربه سنة ٣٢٤هـ. وبعد وفاته تولّى وزيره أبو المسك كافور الوصاية على ولديه الصغيرين، وأثبت هذا الوصي مقدرة في إدارة شؤون البلاد والدفاع عنها ضد الأخطار التي تهددها من طائفة «القرامطة»، وأفلح في القضاء عليها. فلقد حافظ على وحدة (مصر) و(الشّام) وبلاد العرب، وامتد سلطان الدَّولة الإخشيديَّة إلى «جبال طوروس»، في أقصى شمال الشّام، وصارت قوية الجانب يرهبها البيزنطيون. وأبو المسك كافور هذا هو الذي خلع عليه الشاعر المتنبيّ أجمل قصائد المدح، ثم عاد وهجاه!

بلى، إنه هو بعينه، فلقد كان المتنبيّ يطمع في أن يوليه كافور «ولاية» تنافس مملكة سيف الدَّولة بن حمدان، فمدحه لينال رضاه، فلما لم يولّه هجاه، لقد بلغت إمارة كافور على مصر ثلاثاً وعشرين سنة حكم فيها باسم أبناء الإخشيد عدا سنتين انفرد فيهما بالأمر وظل اسمه طوال هذه المدة موضع الهيبة والإجلال، ويدعى له من منابر المساجد من طرسوس بأطراف الشّام ومصر والحجاز، ولقد كان كافور شهماً جيّد السيرة.

ترى من يخلفه بعد وفاته؟ وهل تظل الدَّولة الإخشيديَّة بعده رافعة أعلامها؟

لقد لقي كافور ربه فخلفه «أبو الفوارس أحمد بن عليّ أبو الحسن» حفيد الإخشيد، وكان طفلاً لم يبلغ الحادية عشرة من عمره، وكان لا بدّ في مثل هذه

الظروف، أن تعود الفوضى إلى البلاد، وأن يكثر من حولها الطامعون. واشتدت هجمات الفاطميّين من بلاد المغرب على مصر حيث حاول الخليفة المعزّ لدين الله الفاطميّ الاستيلاء عليها، وعجزت الدَّولة العبّاسيّة عن الوقوف إلى جانب الإخشيديّين، فلم يكن بد من استيلاء الفاطميّين عليها سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، ليحلوا محل الدَّولة الإخشيديَّة.

الدَّولة الفاطميَّة: (٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ ـ ٩٦٩ ـ ١١٧٢م)

بدأ تاريخ الدَّولة الفاطميَّة منذ عهد مؤسسها عبيد الله المهديّ في شمال أفريقيا ببلاد المغرب سنة ٢٩٧هـ ـ ٩١٠م، واستمرّ نفوذها إلى آخر خلفائها وهو العاضد لدين الله (٥٦٧هـ ـ ١١٧٤م). وقد ساعدت الدعوة الإسماعيليَّة في قيام الدَّولة الفاطميَّة، وكانت من عوامل نجاح الدعوة الشيعية في المغرب. وتوطيد الخلافة الفاطميَّة بإخضاع الأمراء الثائرين على الحكم الفاطميّ، إذ كانت الدَّولة الفاطميَّة ترمي منذ بداية تأسيسها إلى إنشاء إمبراطورية عظيمة في البحر المتوسِّط، لذا حرص الفاطميّون على الاحتفاظ بنفوذهم في صقلية، من دون أن يحول تطلعهم هذا إلى متابعة اهتمامهم بالأحوال الداخلية في مصر قبل عهدهم. وكيف خضعت مصر للعرب؟ وكيف أصبح أحمد بن طولون والياً على مصر؟ وما هو الدور الذي لعبه ابن طولون إثر خلاف الموفّق مع أخيه الخليفة المعتمد؟ وكيف أصبح كافور صاحب السلطة المطلقة؟ وما هو الدور الذي لعبه الفاطميّون؟ وكيف عنوا عناية خاصة بامتلاك مصر؟ إذ إنّ كثراً من المصريّين مالوا إلى الدعوة الفاطميَّة، في وقت بات من الواضح أنّ الأقوال والمزاعم التي كانت بجملتها تتصاعد في كل مكان، وكلها تحمل الشك في انتساب أسرة عبيد الله المهديّ، للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام وزوجته السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام بنت النبي الكريم مُحمَّد ﷺ، والتي تَسمّى قادة هذه الدَّولة باسمها، ولعلّ فترة التستر في مدينة السلمية في سوريا هي التي أسدلت هذا الستار من الشكّ على الحقيقة، وأوجدت ذلك الواقع الرهيب من المزاعم. ومن المعلوم أنّ الشّيعة انقسمت بعد الإمام المعصوم السّادس جعفر بن مُحمَّد الصَّادق عليه السلام، إلى إسماعيليّين نسبة إلى ولده الأكبر إسماعيل، وموسويّين

نسبة إلى ولده الأصغر موسى الكاظم. وقد اتخذ الإسماعيليّون الذين ينتسب إليهم الفاطميّون زمام المبادرة، ووقفوا بصمود وعناد بوجه الخلفاء العبّاسيّين وأتباعهم، يقارعونهم بأساليب عدة. وحين نجح عبيد الله المهديّ في الهجرة والوصول بسلام إلى بلاد المغرب، ووجد أمنه فيها، اقتنع بأن الأوان آن لدحض تلك المزاعم والأقوال المغرضة التي تشكّك في نسبه فأعلن بوضوح أن أصله من كونه ينحدر من سلالة أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب، ومن فاطمة ﷺ بنت الرسول الكريم مُحمَّد ﷺ مباشرة، وفي هذا ما يميزه من الفروع العلوية الأخرى المتحدّرة من علي ﷺ وزوجاته غير فاطمة ﷺ. والجدير ذكره هنا أنّ عبيد الله كان قد ولد في السلمية في سوريا سنة (٢٥٩هـ)، ومات ودفن في المهديَّة عاصمة دولته سنة (٣٢٢هـ)، عن عمر ٦٣ عاماً، أمّا مدة خلافته فاستمرت ٢٥ عاماً (٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ).

وفتح تأسيس الدّولة الفاطميَّة سلسلة من التساؤلات لا تكاد تنتهي وترمي إلى التحري عن ماهية الفاطميّين؟ وإلى مَنْ ينتسبون؟ وكيف نشأت دولتهم؟ ومتى كان ذلك؟ وهل تنتسب هذه الدَّولة إلى دول الإسلام؟

وحينما قامت دولة بني العبّاس، لم تُمكّن أبناء عليّ بن أبي طالب ﷺ أن يكون لهم شيء في الحكم والخلافة، ونشط المتشيّعون يشعلون الثورات في كل مكان، لكنّ الدّولة العبّاسيَّة كانت في بدايتها قوية، فتمكّنت من القضاء عليها جميعاً، وسحقتها في عنف وشدة.

فهل انقطعت حركة الشّيعة أو توقّفت أمام تلك المطاردة؟ لا. لم تنقطع حركات العلويين وشيعتهم ولم تتوقّف، فقد كانوا متمسكين بآرائهم ومؤمنين بفكرتهم، يزعمون أن أحقّ الناس بالخلافة أبناء عليّ من نسل السيّدة فاطمة الزَّهراء، فإن نالها غيرهم فما ذاك إلا أمر باطل يجب أن يمحى، وما هو إلا شر حلّ بالمسلمين يجب أن يزال. ونشط دعاة الشّيعة في الدعوة إلى مذهبهم، وخاصة في الجهات البعيدة عن مركز الخلافة، مثل أطراف فارس واليمن وبلاد المغرب. وكان من هؤلاء الدعاة أبو عبد الله الشيعي، وهو رجل اتجه إلى المغرب بعد أن رأى دويلات «الأغالبة» و«الأدارسة» وغيرهما تنشأ وتقام بعيداً عن نظر الدَّولة

العبّاسيّة وسلطانها، وركز دعوته بين البربر، وسرعان ما انضموا إليه في آلاف عديدة، فأرسل إلى زعيمه الفاطميّ الكبير عبيد الله بن مُحمَّد. وقال عبيد هذا بأنّه شريف علوي فاطمي، ولكن الخليفة العبّاسيّ علم بالأمر فطارد عبيد الله وأمر بالقبض عليه، فاضطرَ حين وصل مصر إلى أن يتنكّر في زي التجّار، ثم حاول أن يفلت من دويلات شمال إفريقيا، ولكنّه سقط أخيراً في يد أمير «سجلماسة».

وكان أبو عبد الله الداعية الشيعي في هذا الوقت، قد جمع قواته من البحر، وهاجم «دولة الأغالبة» التي ما لبثت أن سقطت في يده سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م، ودخل عاصمتها، وأخذ من الناس البيعة لعبيد الله الأمير الأسير. وما لبث أبو عبد الله الشيعي أن سار على رأس جيوش ضخمة نحو «سجلماسة» لينقذ عبيد الله، ولما أدرك صاحب «سجلماسة» أن لا قبلَ له بمواجهة الجيش المغير هرب من عاصمته بعد أن أطلق أسيره عبيد الله الفاطميّ.

دخل عبيد الله القيروان التي اتّخذها عاصمة للدولة الفاطميّة، وهناك بايعه الناس ولقّب المهديّ أمير المؤمنين، وصار خليفة للمسلمين، تأكيداً لفكرة الشّيعة عن أحقية أبناء عليّ بالخلافة. ولقد اعتبر نفسه المهديّ المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً بعدما مُلئت جوراً وظلماً. وتوالى الخلفاء من نسل المهديّ عبيد الله، وكان منهم المعزّ لدين الله الفاطميّ الذي أرسل قائده الشهير «جوهر الصّقليّ» ففتح «دولة الأدارسة»، ووصل إلى المحيط الأطلسي، ثم مدّ حدوده إلى مصر وفتحها سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م.

فكيف استولى عليها الفاطميّون؟ وماذا كان موقف الخلافة العبّاسيّة منهم؟ لقد أرسل المعزّ لدين الله الفاطميّ قائده الكبير «جوهر الصّقليّ» ليفتح مصر، فسار في جيش ضخم بعد أن مهد الطرق لمسير الجيش، وحفر الآبار على طول الطريق، وأقام «استراحات» على مسافات معقولة في الطريق، وأحسن تدريب الجيش وتنظيمه وتموينه بعد أن جمع الأموال اللازمة لهذا كلّه. وسار الجيش إلى الإسكندرية، وما لبث أن دخلها من دون قتال، وأحسن معاملة المصريّين، وكفَّ جنوده عنهم، ثم سار إلى «الفسطاط» فسلَّم له أهلها على أن يكفل لهم حرية

العقيدة، وينشر الأمن والعدل والمساواة. وطار الخبر بالاستيلاء على مصر إلى «المعزّ» فسر سروراً عظيماً، وأقام الاحتفالات والولائم، وحوله الشعراء ينشدون. لقد ساعد على نجاح السيطرة الفاطميَّة اضطراب الأحوال في مصر، وكثرة الشّيعة الذين عاونوا الجيش الفاطميّ كل المعاونة آنذاك. وهكذا سُلخت مصر عن الخلافة العبّاسيَّة، وأصبحت ولاية فاطمية سنة ٣٥٩/ ٩٦٩م. وهنا بدأ «جوهر» يعدّ العدة لنقل مركز الدَّولة الفاطميَّة إلى مصر، فبنى للخليفة قصراً فخماً شمال الفسطاط، وبنى معه منازل الوزراء والجند، وكانت هذه بداية مدينة القاهرة. لقد كانت «الفسطاط» هي العاصمة بعد دخول عمرو بن العاص، وبعدها «العسكر» في عهد العبّاسيّين، ثم «القطائع» في عهد الطولونّيين، ثم أصبحت «قاهرة المعّز» هي العاصمة حتّى الآن. وبعد أن تم إنشاؤها دعا «جوهر» «المعزّ» أن ينتقل إليها، وأصبحت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطميَّة (٣٦٢هـ/ ٩٧٣م)، أي بعد أربع سنوات من فتحها، وأمر المعزّ بمنع صلاة التراويح في رمضان، وأمر بصيام يومين مثله، وقنت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وأسقط من أذان صلاة الصبح «الصلاة خير من النوم»، وزاد «حي على خير العمل... مُحمَّد وعلي خير البشر». وما لبثت جيوش المعزّ أن سارت نحو الحجاز ففتحته، وأصبحت المدينتان: مكة المكرمة والمدينة المنورة، تحت سلطان الفاطميّين لا العبّاسيّين، كما فتحت جيوشهم (بلاد الشّام)، و(فلسطين)، و(جزيرة صقلية). وهكذا أصبحت دولة الفاطميّين تضم (الحجاز)، والشّام)، و(فلسطين)، و(مصر)، وشمال إفريقية حتّى المحيط الأطلسي.

المهديّ والهجرة إلى بلاد المغرب

بعدما شعر عبيد الله المهديّ بعدم إمكان بقائه في السلمية، إثر انقلاب حلفائه القرامطة عليه، وتحولهم إلى عدو لدود يضمر له العداوة والقتل. وكذا الحال بالنسبة للحكم العبّاسيّ، ومطاردته له للقبض عليه، فغادر السلمية يرافقه وليّ العهد، القائم بأمر الله، وبعض القريبين له، إلى مدينة حماه، ثم خرج باتجاه الشّام في رحلة شاقة وطويلة، فقصد (حوران) ثم (الأردن)، (فنابلس)، وبينما هو في مدينة (الرملة) متخفياً عن أعين العبّاسيّين، وصلته أنباء المذبحة الدامية التي حلّت

بأهله وأنصاره ممن تركهم في مدينة (السلمية) حين اجتاحها جيش القرامطة بقيادة يحي بن زكرويه. إلاّ أنّ هذا الموقف العصيب لم يمنع عبيد الله المهديّ من مواصلة رحلته من أجل الغاية الكبرى التي خرج لأجلها، فغادر الرملة تحت جنح الظلام باتجاه الأراضي المصريّة، ومن مصر واصل سيره إلى ليبيا فتونس، ثم توغّل في أراضي المغرب الأقصى حتّى بلغ (سجلماسة)، وهناك قبض عليه أميرها أليسع ابن مدرار وأودعه السجن وكان ذلك سنة ٢٩٦هـ.

وبينما كان أبو عبد الله الشيعي يتابع فتوحاته في المغرب الأوسط، جاءه خبر ما وقع للمهديّ في سجلماسة، ولذا تظاهر بعدم المبالاة في بادئ الأمر، فيما عزم على وضع خطة بنفسه لإنقاذه. وهو ما تم بالفعل بعد بضعة أشهر، ونجح في ذلك حيث كانت قواته تزحف لاحتلال سجلماسة، إذ سقطت هذه المدينة بيد «أبو عبد الله» وفرّ حاكمها أليسع، وكان أولى المهمّات التي وضعها القائد الفاطميّ الفاتح على جدول مخططه هو التوجّه إلى سجن بني مدرار، وتحرير الإمام الفاطميّ المعتقل عبيد الله المهديّ.

عبيد الله المهديّ أمير المؤمنين وخليفة المسلمين

أخرج أبو عبد الله الشيعي عبيد الله المهديّ من سجن بني مدرار أصحاب سجلماسة مجللاً بالنصر، وجاء به إلى قصر المدراريين، وأجلسه في مقام الخلافة، وأوعز إلى قادة ألوية الجيش ورؤساء الكتائب بمبايعته، والمناداة به خليفة للمسلمين، وأميراً للمؤمنين. وقد تمّ ذلك في جو زاخر بأفراح النصر، واستغرقت احتفالات المبايعة بضعة أيّام، وكان ذلك في مطلع شهر رجب (٢٩٦هـ)، وشملت شيوخ القبائل والعلماء ورجالات الدّين وسائر طبقات الناس.

وبعد أن تم ذلك انتقل إلى مدينة (رقادة) سنة ٢٩٧هـ، فبايعه فريق آخر من الناس، وكان يقف بين يديه قائده الكبير ومستشاره الأول أبو عبد الله الشيعي ورؤساء كتامة، وهكذا أقام في قصر الإمارة، مبتدئاً سلطة حكم دولة الخلافة الإسلاميّة الفاطميّة.

مصر تدخل كنف الدَّولة الفاطميَّة

لم تكن دولة الخلافة الفاطميَّة في المغرب، لتظهر على مسرح الدنيا العربيَّة والإسلاميَّة، أو تعيش طويلاً لولا أن يكون من مبادئها التنظيم والإدارة، وإقامة العدل، وإحلال النظام. وقد وضعوا منذ بادئ الأمر نصب أعينهم مبدأ منافسة العبّاسيّين وإنهاء حالات الظلم والتعسّف والفساد التي تسببوا بها، وهكذا بالنسبة للأمويين، فوضعوا القواعد وأقاموا الأعمدة، وتطلعوا إلى الديار المصريَّة مهوى أفئدتهم، فأرسلوا إليها الدعاة للقيام بالدعوة وكسب الأنصار والمؤيدين، وكان ذلك في وقت مبكر من ظهور دولتهم. وقد نجحوا على هذا الصّعيد، بعد ذلك راحت القيادة الفاطميَّة تمهد للعمل العسكري، بغية فتح مصر على يدها وضمّها إلى دولتهم، إذ أُرسلت ثلاث حملات عسكرية إلى الديار المصريَّة في عهد الخليفة المؤسس المهديّ.

أ ـ الحملة الأولى: كانت سنة ٣٠١هـ، وكان يقود الجيش الفاطميّ القائد الكتامي جناسة بن يوسف، وقد نجح في احتلال الإسكندريَّة والوجه البحريّ، إلاّ أنّ جيش الخليفة العبّاسيّ المقتدر بقيادة مؤنس الخادم، سرعان ما استردهما من الفاطميّين، وأرغم جناسة على التراجع، وأبدى قطاع واسع من الشعب المصريّ موقفاً ميالاً إلى مصلحة الفاطميّين بغية التخلّص من تسلّط العبّاسيّين.

ب ـ الحملة الثانية: شنّها الأسطول البحريّ الفاطميّ سنة ٣٠٧هـ بقيادة وليّ العهد القائم بأمر الله، وتمكّن الفاطميّون من احتلال الإسكندريَّة والجيزة والوجه البحريّ، إلاّ أنّ جيش الخليفة العبّاسيّ بقيادة مؤنس الخادم، تمكّن ثانية من إلحاق الهزيمة بالجيش الفاطميّ وإجباره على التراجع.

ج ـ الحملة الثّالثة: تمّت ما بين سنة (٣٢١ ـ ٣٢٤هـ)، وكان يقود الجيش الفاطميّ الكبير هذه المرة القائد الكتامي جيش بن أحمد، وفي هذه المرة نجح الفاطميّون في احتلال معظم أرجاء مصر وضمّها لدولتهم، وهذا ما دعا زعماء البلاد والشيوخ إلى الامتثال للحكم الفاطميّ، وإعلان الطاعة والولاء، وقد اتفقوا على توقيع معاهدة صلح اعتبروا فيها أنفسهم من رعايا الدَّولة الفاطميَّة.

ومع ضم مصر، أصبحت الدَّولة الفاطميَّة تشتمل على ثلاث ولايات: هي (مصر) وتعتبر مركز الخلافة العامة، و(الشّام)، و(أفريقية)، ونواب الخليفة فيها يُعرفون بالولاة، وللشام واليان هما: والي دمشق، ووالي الرملة، ويشمل حكمه سائر فلسطين. وكان القطر المصريّ ينقسم إلى أربعة أقاليم أو ولايات هي: ولاية (قوص) وهي أعظمها، وكانت تشمل الوجه القبلي كله، والشَّرقيَّة والغربية و(الإسكندريَّة) وهي أقلها. أمّا أفريقية فقد لبثت مدى ثم تبعت الخلافة، ثم استقلّت بشؤونها فيما بعد. واستأثر الأمراء البربر بالسلطان فيها، ولبثت (صقلية) كذلك تابعة من الناحية الدِّينيَّة للخلافة حصراً، حتّى انتهت بالسقوط في يد الفرنج النورمان سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٢م، وكانت أعمال الحرمين واليمن أيضاً تابعة للخلافة الفاطميَّة من الوجهة المذهبية، يُدعى فيها للخليفة الفاطميّ، ولكنها كانت مستقلة بشؤونها.

الدَّولة الفاطميَّة والحرب مع الروم البيزنطيين

اتجهت سياسة الفاطميّين بعد أن امتد نفوذهم إلى مصر في عهد المعزّ لدين الله الفاطميّ، سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، إلى استعادة المدن التي استولى عليها البيزنطيون في شمال الشّام وقد كان الفاطميّون بعيدي النّظر حين أدركوا أنّ الجيوش البرية وحدها لا تكفي لحماية العالم الإسلاميّ وإنقاذ الوطن العربيّ، فأنشأوا أسطولاً ضخماً حمى البلاد من الهجمات البيزنطية، ثم دافع عنها في الحروب الصَّليبيّة.

وإلى ذلك، فإنّ الفاطميّين وضعوا منذ الساعة الأولى لحكمهم خطة مفادها قيام الحكم على قواعد ثابتة من العلم والمعرفة، وخطّطوا كما يقال اليوم لسياسة تعليمية شاملة، ترتكز على إنشاء جامعة كبرى، وعلى تفريغ العلماء للعلم، ثم أرسلوا يستدعون هؤلاء من الخارج، وقد اشتد هذا المنهج واتسع بعد إقامة الوحدة بضم البلاد الأخرى إلى مصر، وإنشاء القاهرة، وإقامة الأزهر.

ونفّذ هذه السياسة القائد الفاطميّ جعفر بن فلاح، الذي جهّز جيشاً كبيراً لاسترداد أنطاكية من الروم، ولكن الحملات الفاطميَّة التي أرسلت لإجلائهم عنها،

فشلت في تحقيق هذه السياسة. وظلت النزاعات والغارات العسكرية المتبادلة قائمة بين الدَّولة الفاطميَّة والدَّولة البيزنطية حتّى سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م، حين قدمت إلى مصر رسل الإمبراطور (باسيل الثّاني)، تحمل الهدايا للخليفة الفاطميّ العزيز، وتطلب عقد الصلح بين الدولتين، وأبرمت اتفاقاً للهدنة بينهما، إلاّ أنّها سرعان ما انهارت بعد فترة لم تدم طويلاً، وظلّ الروم البيزنطيون ينتهزون الفرص للنيل من الفاطميّين، وتكررت المواجهات المسلّحة بين الطرفين، وبرغم تتابع انتصارات الفاطميّين على البيزنطيين في شمال الشّام، فإنّ القائد الفاطميّ (برجوان) عوّل على مهادنتهم ليتسنّى له التفرغ للقضاء على الفتن الداخلية في مصر. وبعد مراسلات سلمية بين قادة الدولتين استؤنفت المفاوضات، ولّما اتفق على شروط الصلح، انتدب «القائد برجوان»، بطريرك بيت المقدس أرسطيس لمصاحبة السفير البيزنطي لدى مصر في سفره إلى القسطنطينية لعرض هذه الشروط على الإمبراطور الرومي وإقرارها منه، فقام أرسطيس بهذه المهمة، وتّم بذلك إبرام معاهدة صداقة بين مصر والدَّولة البيزنطية تقرر فيها ما يأتي:

- تظلّ الهدنة قائمة بين مصر والدَّولة البيزنطية مدة عشر سنوات.
- يتمتع المسيحيون الذين يقيمون في أنحاء الدَّولة الفاطميَّة بالحرية الدِّينيَّة، ويسمح لهم بتجديد كنائسهم وبنائها.
- يتعهد إمبراطور الروم «باسيل الثّاني» إمداد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب.

وبرغم معاهدة الصلح هذه، ظلّت الأجواء المتوترة تحكم العلاقات ما بين الفاطميّين والبيزنطيين، إلى أن توفي الفاطميّ العزيز سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م وخلفه ابنه الظاهر، الذي أُبرمت في عهده معاهدة صلح جديدة تضمّنت الشروط الآتية:

- أن يسمح للإمبراطور البيزنطي بإعادة بناء كنيسة القيامة في بيت المقدس.
- أن يسمح لجميع المسيحيين بإعادة بناء الكنائس التي هدمها الحاكم عدا تلك التي حولت إلى جوامع.
- أن يعيّن الإمبراطور البيزنطي بطريركاً في بيت المقدس.

- أن لا يقوم الفاطميّون بأي عمل عدائي على حلب، حتّى تقوم بسداد الجزية السنوية التي كانت تدفعها للدولة البيزنطية منذ سنة ٩٧٠م.
- ألا تمد الدَّولة الفاطميَّة يد المساعدة لأي عدو من أعداء الدَّولة البيزنطية وخاصة أهل صقلية الدين هدّدوا هذه الدَّولة، وعاثوا في جزر بحر الأرخبيل.

وفي مقابل هذه الشروط، يتعهد الإمبراطور الآتي:

- أن يذكر اسم الخليفة الفاطميّ في الخطبة في جامع القسطنطينية والمساجد الواقعة داخل حدود الدَّولة البيزنطية.
- أن يعيد بناء جامع القسطنطينية، وكان قد هدم ردّاً على هدم كنيسة القيامة في عهد الحاكم بأمر الله.
- أن يطلق الأسرى المسلمين الذين هم في قبضة الروم.
- أن لا يقدم الإمبراطور أيّة مساعدة لحسان بن مخرج بن الجراح الطائي صاحب الرملة، الذي خرج على الخليفة الظاهر الفاطميّ.

وسنة ٤٢٩هـ/ ١٠٢٧م، تجدّد إبرام اتفاق صلح بين الخليفة الفاطميّ المستنصر بالله والإمبراطور ميخائيل الرَّابع، بعد تعرض الاتفاق السابق لخروق، كانت سبباً في تعكير جو العلاقات بين الدولتين.

الفاطميّون والسلاجقة

لقد حاول الروم استغلال ضعف الدَّولة العبّاسيَّة، باحتلال الشّام ومصر، هذه المحاولة الرومانية كانت الدافع الأساس في تحرّك المعزّ الفاطميّ، بإنفاذ حملة بقيادة جوهر (الصّقليّ) من قاعدته في تونس سنة ٣٥٨، سيطرت خلالها على مصر ثم على فلطسين في العام التالي.

تعمّد القائد الفاطميّ، الصّقليّ، الإشارة إلى الخطر الروماني في منشوره الّذي وزّعه على أهالي مصر باسم المعزّ، فقال إنّ هدف الحملة: الدفاع عن البلاد ضد الروم الذين استطالوا، وأطمعتهم أنفسهم بالاقتدار عليها واستنقاذها من

«المذلة والخزي». وإقامة الحج الذي تعطّل، وتأمين الطرق، وحسم الظلم.

استقرت سيطرة الفاطميّين في مصر، ولكنها ظلّت قلقة في الشّام، التي حاول الرومان احتلالها، وهاجمها القرامطة مراراً، تصدّى الفاطميّون لثلاث حملات رومانية على الأقل، فيما ظلّت جيوشهم تتناوب السيطرة على أجزاء من الشّام مع القرامطة، لعدة عقود، نجحوا بعدها في تحقيق استقرار نسبي، فأجبروا الروم على هدنة، وصلت معها إلى الخليفة المستنصر في القاهرة هدية قيمتها ثلاثون قنطاراً من الذهب، سنة ٤٣٧. وكان من بنود هذه الهدنة، أن يبني الروم كنيسة القيامة، ويطلقوا خمسة آلاف أسير مسلم لديهم. وإلى فترات الاستقرار تعود الأنشطة العمرانية التي أنجزها الفاطميّون في القدس، ومنها عمارة الأقصى الفاطميّ، التي يتردد أنها جاءت بعد زلزال دمر المسجد فتولّى الخليفة الظاهر بناءه، في حين تتحدث مصادر أخرى عن أن الزلزال هدم بعض أجزائه، فقام الظاهر بأعمال ترميم واسعة، شملت التعديلات التي أدخلت على بنيان المسجد، وأوجدت ما اصطلح على تسميته (الأقصى الفاطميّ)، الذي يتكوّن من سبع بلاطات يماثل عرضها عرض المسجد الحالي، ولكل منها إحدى عشرة قنطرة، كما كان الحال في (الأقصى العبّاسيّ)، باستثناء قناطر البلاطة الوسطى، لكونها تحمل القبة المجددة على قناطر واسعة تعدل ثلاث قناطر في الأروقة الجانبية، وأضيف إليه أيضاً صفان من القناطر، تتعامد مع البلاطات السبع وتوازي جدار القبلة، وذلك على امتداد القنطرتين الكبيرتين الحاملتين للقبة، ويذكر ذلك الهروي الذي زار بيت المقدس سنة ٥٦٩هـ، ٤٢٦هـ، أي بعد عامين من وقوع الزلزال. ولم يقدم الرحالة الآخرون وصفاً دقيقاً للمسجد وعدد بلاطاته، لكن حديثهم عن أعمدته يفيد في أنّ الأقصى ظلّ كبيراً، وبذا لا يمكن الحسم بشأن الزمن الذي تقلصت فيه مساحة المسجد في العهد الفاطميّ على نحو ما تقدّم. جدد الفاطميّون أيضاً قبة الصخرة، وجرى الكشف عن فسيفساء فريدة استخدموها في أعمال الزخرفة والتزيين. كما جددوا عدداً من البوائك التي كانت قد أقيمت في العهد العبّاسيّ، وفي فترات الاستقرار شهدت القدس ازدهاراً كبيراً. وسنة ٤٦٥هـ، حاصرها إتسز بن أوق الخوارزمي، وهو زعيم جماعة من المرتزقة كانت تتبع السلاجقة، وتسمى «الناوكية»، تلك كانت

سنة قحط وشدة، من سنوات متوالية على هذا النحو، فاستسلمت القدس ودخلها إتسز ٤٦٥هـ، وجماعته، ليقيم فيها إمارة تدعو للسلاجقة مركزها القدس، وتمتد ما بين حمص إلى سيناء ووادي الغور، ولكنها لا تملك الساحل من طرابلس إلى أقصى عسقلان لعجزها البحريّ، ثم سرعان ما توسع بالسيطرة على دمشق، وطمع في احتلال مصر، لكنه تلقى هزيمة ساحقة على يد الفاطميّين عند (بلبيس)، وهُزم راجعاً إلى الشّام، ليواجه ثورة في القدس، قمعها بقتل ثلاثة آلاف من سكانها، ولم يسلم إلا من احتموا بالمسجدين: الأقصى وقبة الصخرة. ثم طاف ينفذ مذابح رهيبة في (غزة)، و(يافا) و(صور)، لم يكن من شأنها إلاّ أن تعجّل في نهايته. ففي تلك الفترة، كان قد بدأ تحرك سلجوقي كبير باتجاه الشّام بقيادة «تتش» الذي تقدم في الأراضي الفلسطينية بحذر شديد، إلى أن حاصر القدس سنة ٤٧٢هـ. وفيها أصحاب (إتز). استمر حصار المدينة ثلاث سنوات. إلى أن دخلها أحد أعوان تتش ويدعى (ارتق بك)، الذي استمر يتردد إليها حتّى وفاته سنة ٤٨٤هـ. وحكمها ابناه: سقمان وإيليغازي سبع سنوات اتسمت بالشدة والظلم اللذين هددا التسامح القائم في المدينة. تحرك الأفضل بن بدر الجمالي الفاطميّ وحاصر القدس سنة ٤٩١هـ. ولم يشأ أخذها عنوة حتّى لا يضطر إلى تهديمها، ولكن من فيها رفض التسليم، حتّى أحدث ثلمة في الأمور بواسطة المجانيق، فوافق (سقمان) على تسليمها مقابل الأمان لينتهي حكم السلاجقة فيها، ومعه فترة سيطرتهم على أجزاء من جنوب الشّام دامت ثلاثين سنة، في ذلك الوقت كان الفرنجة قد بدأوا تحركهم ويبدو أن الأفضل قد تحرك باتجاه القدس بعد أن أيقن أنها وجهة الفرنجة.

الدَّولة الحمدانية (٣١٧ ـ ٣٩٩هـ/ ٩٢٩ ـ ١٠٠٩م)

ينتسب الحمدانيون إلى قبيلة تغلب، وكان بنو تغلب بن وائل من أعظم بطون ربيعة بن نزار، وكانوا من نصارى العرب الجاهلية الذين لهم محل في الكثرة والعدد. وكانت مواطنهم في (الجزيرة) و(ديار ربيعة)، ثم ارتحلوا مع هرقل إلى بلاد الروم، ثم رجعوا إلى بلادهم، وفرض عليهم عمر بن الخطاب الجزية، فقالوا: يا أمير المؤمنين، لا تذلّنا بين العرب باسم الجزية، واجعلها صدقة مضاعفة

ففعل. وعلى هذا فالحمدانيون من بني تغلب ينحدرون من أصل عربي أصيل من العدنانية التي ولدت العربيَّة في كنفها. وما زالوا يتنقلون بماشيتهم وأموالهم وخيامهم على مثل حالة القبائل العربيَّة من تهامة إلى نجد إلى «الحجاز» إلى أرض «ربيعة» إلى ضفاف «الفرات»، حيث نزلوا ساحل «الرقَّة» الفسيح، ومنها انتقل حمدان بن حمدون إلى «الموصل».

وكان حمدان جد الأمراء الحمدانيين رئيس قبيلة أنجبت بضعة أولاد اعتمدوا على أنفسهم، وبرزوا في ميادين المغامرة والحرب، فانتصروا وخذلوا، وكانت حياتهم تتصف بالعنف والقوة، ولا تعرف الهدوء والسلم إلاّ قليلاً. وقد رافقت نشأة الحمدانيين ضعف الدّولة العبّاسيَّة، وغروب شمسها.

وقد شهد الحمدانيون الأحداث التي هزّت الإمبراطورية الإسلاميَّة هزَّة انتهت إلى فرط عقدها وظهور دويلات وإمارات مستقلة على يد «الأتراك»، و«الفرس»، و«الكرد»، وبعض القبائل العربيَّة، وشهدوا تقلص نفوذ العرب وذوبانه تحت سيطرة الدخلاء على نحو يدعو للأسف، فرأوا أن يقوموا بنصيبهم من حمل هذا العبء، وأن يصونوا التراث العربيّ، وأن يردوا ما استطاعوا هجمات الروم عن الثغور الإسلاميَّة. يرافق ظهور الأسرة الحمدانية ارتقاء «المتقي» عرش الخلافة، وقد تسلمها وهي على ما هي عليه من التفكك والانحلال، على يد الأتراك أصحاب وظيفة «أمير الأمراء» في بغداد حيث استبد أولئك الأمراء بالسلطة دون الخليفة العبّاسيّ، وراحت بعض القبائل العربيَّة التي سكنت بادية الشّام ووادي الفرات تستغل ضعف الخلافة العبّاسيَّة، وتستقل بالمدن والقلاع الواقعة في أرضها، ويعتبر ما قامت به قبيلة «تغلب» مثالاً لهذا الذي كان يقع في فترة ضعف الخلافة وسيادة الأمراء.

الدّولة الحمدانية في الموصل

لقد استطاعت «قبيلة تغلب»، بفضل أبناء زعيمها حمدان بن حمدون، أن تؤسس دولة في شمال العراق، وأن تتخذ من مدينة «الموصل» عاصمة لها (٣١٧ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٢٩ ـ ٩٦٩م).

وتعصّبت هذه الدَّولة للعروبة، وساءها استبداد الأتراك بالخلافة العبّاسيَّة، فجاء زعيمها الحسن بن عبد الله الحمداني إلى بغداد، ومعه أخوه لمناصرة الخليفة المتقي بالله سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤٢م. وكافأ الخليفة هذا الزعيم الحمداني بأن عيّنه في وظيفة «أمير الأمراء»، ومنحه لقب «ناصر الدَّولة»، ثم منح الخليفة المتقي أخاه لقب «سيف الدَّولة الحمداني». وعاش الأخوان: «ناصر الدَّولة» و«سيف الدَّولة» ببغداد إلى جانب الخليفة الذي عرف لهما قدرهما، ولكن ذلك لم يعجب الأتراك، فاستطاعوا بزعامة قائدهم «توزون» أن يطردوا الحمدانيين، وأن يحملوهم على العودة إلى الموصل سنة ٣٢١هـ/ ١٨٣٢م.

الدَّولة الحمدانية في حلب

تطلع سيف الدَّولة بعد خروج الحمدانيين من بغداد إلى القيام بمغامرة حربيَّة تعلي من شأن دولته بالموصل، فسار سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م إلى شمال الشّام، واستولى على «حلب»، وأخرج منها حاكمها التابع للدولة الإخشيديَّة، صاحبة السيادة حينذاك على مصر والشّام.

وكانت هذه النزاعات بين أقاليم الأمة المسلمة الواحدة وراء لتعجيل بنهاية هذه الدَّولة، وأصبح سيف الدَّولة بذلك صاحب الدَّولة الحمدانية، وعاصمتها حلب، والتي استمرت في شمال الشّام حتّى سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م. ومن يقلّب صفحات التّاريخ يجد مجالس سيف الدَّولة الحمداني تضم أولئك المشهورين في تاريخ الحضارة الإسلاميَّة وفي مقدّمهم الشاعر «أبو الطيب المتنبي»، والمؤرخ «أبو الفرج الأصفهاني» صاحب كتاب «الأغاني»، والخطيب «ابن نباتة»، والفيلسوف «الفارابي»، والشاعر «أبو فراس الحمداني».

قتال البيزنطيين

كان قيام الدَّولة الحمدانية على طول منطقة الأطراف الإسلاميَّة المتاخمة لأراضي الدَّولة البيزنطية، في جنوب آسيا الصغرى، وفي شمال العراق حاجزاً ضد هجمات البيزنطيين في وقت أضحت الدَّولة الإسلاميَّة نهباً للفوضى والقلاقل الداخلية، وليس لديها قوة حربيَّة كافية!

ولقد خلد التّاريخ اسم «سيف الدَّولة» من خلال حروبه المتكررة على البيزنطيين، والتصدي لأعمالهم العدائية على أرض المسلمين. وهو بدأ إغارته على آسيا الصغرى سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٩م من دون أن تمرّ سنة واحدة بغير تجهيز حملة حربيَّة لهذا الغرض النبيل. ولقد تسنى له أن يستولي على كثير من الحصون البيزنطية مثل «مرعش» وغيرها من مدن الحدود. ومن بطولات سيف الدَّولة: استيلاؤه على قلعة «الحدث»، وهي قلعة متاخمة لحدود الدَّولة البيزنطية، كان سيف الدَّولة قد بناها، وهجم عليها الرومان فخربوها، وهدموها، فأعد سيف الدَّولة جيشاً قويّاً، وهزم الروم هزيمة ساحقة، واستولى على قلعة «الحدث»، وقد قال المتنبي في ذلك قصيدة طويلة مادحاً سيف الدَّولة وبطولته في هذه المعركة، منها:

يكلف سيف الدَّولة الجيش همه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

سقوط حلب في أيدي البيزنطيين

وعاصرت حركات سيف الدَّولة قيام أعظم إمبراطورين عسكريين عرفتهما الدَّولة البيزنطية في هذا الأوان، فقد استطاع نقفور فوقاس أن يستولي على «حلب» نفسها، عاصمة سيف الدَّولة سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م، ودخل «أنطاكية» بجنوده، وقتل فيها ما يقرب من عشرين ألفاً، غير أنّ الدَّولة البيزنطية انسحبت منها بعد ثمانية أيّام بسبب المقاومة الحمدانية. وقد اتجه الإمبراطور الروماني حنا شمشيق إلى الاستيلاء على «بيت المقدس»، وتوغل كثيراً في أراضي الشّام، ولكنه عاد سريعاً من غارته الخاطفة بفضل مقاومة الحمدانيين في حلب، ومقاومة الفاطميّين في سائر الشّام.

سعد الدولة

وتولى «سعد الدَّولة» ابن سيف الدَّولة بعد أبيه سنة ٣٥٧ ـ ٣٨١هـ/ ٩٦٧ ـ ٩٩١م، لكنّ الدَّولة دخلت في مرحلة الضعف والنزاع الداخلي، وذلك بعد أن اعترف منصور بن لؤلؤة، والي الحمدانيين على حلب بسلطان الفاطميّين على حلب ٣٨٣هـ، وأصبحت إمارة فاطمية بعد أن كانت حارسة على أطراف الدَّولة الإسلاميَّة

في وقت لم يدرك الخلفاء العبّاسيّون في بغداد قيمة الدفاع عنها. ولجأ بعض المتنازعين على السلطة من الحمدانيين إلى الخلافة القائمة في مصر والشّام وقتذاك، على حين ظلت الخلافة العبّاسيَّة غارقة في الضعف والفوضى. وبرغم كل ذلك سقطت الدَّولة الحمدانية التي تمثّلت عظمتها في شخص «سيف الدَّولة».

التّشيُّع في حَلَب عَبر القرون

انتصر الإسلام في عصر النبيّ ﷺ في الجزيرة العربيَّة، كما انتشر بعد رحيله في شتّى الأقطار، ووالاه التَّشيُّع في الانتشار بسرعة في الأقطار الإسلاميَّة، وما ذلك إلاّ لأنّ أكثر المهاجرين والأنصار كانوا يشايعون عليّاً ويحاربون معه، ولا سيّما في أيّام خلافته. وبعدما نزل الإمام بالكوفة انتشر التَّشيُّع في العراق.

ولّما غادر الإمام الصّادق المدينةَ المنورة، ونزل بالكوفة أيّام «أبي العبّاس السفاح» مدّة سنتين، عمد الإمام إلى نشر علومه، وتخرّج على يديه الكثير من العلماء، وقوي التَّشيُّع لأهل البيت ﷺ. وهذا «الحسن الوشّاء» يحكي لنا عن ازدهار مدرسة الإمام في العراق في تلك الظروف، ويقول: أدركتُ في هذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ تسعمائة شيخ كلّ يقول: حدّثني «جعفر بن مُحمَّد».

وقد كان لهذه المدرسة العظيمة للإمام أكبر الأثر في انتشار التَّشيُّع في أقطار العالم، وإن كانت جذوره موجودة قبل الإمام الصّادق في الشّام ومصر وغيرهما. وقد انتشر التَّشيُّع بواسطة مدرسة الإمام في معظم الأمصار الإسلاميَّة خصوصاً في ثالث القرون وما بعده، ومع أنّ الشّام كانت مَعقلَ الأمويين ودارَ خلافتهم، نرى أن التَّشيُّع قد دبّ فيها دبيبَ الماء في الورد، فما من بلدة أو قرية إلاّ وفيها نجم لامع من علماء الشّيعة يقتفي أثرَ أهل البيت وينادي بموالاتهم التي نصّ القرآن الكريم عليها.

وقد كان لسماع كلمات أهل البيت جاذبيّة خاصة في قلوب المسلمين، ولا سيّما أنّهم كانوا يصلّون على أهل بيت مُحمَّد وآله وعترته في صلاتهم كلّ يوم وليلة تسع مرّات. وهذا الأمر يدفعهم إلى التعرف عليهم والاهتمام بشأنهم، ولهذا

نشر تاريخ ١٤٥٣ هـ.ش

وذاك، قوي انتشار التّشيُّع والموالاة لأئمّة أهل البيت في أكثر الأقطار الإسلاميّة حتّى في معاقل الأعداء ودار حكومتهم.

حَلَب الشَّهباء وجمالها الطبيعي

الشّام من المناطق التي اعتنقت التَّشيُّع منذ عصور قديمة، وخاصة حلب الشهباء التي نبغ فيها كثير من بيوتات الشّيعة، وتربّى في أحضانها جيل كبير مَن المحدّثين والفقهاء والمتكلّمين والأدباء من الشّيعة. يقول ياقوت الحمويّ في وصف حلب: «حَلَب بالتحريك: مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيّبة الهواء صحيحة الأديم والماء. وقد وصف الشعراء والأدباء أزهارها وأثمارها، وأشاروا إلى ضواحيها ونواحيها، وما فيها من جمال الطبيعة وكمال الصنع، وكأنّك ترى ماءها الفضيّ يجري على تراب كالذهب. وترى فيها أنواعاً من الأزهار والفواكه كلّها تُسقى بماء واحد».

وللشاعر أبي بكر الصَّنوبريّ قصيدة تبلغ مائة وأربعة أبيات يصف فيها متنزّهات حلب وقُراها. وقال السَّيِّد الخوانساري نقلاً عن كتاب: «تلخيص الآثار»: «إنّ حلب مدينة عظيمة بأرض الشّام كثيرة الخيرات، طيّبة الهواء، صحيحة التربة، لها سور حصين. وكان الخليل عليه السلام يحلب غنمه، ويتصدّق بلبنها يوم الجمعة. ولقد خصّ الله هذه المدينة ببركة عظيمة من حيث يُزرع بأرضها القطن، والسمسم، والدُّخن، والكَرْم، والمشمش، والتين، ويسقى بماء المطر. وهي مسوَّرة بحجر أسود، والقلعة بجانب السور: لأنّ المدينة في وطأ من الأرض، والقلعة على جبل مدوّر، لها خندق عظيم، وصل حفره إلى الماء، وفيها مقامان للخليل عليه السلام يُزاران إلى الآن، وفي بعض ضياعها بئر إذا شرب منها مَن عضّه الكلب الكليب برئ. ومن عجائبها سُوقُ الزّجاج، لكثرة ما فيه من الظرائف اللطيفة، والآلات العجيبة».

حلب والتَّشيُّع

دخل التَّشيُّع في حلب قبل عهد الحمدانيين (٢٩٣ ـ ٣٩٢هـ)، ولكنّه انتشر وقوي في عهدهم، وذلك لأنّ الدَّولة الحمدانيّة كانت من الدُّولة الشيعية، يجاهرون

بالتَّشيُّع وينصرونه، وكانوا يكرمون الأدباء والشعراء والعلماء والمحدثين، وخاصة الذين يجاهرون بالتَّشيُّع وولاء أهل البيت.

ومن أبرز شعراء الحمدانيّين أبو فراس الحمداني (٣٢٠ ـ ٣٥٧هـ) وله القصيدة الميميّة الطائرة الصيت التي مستهلّها:

الحقُّ مُهتَضَمٌ والدِّين مُختَرَمُ   وفيءُ آلِ رسولِ اللّه مُقتَسَمُ

إلى أن يقول:

قامَ النبيُّ بها يومَ الغدير لهم   واللّهُ يَشهدُ والأملاكُ والأُمَمُ
حتّى إذا أصبحت في غير صاحبها   باتت تَنازَعُها الذُّؤبان والرُّخَمُ
وصَيّروا أمرَهُم شورى كأنَّهُمُ   لا يعلمون وُلاةَ الحقّ أيَّهُمُ
تاللّهِ ما جَهِلَ الأقوامُ مَوضعَها   لكنّهم سَتروا وجهَ الذي عَلموا
ثمّ ادّعاها بنو العبّاس مُلكَهُمُ   ولا لَهم قَدَمٌ فيها ولا قُدُمُ

ولأجل تلك المناصرة، ووجود المناخ المساعد، أصبح التَّشيُّع مذهباً رائجاً في تلك البلدة الخصبة، ممتداً إلى ضواحيها كالموصل، وتشهد بذلك نصوصُ كثير من المؤرخين:

١ ـ يقول ياقوت الحمويّ وهو يذكر حلب: والفقهاء يُفتون على مذهب الإماميَّة.

٢ ـ وقال ابن كثير الشّامي في تاريخه: كان مذهب الرفض فيها في أيّام سلطنة الأمير سيف الدَّولة بن حمدان رائجاً رواجاً تاماً.

٣ ـ وقال مؤلف نهر الذهب: لم يَزَل الشّيعة بعد عهد سيف الدَّولة في تصلّبهم حتّى حل عصبتَهم وأبطل أعمالهم «نورُ الدّين» (٥٤٣هـ)، ومن ذلك الوقت ضعف أمرهم: غير أنّهم ما برحوا يجاهرون بمعتقداتهم إلى حدود (٦٠٠هـ) فأخفوها.

ثمّ ذكر أنّ مصطفى بن يحي بن حاتم الحلبي الشهير بـ «طهزاده» فتك بهم في حدود الألف فأخفَوا أمرهم، وذكر بعضَ ما يفعله الحلبيّون مع الشّيعة من

الأعمال الوحشية والمخازي والقبائح التي سوّدت وجه الإنسانية ويخجل القلم من نقلها.

وقال القاضي المرعشي: «أهل حلب كانوا في الأصل شيعة، وإلى أواخر زمان الخلفاء العبّاسيَّة كانوا على مذهب الإماميَّة، وقد أُجبروا في زمان انتقال تلك الولاية إلى حكم السلاطين العثمانيَّة على ترك مذهبهم». وما مرّ من فعل «طهزاده» يؤيد ذلك، فإن استيلاء العثمانيّين على حلب كان في أوائل المائة العاشرة.

وقال مؤلّف نهر الذهب: إنّه لم يَزل يُوجد في حلَب عدّة بيوت معلومة يقذفهم بعض الناس بالرفض والتَّشيُّع ويتهابون الزواج معهم، مع أنّ ظاهرهم على كمال الاستقامة وموافقة أهل السُّنَّة.

٤ ـ وقال ابن كثير: لمّا سار «صلاح الدّين» إلى حلب فنزل على «جبل جوشن»، نُودي في أهل حلب بالحضور في ميدان باب العراق فاجتمعوا، فأشرف عليهم «ابن الملك نورُ الدّين»، فتودّد إليهم وتباكى لديهم وحرّضهم على قتال «صلاح الدّين»، وذلك عن إشارة الأمراء المقدّمين، فأجابه أهل البلد بوجوب طاعته على كلّ أحد، وشرط عليه الروافض منهم أن يُعاد الأذانُ «حَيّ على خير العمل»، وأن يذكر في الأسواق، وأن يكون لهم في الجامع الجانب الشَّرقيّ، وأن يذكر أسماء الأئمّة الاثني عشر بين يدي الجنائز، وأن يكبّروا على الجنازة خمساً، وأن تكون عقود أنكحتهم إلى الشَّريف أبي طاهر أبي المكارم «حمزة بن زهرة الحسيني»، فأجيبوا إلى ذلك كلّه، فأُذِّن بالجامع وسائر البلد بـ «حيّ على خير العمل».

ونقل «السَّيِّد الأمين» عن أعلام النبلاء عن كتاب «الروضتين»، عن «ابن أبي طي» أنّه قال: فأذّن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بـ «حيّ على خير العمل»، وصلّى أبي في الشَّرقيّ «مُسبِلاً»، وصلّى وجوه الحلبيين خلفه. وذكروا في الأسواق وقُدام الجنائز أسماء الأئمّة، وصلّوا على الأموات خمس تكبيرات، وأُذن للشريف ـ ابن زهرة ـ أن يكون عقود الحلبيين من الإماميَّة إليه، وفعلوا جميع ما وقعت الإيمان عليه.

وقال ابن كثير أيضاً: إنّ بدر الدَّولة أبا الربيع «سليمان بن عبد الجبار بن أرتق» صاحب حلب، لمّا أراد بناء أوّل مدرسة للشافعية بحلب لم يمكّنه الحلبيون، إذ كان الغالب عليهم التَّشيُّع.

إنّ ابتداء إمرة سليمان هذا في حلب نيابة عن عمّه «إيلغاري» بن أرتق، كان سنة «٥١٥هـ» وانتهاءها سنة «٥١٧هـ»، وإنّ تلك المدرسة تسمى «الزجاجية»، وإنّه كلما بنى فيها بناءً نهاراً، خرّبه الحلبيون ليلاً، إلى أن أعياه ذلك، فأحضر الشَّريف «زهرة بن عليّ بن إبراهيم الإسحاقي الحسيني»، والتمس منه أن يباشر بناءها، فكفّ العامة عن هدم ما يبنى، فباشر الشَّريف البناء ملازماً له حتّى فرغ منها. وخرج من حلب عدّة من علماء الشّيعة وفقهائهم منهم الشيخ كردي بن «عكبري بن كردي» الفارسي الفقيه الثقة الصالح، كان يقول بوجوب الاجتهاد عيناً وعدم جواز التقليد، قرأ على «الشيخ الطوسي»، وبينهما مكاتبات وأسئلة وأجوبة. ومنهم الفقيه المقدام «أبو الصلاح تقي بن نجم الحلبي» (٣٤٧ ـ ٤٤٧هـ) مؤلف «الكافي»، و«التهذيب» و«المرشد» و«تقريب المعارف» ـ وقد طبع الأول والأخير ـ وغيرهما.

وقد كانت الصلة بين شيعة حلب وشيعة الكوفة وثيقة جدّاً، ولهذا نرى أنّ بعض البيوت العراقية ينتسب إلى حلب، وما ذلك إلاّ لوجود الصلة التِّجاريَّة أو العلميَّة بين البلدين، فهذا هو عبيد الله بن عليّ بن أبي شعبة المعروف بالحلبي، كان يتّجر هو وأبوه وإخوته إلى حلب فاشتهروا بالحلبيّين. وعبيد الله هذا من فقهاء الشّيعة في القرن الثّاني، وله كتاب يرويه أصحابنا عنه، ورواياته مبثوثة في المعاجم الحديثة. هذا بعض ما كان للشيعة من الشأن في تلك التربة الزّهراء. أمّا مصيرهم في القرون فقد حدّث عنه المؤرّخون، وقد مرّ تصريح بعضهم بما جرى على شيعة أهل البيت من المجازر فيها. فلْنُشِرْ هنا إلى النزر اليسير منها.

إنّ تاريخ الشّيعة تاريخ حافل بالتضحيات حيث إنّهم عاشوا بين الخوف والرجاء، وبين الحَجَر والمَدَر، وقد تعامل معهم الأمويّون والعبّاسيّون على

نحو يَندى له جبين البشرية، ولم يكن سبب ذلك إلاّ عدم تحالفهم مع الظالمين، وبرغم ذلك فبقاء الشّيعة اليوم يعدّ من أكبر المعاجز ومن خوارق العادات، إذ لم يشهد التّاريخ أُمةً أصابتها النوائب والمظالم والقتل الذريع مثل ما أصابت شيعة أهل البيت ومواليهم، ولو أنّك وقفت على ما في طيّات كتب التّاريخ لَضُقتَ ذَرعاً، ولُملئت ممّا جاء فيها رُعباً.

٦ ـ قال مُحمَّد كرد عليّ في «خطط الشّام»: كان أهل حلب سُنّة حنفية، حتّى قدم الشَّريف أبو إبراهيم الممدوح ـ في عهد سيف الدَّولة ـ فصار فيها شيعةً وشافعية. وأتى «صلاح الدّين» وخلفاؤه فيها على التَّشيُّع، كما أتى عليه في مصر. وكان المؤذن في جوامع حلب الشهباء يؤذّن بـ «حيّ على خير العمل». وحاول «السلجوقيون» مرات، القضاء على التَّشيُّع، فلم يقدروا على ذلك. وكان حكم بني حمدان، وهم شيعة، من جملة الأسباب الداعية إلى تأصّل التَّشيُّع في الشمال، ولا يزال على حائط صحن المدفن الذي في سفح جبل «جَوشَن» بظاهر حلب ذكر الأئمّة الاثني عشر، وقد خُرّب الآن.

٧ ـ وقال ابن جبير: للشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة، وهم أكثر من السنّيين بها، وقد عمّوا البلاد بمذاهبهم.

دخل صلاح الدّين الأيوبي حلب ٥٧٩هـ وحمل الناس على التسنن وعقيدة الأشعري، وكان لا يُقدَّم للخطابة ولا للتدريس إلاّ من كان مقلّداً لأحد المذاهب الأربعة، ووضع السيف على الشّيعة فقتلهم وأبادهم مثل عمله في مصر، إلى حد أن الخفاجي يقول في كتابه: «فقد غالى الأيوبيّون في القضاء على كلّ أثر للشيعة».

ونرى أنّ الدَّولة الأيوبيّة لم تتمكن من القضاء على التَّشيُّع في حلب تماماً بل بقي برغم ما أصابه من الكوارث والمحن.

٨ ـ وهذا ياقوت الحمويّ يكتب عن حلب سنة «٦٣٦هـ»، أي بعد دخول الأيوبي لها بسبع وخمسين سنة: «وعند باب الجنان مشهد عليّ بن أبي طالب ﷺ: رُئي فيه في النوم، وداخل باب العراق «مسجدُ غوث»، فيه حَجَر عليه كتابة

زعموا أنّها خطّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وفي غربيّ البلد في سفح جبل جوشن قبر «المحسن بن الحسين» يزعمون أنّه سقط، لمّا جيء بالسبيّ من العراق ليُحْمَل إلى دمشق، أو طفل كان معهم بحلب فدفن هنالك. وبالقرب منه مشهد مليح العمارة تعصّب الحلبيون وبنوه أحكمَ بناء، وأنفقوا عليه أموالاً، يزعمون أنّهم رأوا علياً عليه السلام في المنام في ذلك المكان. هكذا استمر التَّشيُّع في حلب وفيه البناء، لم تقلعه تلك الهزَّاتُ العنيفة، ولم تقوّضه تلك العواصف الشديدة، إلى أن أفتى «الشيخ نوح الحنفي» بكفر الشّيعة واستباحة دمائهم وأموالهم، تابوا أو لم يتوبوا، فزحفوا على شيعة «حلب» وأبادوا منهم أربعين ألفاً أو يزيدون، وانتُهبتْ أموالهم، وأُخرج الباقون منهم من ديارهم إلى «نُبُّل» و«النغاولة» و«أمّ العمد» و«الدلبوز» و«الفُوعَة» وغيرها من القرى، واختبأ التَّشيُّع في أطراف حلب في هذه القرى والبلدان. وهاجم الأمير ملحم ابن الأمير حيدر، بسبب هذه الفتوى، جبل عامل سنة ١٠٤٨هـ فانتهك الحرمات واستباح المحرّمات يوم وقعة قرية «أنصار»، فلا تسأل عمّا أراق من دماء، واستلب من أموال، وانتهك من حريم، فقد قتل ألفاً وخمسمائة، وأسر ألفاً وأربعمائة، فلم يرجعوا حتّى هلكوا في الكنيف ببيروت. فيا الله من هذه الجرأة الكبرى على النفوس والأعراض، ومن تلك الفُتيا الّتي غرّرت بأُولئك على تلك الفظائع والجرائم.

٩ ـ ولم يكن ذلك الفتك الذريع أوّل تصفية جسدية للشيعة، بل صبّت عليهم قوارع في دار الخلافة، قبل قرنين، اتسمت بالوحشية التامة، يَنْدى لها جبين الإنسانية. فقد قتل السلطان سليم في الأناضول وحدها أربعين ألفاً، وقيل سبعين ألفاً: لا لشيء إلاّ لأنهم شيعة. ما أقبحها من عصبية وما أقساها!

ترى أكان يسوغ في شريعة الإنصاف أن يُسام قوم يدينون بدين الحقّ، ويتّبعون أوصياء النبيّ الشرعيين الّذين أوصى النبيّ بموالاتهم ومحبتهم، ويمُنَعوا من أبسط حقوقهم الإنسانية وهي حرّية الرأي والمعتقد، خاصة إذا كان ذلك المعتقد من النوع الذي يأخذ بصاحبه إلى الفضيلة والطهر، والإنسانية والكمال؟ ترى أكان

يسوغ أن تمنع جماعة يحترمون وصية النبيّ ﷺ في ذريته وخلفائه الأبرار، من أداء شعائرهم النابعة من الكتاب والسنّة إلاّ في غطاء التقية؟

وإذا كانت التقية أمراً قبيحاً في نظر البعض فعملُ مَن حَملَهُم عليها أقبح. وهذا هو الشاعر إبراهيم يحي يصف مظالم «الجزّار» والي عكّا، وفظائعه على الشّيعة في جبل عامل، تلك المنطقة الخصبة بالعلم والفضل وجمال الطبيعة. والتي كانت ولم تزل داراً للشيعة منذ عصور، تلمع كشقيقتها حلب في خريطة الشّامات. وقد صوّر الشاعر ما جرى عليهم في قصيدته على وجه يُدمي الأفئدة والقلوب، وقد هاجر من موطنه إلى دمشق ونظم فيها القصيدة الميميّة[1].

---

(١) جعفر السّبحانيّ، تذكرة الأعيان، مؤسّسة الإمام الصّادق، قمّ، الطّبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

الفصل الثاني

طرابلس في رحاب الفكر الإسلاميّ الشيعي

حينما دخلت طرابلس الشّام وجوارها المشرقيّ العربيّ في رحاب النفوذ الإسلاميّ الشيعي، في مرحلة بالغة الأهمية من مراحل مسيرة تاريخها العربيّ الإسلاميّ، باتت هذه المدينة وبلدان الجوار الإقليمي جزءاً لا يتجزأ من بنية الفكر الشيعي الإيديولوجي والسّياسيّ والاجتماعيّ والاقتصادي والعسكري، في بعده الحضاري الشّامل، وأصبح لزاماً معرفة موقع المذهب الشيعي ومكانته، وركائزه ومقوماته، وبصورة خاصة تأثيراته على الهوية المذهبية التي اتسم بها هذا الثغر الإسلاميّ في تلك الحقبة.

والتَّشيُّع في معناه اللغوي هو المشايعة، أي المتابعة والمناصرة والموالاة. والشّيعة هم الأتباع والأنصار، وقد غلب هذا الاسم على أتباع عليّ ﷺ، حتّى اختص بهم، وأصبح إذا أطلق ينصرف إليهم، وبهذا المعنى اللغوي يشير الشيخ الدُّكتور أحمد الوائليّ إلى أنّ لفظة شيعة قد استخدمت في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣﴾ [الصافات: ٨٣] وكقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]. أما التَّشيُّع اصطلاحاً فهو الاعتقاد بآراء وأفكار معينة. وقد اختلف الباحثون في هذه الأفكار والآراء، كثرة وقلة. والتَّشيُّع بالمعنى الثّاني أعم منه بالمعنى الأول، وبينهما من النسب عموم وخصوص مطلقاً، والعموم في جانب التَّشيُّع بالمعنى الثّاني كلاً منهما. وانطلاقاً من كون التَّشيُّع اعتقاداً بآراء معينة، ذهب العلماء والباحثون تبعاً لذلك إلى تعريفه على اختلاف بينهم، في سعة مدى هذه التعاريف وضيقه، وإليك نماذج من تعريفاتهم:

١ ـ الشهيد الثّاني في كتابه «شرح اللمعة»، قال: «والشّيعة من شايع علياً عليه السلام، أي اتبعه وقدّمه على غيره في الإمامة، وإن لم يوافق على إمامة باقي الأئمة، فيدخل فيهم: الإماميَّة، والجارودية من الزيدية، والإسماعيليَّة غير الملاحدة منهم، والواقفية، والفطحية».

٢ ـ الشيخ المفيد في كتاب الموسوعة كما نقله عنه المؤلف قال: «الشّيعة هم من شايع علياً وقدّمه على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واعتقد أنّه الإمام بوصيّة من رسول الله، أو بإرادة من الله تعالى، نصّاً كما يرى الإماميَّة، أو وصفاً كما يرى الجارودية». وقد نقل هذا المضمون نفسه كامل مصطفى الشيبي في كتابه «الصلة بين التصوف والتشيع».

٣ ـ الشهرستاني في الملل والنّحل قال: «الشّيعة هم الذين شايعوا علياً عليه السلام وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصايةً، إمّا جلياً، وإمّا خفياً. واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده».

٤ ـ النوبختي في كتابه «الفرق» قال: «الشّيعة هم فرقة عليّ بن أبي طالب عليه السلام المسمّون بشيعة عليّ في زمن النبي، ومن وافق مودته مودة عليّ عليه السلام».

٥ ـ مُحمَّد فريد وجدي في كتابه «دائرة معارف القرن العشرين» قال: «والشّيعة هم الذين شايعوا علياً عليه السلام في إمامته، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده، ويقولون بعصمة الأئمة من الكبائر والصغائر، والقول بالتولي والتبري، قولاً وفعلاً، إلاّ في حال التقية إذا خافوا بطش ظالم».

ونشرح هذه النماذج من التعريفات التي قدمها الشيخ الوائليّ لنتعرف من خلالها على ماهية مقومات التَّشيُّع في نظر الباحثين، وقد تبين من بعضها الاقتصار على وصف الشّيعة بأنهم يقدّمون علياً عليه السلام على غيره، لوجود نصوص في ذلك، أو وجود صفات اختص بها ولم توفر لغيره، والواضح من ذلك أنّ جوهر التَّشيُّع هو الالتزام بإمامة عليّ وولده، وتقديمه على غيره، لوجود نصوص عندهم في ذلك، وينتج من ذلك الالتزام أمران:

الأول: بما أنّ الإمامة وليدة النصوص فهي امتداد للنبوة، يترتب عليها ما يترتب على النبوة من لوازم، عدا الوحي فإنّ نزوله مختص بالأنبياء.

والثّاني: أن الإمامة لا تتم بالانتخاب والاختيار، وإنّما بالتعيين من الله، فهو الذي ينص على الإمام عن طريق النبي، وإنّما يختاره لتوفّر مؤهلات عنده لا توجد عند غيره.

أمّا الزيادة على ما ذكره الوائليّ والتي وردت في التعريفات التي نقلها، والتي قد توجد في كتب الشّيعة الأخرى، فهي مستقاة من أخبار، وهي أعم من كونها من أصول المذهب أو من أصول الإسلام، كما سنرى في ما يأتي. وإنّ الغرض من هذه الإشارة هو إلقاء الضوء على نقطة يؤكد عليها الباحثون عند ذكر الشّيعة وعقائدهم، ألا وهي إدخال آراء أريد لها أن تكون خيوطاً تصل بين التَّشيُّع واليهوديَّة، أو النصرانية، أو الزندقة، ومحاولة إيصال التَّشيُّع لعرقيات معينة، وهي محاولة لا تخفى على النقاد بأنها غير موضوعية. إن هذه المحاولة تريد تصوير التَّشيُّع على أنّه تطوّر لا كما تتطور العقائد والمذاهب الأخرى، وفي التوسع وقبول الإضافات السليمة نتيجة تبرعم بعض الآراء، وإنّما هو تطور غير سليم، وغير نظيف، أفسد مضمون التَّشيُّع. ومن ثم انتقل إلى عرض تطور التَّشيُّع فاستند مرجعياً إلى ما ذهب إليه عدد من المؤرخين في هذا المضمار:

١ ـ رسم الدُّكتور عبد العزيز الدوري هذا التطور عن طريق تقسيمه للتشيع إلى روحي بدأ أيّام النبي ﷺ، وسياسيّ حدث بعد مقتل الإمام علي عليه السلام. وقد استدلّ لذلك بأنّ التَّشيُّع بمعناه البسيط، من دون باقي خواصه الاصطلاحية، قد استعمل في صحيفة التحكيم التي نصت على شيعة لعلي وشيعة لمعاوية، مما يعطي معنى المشايعة والمناصرة فقط، من دون سائر الصفات والأبعاد السيّاسيَّة التي حدثت بعد ذلك.

٢ ـ مُحمَّد فريد وجدي في دائرة المعارف قال: «الشّيعة هم الذين شايعوا علياً عليه السلام في إمامته، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج عن أولاده. ويقولون بعصمة الأئمة من الصغائر والكبائر، والقول بالتولي والتبري، قولاً وفعلاً، إلاّ في حال

التقية، إذا خافوا بطش ظالم. وهم خمس فرق: «كيسانية وزيدية وإماميَّة وغلاة وإسماعيليَّة. وبعضهم يميل في الأصول إلي الاعتزال، وبعضهم إلى السُّنَّة، وبعضهم إلى التشبيه».

إنّ هذا المقتطف من فريد وجدي سبق أن ذكرت قسماً منه في التعريف بالتَّشيُّع، وذكرت هنا المقتطف كاملاً، ليتضح أن مضمونه يغطي التَّشيُّع منذ أيّامه الأولى حتّى الآن، لأنّ من الواضح أنّ هذه المضامين لم تولد دفعة واحدة، وإنّما دخلت لمضمون التَّشيُّع تدريجاً، وقد خلط فريد وجدي فيها بين السمات والمقومات، وجعل من ليس من الشّيعة منهم، ونسب لهم ما هم منه براء.

٣ ـ الدُّكتور كامل مصطفى في كتابه «الصلة بين التصوف والتشيع» قال: «ويتضح بعد ذلك أنّ التَّشيُّع قد عاصر بدء الإسلام باعتباره جوهراً له، وأنّه ظهر كحركة سياسيَّة، بعد أن نازع معاوية عليّاً على الإمارة وتدبير شؤون المسلمين، ويتبين بعد ذلك أن تبلور الحركة السّياسيَّة تحت اسم الشّيعة كان بعد قتل الحسين عليه السلام مباشرة، وإن كانت الحركة سبقت الاصطلاح، وبذلك يمكننا أن نلخّص هذا الفصل في كلمة بيانها أنّ التَّشيُّع كان تكتلاً إسلامياً، ظهرت نزعته أيّام النبي، وتبلور اتجاهه السّياسيّ بعد قتل عثمان، واستقلّ الاصطلاح الدالّ عليه بعد قتل الحسين عليه السلام».

٤ ـ الدُّكتور أحمد أمين قال: «إنّ التَّشيُّع بدأ بمعنى ساذج، وهو أنّ عليّاً عليه السلام أولى من غيره من وجهتين: كفايته الشخصية، وقرابته للنبي. ولكن هذا التَّشيُّع أخذ صيغة جديدة بدخول العناصر الأخرى في الإسلام من يهوديَّة ونصرانية ومجوسيَّة، وحيث أن أكبر عنصر دخل في الإسلام الفرس، فلهم أكبر الأثر بالتَّشيُّع». وواضح هنا، ممّا ذكره أحمد أمين، أنّ التَّشيُّع تطوّر لا بشيء من داخله، وإنما بإضافات وإسباغ من عناصر أخرى دخلت الإسلام، واختارت التَّشيُّع، فنقلت ما عندها من أفكار وعقائد إليه، حتّى أصبحت جزءاً منه. وإنّ الفرس بالذات، تركوا بصماتهم على المذهب أكثر من غيرهم. كما يريد

أحمد أمين أن يصوّره، وهو زعم أخذه أحمد أمين من غيره، وغيره أخذه من غيره، وهكذا حتّى أوشك أن يصبح من الأمور المتسالم عليها عند الباحثين. وقريباً سأوقفك على زيف هذه الدعوى والهدف من الإصرار على ربط التَّشيُّع بالفارسيَّة شكلاً ومضموناً.

٥ ـ الدُكتور أحمد محمود صبحي قال: «التَّشيُّع، بالنسبة للشيعة المتأخرين، مثل الزهد في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، والفرق بينه وبين التصوف الذي شابته عناصر غنوصية، وتأثر بتيارات فكرية متباينة، كما عرف لدى محي الدِّين بن عربي والسهروردي مثلاً».

متى بدأ التَّشيُّع؟

يختلف المؤرِّخون أمام الرجوع إلى بداية التَّشيُّع وبذرته التّاريخية تبعاً لاستنتاجاتهم وأمزجتهم ومسبقاتهم، وما ترجح لديهم بمرجح من المرجحات. فقدّم الوائليّ بشأن بداية النشأة نماذج من آراء الباحثين في هذه المواضيع تكوّن المادة الخام التي يبقى على القارئ أن يستشف الحقيقة من ورائها، ويكوّن له رأياً يجتهد في أن يكون موضوعياً. وإنّ المؤرخين والباحثين عندما يحدّدون فترة نشوء التَّشيُّع يتوزعون على مدى يبتدئ من أيّام النبي ﷺ، وينتهي بعد مقتل الحسين عليه السلام.

أ ـ رأي يرى أنهم تكوّنوا بعد وفاة النبي ﷺ.

ب ـ رأي يذهب إلى أنّ التَّشيُّع نشأ أيّام عثمان.

ج ـ رأي يذهب إلى تكوّن الشّيعة أيّام خلافة الإمام علي عليه السلام.

د ـ رأي يذهب إلى أنّ ظهور التَّشيُّع كان بعد واقعة الطف.

هـ ـ رأي الشّيعة وغيرهم من المحققين من المذاهب الأخرى، حيث ذهب هؤلاء إلى أنّ التَّشيُّع ولد أيّام النبي ﷺ، وأنّ النبي نفسه هو الذي غرسه في النفوس، عن طريق الأحاديث التي وردت على لسان النبي ﷺ، وكشفت عمّا لعلي عليه السلام من مكانة، في مواقع متعددة، رواها إضافة إلى الشّيعة ثقات أهل السنّة، ومنها: ما رواه السّيوطيّ عن ابن عساكر عند تفسير الآيتين السّادسة

والسّابعة من سورة «البيّنة»، بسنده عن جابر بن عبد الله، قال كنا عند النبي ﷺ، فأقبل عليّ عليه السلام، فقال النبي ﷺ، والذي نفسي بيده، إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة. فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البيّنة: ٧].

وأخرج ابن عدي، عن ابن عبّاس قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: هم أنت وشيعتك.

وأخرج ابن مردويه عن عليّ عليه السلام قال: قال لي رسول الله ﷺ: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾؟ هم أنت وشيعتك، وموعدي وموعدكم الحوض، إذا جاءت الأمم للحساب تدعون غرّاً محجلين.

ومن هنا ذهب أبو حاتم الرازي إلى أنّ أول اسم لمذهب ظهر في الإسلام هو الشّيعة. وكان هذا لقب أربعة من الصحابة: أبو ذر، وعمّار، ومقداد، وسلمان الفارسي، وبعد صفين اشتهر موالي عليّ بهذا اللقب.

الشّيعة غير الروافض

يتضح أمر آخر، وهو أنّ ما دأب عليه بعض الكتّاب من رمي الشّيعة بالرفض، وتسميتهم بالروافض، نشأ أخيراً ولأسباب خاصة هي: إنّ هذا الزمن الذي نشأ فيه نعت الشّيعة بالروافض هو في أيّام الأمويين، ولذلك جاءت النصوص تنعت الروافض بأنهم قسم من الشّيعة، لا الشّيعة كما يريد البعض، ومن تلك النصوص:

١ ـ مُحمَّد مرتضى الزبيدي في «تاج العروس».

٢ ـ إسماعيل بن حماد الجوهري في «الصحاح».

٣ ـ القاضي عياض في كتابه «ترتيب المدارك في أعلام مذهب مالك»، بين الشّيعة والرافضة، وذلك حينما قارن مذهب الإمام مالك بغيره فقال: فلم نر مذهباً من المذاهب غيره أسلم منه، فإنّ فيهم الجهمية والرافضة والخوارج والمرجئة

والشّيعة، إلاّ مذهب مالك، فإنّا ما سمعنا أحداً من نقلة مذهبه قال بشيءٍ من هذه البدع.

وخصوم الشّيعة ومن تبعهم من المستشرقين كل يضرب على وتر يستهدفه، جعلوا من قضية التَّشيُّع والفارسيَّة من الأمور المسلّم بها، وضلع تلامذتهم في ركابهم، وحشدوا كل وسائلهم لإرساخها في الأذهان، فما تركوا وسيلة لإثبات أن التَّشيُّع فارسي شكلاً ومضموناً إلا أخذوا بها.

ومن البداهة القول إنّ هناك مفاهيم معينة بالحضارة الفارسيَّة انتقلت إلى التَّشيُّع بمعناه الاصطلاحي، عن طريق من اعتنق التَّشيُّع من الفرس، ولم يستوعب التَّشيُّع كل أبعادهم، فجاء من تصور هذه المعتقدات جزءاً من ماهية التَّشيُّع، وبقيت هكذا يتداولها خلف عن سلف. وهذا الفرض قد صرح به أكثر من باحث.

الأسباب التي أدت إلى النفرة بين القوميّتين العربيَّة والفارسيَّة

١ ـ إنّ الفرس ما كانوا يفرقون بين الإسلام والعروبة، وحيث إنّ الإسلام قضى على دولتهم واجتاحهم، فإنهم بعد إسلامهم كانوا ينزعون لاسترداد مجدهم بأسلوبين: أحدهما سليم إيجابي، والآخر سلبي. حتّى إذا جاء دور الأمويين استعان الحكام بهم لتنظيم شؤون الدَّولة نظراً لخلفيتهم الحضارية، وللاستعانة بهم أحياناً لدعم جناح مقابل جناح، ولاستيلاء جماعة منهم على مناصب مهمة في العهدين، وهذا ما مكنهم من فرض نفوذهم. ذلك كله أدى إلى احتكاك شديد بين العرب والفرس، إذ رأى العرب أنّهم حملة الإسلام، والسبب في هداية الأمم، وهم العمد الذي قام الإسلام عليه فلماذا يزاحمهم غيرهم، ويقدم عليهم، ويلمع نجمه، ويحتل مناصب كبيرة؟! ورأى الفرس أنّهم أبناء حضارة عريقة، وأنهم أكثر علماً ودراية بسياسة العرب، وإدارة شؤون الحكم، فلماذا يقدم عليهم من لا يملك هذه المؤهلات؟! فأدى ذلك كله للاحتكاك، ونجمت عنه ظاهرة الشعوبية، وترك خزيناً كبيراً من الحقد في تاريخ القوميتين، كما أدى إلى مواقف سلبية متبادلة.

٢ ـ إنّ فتح هذه الثغرة التي دخل منها الفرس أدّى إلى دخول عناصر غير عربيَّة أخرى مثل الترك وغيرهم، مما كان له بعد ذلك آثاره السلبية الفظيعة. وقد كسر النطاق هذا بالفرس لأنهم أول من فتح هذا الباب وأدّى إلى تدمير الخلافة بعد ذلك.

٣ ـ لعب الاستعمار دوراً بارزاً فيما خلقه من النفخ بالأبواق التي يحسن صنعها، وذلك لتحقيق مصالحه عن طريق فتح أمثال هذه الفجوات، واختلاق خصائص للجنسين، زعم أنها تتصادم بعضها ببعض، وآراء لا تتلاقى. وتأثر بهذه الآراء فريق من هؤلاء، وفريق من هؤلاء، ممن عاش على موائد المستشرقين، ولم يتفطن إلى أهدافهم، وغرته الصبغة العلميَّة الظاهرية في أمثال هذه المزاعم، فنسج على منوال هؤلاء، وكان صدى لهم، وسلاحاً بأيديهم، لضرب أبناء دينه، وهدم عقيدته. حتّى خلقت من ذلك تركة كبيرة تحتاج إلى جهد كبير لإزالة هذا التراكم.

إنّ أسباب الكره استُغلت ليُنتزع منها، كما ذكرتُ، سبب من الأسباب التي تبغض التَّشيُّع، وتنفر النفوس منه. ولذلك لا نرى هذه التهمة عند أوائل السنّة، وأسلافهم، في ما قدّموه من قوائم الأسباب التي ينعت بها التَّشيُّع، لأنّ أسبابها لم تكن قائمة آنذاك، ومن الغريب أنّ الألسن السليطة التي تشتم الشّيعة هي ألسنة السنّة الفرس كما سيرد ذلك قريباً. إن أصحاب الغرض الأصلي في الضرب على هذا الوتر كثيرون، ومن أكثرهم حماسة في ذلك المستشرقون وتلاميذهم، إذ يستهدف المستشرقون مصالح لا تخفى، ويضرب تلاميذهم على الطبول نفسها، ولمختلف الغايات والأهداف، بالإضافة إلى من يهتز على هذا الإيقاع، وإليك آراء بعضهم:

١ ـ المستشرق دوزي: لقد قرر المستشرق دوزي أن أصل المذهب الشيعي نزعة فارسيَّة، وذلك لأنّ العرب تدين بالحرية، والفرس تدين بالملك والوراثة، ولا يعرفون معنى الانتخاب. ولما كان النبي ﷺ قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، ولم يترك ولداً، فعلي أولى بالخلافة من بعده.

٢ ـ المستشرق فان فلوتن: ذهب هذا المستشرق إلى الرأي نفسه في كتابه «السيادة

العربيَّة»، ولكنه رجح أخذ الشّيعة من آراء اليهود أكثر من أخذهم من رأي الفرس وبمادئهم.

٣ ـ المستشرق براون قال إنه لم تعتنق نظرية الحق الإلهي بقوة كما اعتنقت في فارس، ولمّح إلى أخذ الشّيعة منهم.

٤ ـ المستشرق ولهوزن: إنّ هذا المستشرق أشار إلى فارسيَّة قسم كبير من الشّيعة ضمناً، إذ ذكر أنّ أكثر من نصف سكان الكوفة من الموالي، ولما كان معظمهم شيعة، فقسم كبير منهم من الفرس.

٥ ـ المستشرق بروكلمان الذي يقول: وحزب الشّيعة الذي أصبح فيما بعد ملتقى جميع النزعات المناوئة للعرب. واليوم لا يزال ضريح الحسين في كربلاء أقدس محجة عند الشّيعة، وبخاصة الفرس الذين ما برحوا يعتبرون الثواء الأخير في جواره غاية ما يطمعون فيه.

وإنّ مراجعة أي بحث للمستشرقين في هذا الموضوع يظهر منه أن كثيراً منهم يذهبون إلى هذا الرأي ولأسباب لا تخفى. وقد ربطوا بفارسيَّة التَّشيُّع أثراً آخر يكون بمنزلة النتيجة للسبب، وذلك الأثر هو أنّه لما كان أكثر الفرس شيعة وكانوا يسمّون بالموالي، ويرون أن العرب انتزعوا دولتهم منهم، ولما كانت الدَّولة الأموية يتجسد فيها المظهر العربيّ، فقد زحف عليها الموالي وأسقطوها، وأعلنوا بدلاً منها دولة العبّاسيّين التي دعمت الفرس، والتي زحف معها الفكر الشيعي فتغلغل أيّام العبّاسيّين.

ولكن من هم أئمة الشّيعة؟

إنّ أئمة الشّيعة الاثني عشر ابتداء من الإمام عليّ ﷺ، حتّى الإمام الثّاني عشر مُحمَّد بن الحسن ﷺ، الذين تعتبرهم الشّيعة الامتداد الطبيعي للنبوة، هم سادة العرب، ومن صميمهم، وبيت هاشم ـ كما هو معروف ـ أشرف البيوتات العربيَّة فلا حاجة للإفاضة بذلك، وهم:

١ ـ عليّ بن أبي طالب «أمير المؤمنين».

٢ ـ الحسن بن عليّ «السبط».

٣ ـ الحسين بن علي «سيد الشهداء».

٤ ـ عليّ بن الحسين «زين العابدين».

٥ ـ مُحمَّد بن عليّ «الباقر».

٦ ـ جعفر بن مُحمَّد «الصّادق».

٧ ـ موسى بن جعفر «الكاظم».

٨ ـ عليّ بن موسى «الرضا».

٩ ـ مُحمَّد بن عليّ «الجواد».

١٠ـ عليّ بن مُحمَّد «الهادي».

١١ـ الحسن بن عليّ «العسكري».

١٢ـ مُحمَّد بن الحسن «المهديّ المنتظر عجل الله فرجه الشَّريف».

وموضوع العصمة موضوع مهم في الفكر الشيعي خاصة، والإسلاميّ عامة. فالعصمة لغة هي المنع ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٤٣]. أمّا في الاصطلاح الكلامي فالعصمة: لطف يفعله الله تعالى بالمكلف لا يكون معه داع إلى ترك الطاعة وارتكاب المعصية مع قدرته على ذلك.

وقد رمي التَّشيُّع بالشعوبية وهي لغوياً: جمع شعوبي نسبة للشعب، وقد تطلق ويراد بها النزعة العدائية للعرب، وهي بالإطلاق الثّاني مصدر صناعي، والشعوبي في إطلاق آخر هو الذي يسوّي بين العربيّ وغيره ولا يفضل العربيّ، وقد اشتق هذا الاسم من الآية الكريمة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، وذلك لأنّ المسلمين من غير العرب دعوا إلى التسوية، وكانت هذه الآية من شعاراتهم، ومن شعاراتهم الحديث النبوي الشَّريف: «**لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي كلكم لآدم وآدم من تراب**». ثم توسع العرب فأطلقوا لفظ الشعوبي على من

يحقّر العرب، وتوسعوا بعد ذلك فأطلقوه على الزنديق والملحد، معتبرين الزندقة والإلحاد مظهراً ينم عن كره العرب لأنه كره لدينهم. ثم أطلق بعد ذلك على الموالي.

ومن الحق أن يشار إلى أنّ فعل العرب هذا بالموالي هو ردة فعل لما كان يعامل به العرب من جانب الروم والفرس، ونتساءل ما هي علاقة الشعوبية بالتَّشيُّع؟ وما هو منشأ رمي التَّشيُّع بالشعوبية الأمر الذي دفع الدكتور أحمد أمين إلى القول: وأمّا التَّشيُّع فقد كان عشّ الشعوبية الذي يأوون إليه وستارهم الذي يتسترون به.

إن رمي التَّشيُّع بالشعوبية أمر يدعو للاستغراب، فليس هناك أي علاقة بين الشعوبية والتَّشيُّع، وسنحاول استقصاء الأمور التي تكون علامة أو منشأ للشعوبية لنرى أين مكان الشّيعة من هذه الأمور، ومن ثم ما هي قيمة هذه التهمة:

١ ـ الأصل غير العربيّ: لم يكن الشّيعة الرواد والذين يلونهم من الموالي أو من أي عنصر غير العنصر العربيّ، وقد سبقت الإشارة إليه على نحو مفصّل.

٢ ـ مواقف الشّيعة إزاء العروبة: لقد وقف مفكرو الشّيعة إزاء العروبة والعرب، موقفاً جليلاً في تكريم العرب والفكر العربيّ والإشادة باسهامهما في خدمة الشريعة، مبرهنين على أن الله تعالى كرم العرب بحملهم للرسالة، وجعل لغة القرآن الكريم لغتهم، واعتبر أرضهم مهداً لانطلاق الدعوة، والذود عن حياضها. وقد شرحنا موقفهم من اللُّغة وعروبة الخليفة وغير ذلك مفصلاً.

٣ ـ موقفهم من حضارة العرب: لم يكن للشيعة موقف سلبي إزاء حضارة العرب، بل العكس، فالشّيعة هم الروّاد الأوائل في خدمة الحضارة العربيَّة في مختلف أبعادها[1].

ويقصد بطائفة الشّيعة الإماميَّة الاثني عشرية في هذا البحث تلك التي يعتقد أتباعها بخلافة علي، وبقية أئمة أهل البيت الاثني عشر بعد الرسول ﷺ، وأمّا ما

---

(١) الدُّكتور أحمد الوائليّ، «هوية التَّشيُّع»، دار الكتبي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطَّبعة الثَّالثة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

اندرج تحت اسم الشّيعة من طوائف تقول بألوهية عليّ أو بنبوته أو غير ذلك من الطوائف، فإنّ الشّيعة منها براء.

والإمامة أو الخلافة تعني القيادة، وقد أصبحت مصطلحاً لقيادة المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ، والتي لا يمكن أحداً أن ينكرها بهذا المفهوم، ذلك أن القيادة مطلب فطري لأية جماعة، وقد كان اختلاف المسلمين من السنّة والشّيعة على طريقة تعيين الإمام أو الخليفة والدور الذي يقوم به، وهو يعد من أعظم الاختلافات بينهم على الإطلاق، وأن باقي الاختلافات ما هي إلا نتيجة طبيعية لهذا الاختلاف الكبير، ذلك أن الإمامة، كما يراها الشّيعة، نص من الرسول ﷺ ومختصة بالأئمة الاثني عشر من أهل البيت ﷺ، وأن معرفة أحكام الإسلام بعد رحيل الرسول ﷺ تكون بالرجوع إلى هؤلاء الأئمة، أو إلى الصحيح مما روي عنهم، وإذا تعارض قولهم مع قول غيرهم فإنه يجب الأخذ بقولهم، بوصفهم الخزانة الأمينة لسنّة المصطفى ﷺ، وأمّا الإمامة عند أهل السنّة فإنهم قالوا: إنها بالشورى، ولكنهم لا يمانعون أن تكون بنص من الخليفة السابق إلى اللاحق، كما في حالة الخليفة أبو بكر ﷺ الذي نص على خلافة عمر ﷺ، وكذلك يجوزون أن تؤخذ الخلافة بالقهر وغلبة السيف كما في حالة الخلافة الأموية والعبّاسيَّة والعثمانيَّة. وأما معرفة أحكام الإسلام عندهم فإنها تكون بالرجوع إلى الصحيح مما روي عن طريق الصحابة من غير تفريق بينهم، إذ اعتبروا جميع الصحابة عدولاً وثقات برغم أن قسماً كبيراً منهم تورط في معركتي الجمل وصفين، وقد أعملوا القتل بعضهم ببعض في تلك المواقع، وغيرها من الحوادث التي تجعل عدالة كثير منهم في محل شك وتساؤل.

ويرى أسعد وحيد القاسم في مؤلفه «حقيقة الشّيعة الإثني عشرية»، أنّ هناك أدلة في إثبات إمامة أهل البيت، واستخلاف النبي لعلي بن أبي طالب ﷺ. ويثبت في مؤلفه المذكور بعض النصوص التي يستخدمها كأدلة لإثبات إمامة أهل البيت ﷺ.

ويروي مسلم في صحيحه عن أهل البيت، بسنده عن صفية بنت شيبة قالت:

«قالت عائشة: خرج رسول الله ﷺ وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن عليّ فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليّ فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ومن صحيح مسلم أيضاً: «. . . ولما نزلت هذه الآية ـ ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] ـ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلي». فمن الحديثين السابقين يتبين أن أهل البيت في عهد النبي ﷺ هم: عليّ وفاطمة وابناهما. وفي حديث الثقلين الذي رواه مسلم وأحمد وغيرهما: «. . . . **يا أيها الناس إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي**». يظهر أنّ المقصودين في ذلك يجب التمسك بهم، فإذا فرضنا جدلاً أن نساء النبي ﷺ هن المقصودات، أو هن في عداد المقصودين في الحديث، فبأي صورة من الصور سيتمسك بهن المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ؟ ويجب مراعاة أنهن قد أمرن بالتزام بيوتهن. في الإجابة عن هذا السؤال، فضلاً عن أنهن وجدن جميعاً في عصر واحد، وإذا قيل إنّ التمسك بهن يكون بالأخذ مما روي عنهن من أحاديث، فنقول: إنه وجد منهن من لم تروِ ولو حديثاً واحداً. إنّ الرجس المقصود في الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ يعني في اللُّغة القذر وهو للدلالة على الإثم، والطهارة في اللُّغة تعني النظافة، وهي للدلالة هنا على التقوى. فالمراد من إذهابه سبحانه وتعالى الرجس عنهم هو تبرئتهم وتنزيههم عن الأمور الموجبة للنقص فيهم، وأي ذنب مهما صغر فإنه موجب في نقص مقترفيه، وهذا يعني أن الله أراد تطهير أهل البيت من كل الذنوب، صغيرها وكبيرها، وما ذاك إلا العصمة والتطهير. وأمّا إذا قيل إنّ المراد بالتطهير في هذه الآية هو مجرد التقوى الدِّينيّ بالاجتناب عن النواهي والامتثال إلى الأوامر، فإن ذلك مردود لأن التطهير بهذا المعنى ليس مختصاً بأهل البيت، وإنما هو لعمومه لجميع المسلمين المكلفين بأحكام الدِّين كقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

الأدلة في إثبات عدد الأئمة (خلفاء رسول الله ﷺ)

لقد أخبر المصطفى ﷺ أن الأئمة أو الخلفاء من بعده هم من قريش وأن عددهم، اثنا عشر، وأخرج البخاري في صحيحه بسنده عن جابر بن سمرة: «قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكون اثنا عشر أميراً، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي إنه قال: كلهم من قريش».

وفي ما يأتي، شواهد إضافية على استخلاف علي عليه السلام:

في صحيح الترمذي، وبسنده عن عمران بن حصين، قال: «بعث رسول الله ﷺ جيشاً، واستعمل عليهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فمضى في السرية فأصاب جارية، فأنكروا عليه، وتعاقد أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ على إخبار النبي ﷺ فقال ﷺ والغضب يعرف في وجهه: «ما تريدون من علي؟ إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي».

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥]، حيث ذكر أغلب المفسرين من أهل السنّة أنها نزلت في عليّ عندما تصدق بخاتمه لمسكين جاءه وهو في ركوعه أثناء تأديته للصلاة.

وفي صحيح البخاري، عن مصعب بن سعد عن أبيه: «أن الرسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً عليه السلام فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي»، ويدل هذا الحديث على أنّ علياً عليه السلام، له جميع المناصب التي كان يحتلها هارون عليه السلام في بني إسرائيل ـ باستثناء النبوة ـ، والتي بينها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٠]، حيث يظهر في هذه الآيات أن هارون عليه السلام، كان وزيراً لموسى عليه السلام، ومعاونه الخاص، وشريكه في قيادة الأمة. وما يؤكد استحقاق عليّ عليه السلام لهذه المنزلة الرفيعة باستخلافه على الأمة، أنه كان الأعلم بين جميع الصحابة، بدليل ما يرويه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن ابن عبّاس قال: «قال عمر رضي الله عنه»: «أقرؤنا أبي، وأقضانا علي عليه السلام». ذلك أن الأقضى هو الأعلم بالأحكام والقوانين كما لا يخفى.

ويكفي لإثبات أعلميته بين جميع الصحابة أنه كان باب مدينة علم رسول الله ﷺ وحكمته، ففي مستدرك الصحيحين بسنده عن ابن عبّاس، قال رسول الله ﷺ: **«أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب»**. وفي صحيح الترمذي قال رسول الله ﷺ: **«أنا مدينة الحكمة وعلي بابها»**. وفي مستدرك الصحيحين، قال رسول الله ﷺ لعلي: **«أنت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه من بعدي»**. بل إنّ رسول الله ﷺ، قد جعل كره عليّ علامة من علامات النفاق، كما يظهر ذلك من الرواية التي أخرجها مسلم في صحيحه بالسند عن عليّ عليه السلام قال: «والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمّي ﷺ إلى أن لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق وعلى الأمة أن تختار الأعلم والأكثر تميّزاً ليكون قائداً لها؟ فقد بيّنّا في ما مضى أن علياً عليه السلام كان الأعلم بين جميع الصحابة، إذ كانوا يرجعون إليه إذا ما واجهتهم معضلة دينيّة معقدة، ومثال ذلك ما أخرجه أبو داود بسنده عن ابن عبّاس قال: «أتى عمر بمجنونة قد زنت فاستشار فيها أناساً، فأمر بها عمر أن ترجم، فمر بها عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال: ما شأن هذه؟ قالوا: مجنونة بني فلان زنت، فأمر بها أن ترجم، قال، فقال: ارجعوا بها، ثم أتاه فقال: يا عمر، أما علمت أن القلم قد رفع عن ثلاثة، عن المجنون حتّى يبرأ، وعن النائم حق يستيقظ، وعن الصبي حتّى يعقل؟قال: بلى، قال: فما بال هذه ترجم؟ قال: لا شيء، قال: فأرسلها، قال: فجعل عمر يكبر». وأخرج البخاري أيضاً جزءاً من الحادثة في صحيحه.

بالإضافة إلى ذلك، فقد عرف الإمام عليّ عليه السلام بإمام الزاهدين، واشتهر بشجاعته وبطولاته الخارقة، فقد كان أول فدائي في الإسلام، وكان له في كل معركة من معارك الإسلام مع الرسول الله ﷺ الدور الحاسم، ففي بدر قتل بسيفه «ذو الفقار» ثلاثين صنديداً من صناديد قريش، وفي أحد وحنين وقف ذلك الموقف التّاريخيّ مستميتاً يدافع عن رسول الله ﷺ بعد فرار الغالبية العظمى من الصحابة، وفي الخندق تصدّى لمبارزة عملاق المشركين عمرو بن عبد ود العامري وأجهز عليه، في الوقت الذي لم يجرؤ أي من باقي الصحابة على الخروج إليه، برغم أن رسول الله ﷺ، دعاهم لذلك ثلاث مرات، قبل أن يسمح لعلي عليه السلام بالقيام بذلك، وقد كان صغير السن مقارنة بمعظم الصحابة، وفي خيبر إذ فتح الله على يديه باب

الحصن، بعد أن استعصى على المسلمين يومذاك، وقد عجز عن فتحه جمع كبير من الصحابة مجتمعين. وتميز أيضاً من باقي الصحابة بأنه لم تدنسه الجاهلية بأوثانها، وتلقى تربيته الفريدة على يد معلم البشرية الأول مُحمَّد ﷺ، ولم يفارقه لحظة طوال حياته حتّى فارق الدنيا وهو بين يديه، فكان طوال حياته يتلقى العلم والحكمة من رسول الله ﷺ، فاستحق بجدارة أن يكون باب مدينة علم رسول الله ﷺ وحكمته وأخاه. فقد روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عمر قال: «آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، فجاء عليّ عليه السلام تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله، آخيت بين أصحابك، ولم تواخ بيني وبين أحد، فقال رسول الله ﷺ: أنت أخي في الدنيا والآخرة.

وحتى أن رسول الله ﷺ اعتبر عليّاً عليه السلام منه كما روى البخاري: «قال النبي ﷺ لعلي: أنت مني وأنا منك». وتميز أيضاً من باقي الصحابة بأنه كان الأكثر فضائل، كما أخرج ذلك الحاكم في مستدركه، نقلاً عن أحمد بن حنبل بقوله: «ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب عليه السلام».

وفي كنز العمال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني أن أزوج فاطمة من علي»، وكان ذلك بعد أن رفض تزويجها لعدد من الصحابة تقدموا لطلبها في محاولة لنيل هذا الشرف العظيم بالزواج من بضعة رسول الله ﷺ. وسيدة نساء المؤمنين وأهل الجنة والتي يغضب الله لغضبها، وقد صدق من قال: «لو لم يخلق عليّ عليه السلام ما كان لفاطمة كفوء». وبعد كل ذلك، فإنه لو كان اختيار الخليفة موكولاً إلى الناس، فإن عليّاً كان أكثر الصحابة تميّزاً، ومن ثم أكثرهم لياقة واستحقاقاً بالخلافة.

والسؤال هو: إذا كانت النصوص السابقة تدلّ حقّاً على إمامة أهل البيت عليهم السلام، فلماذا آلت الخلافة إلى غيرهم؟ ألم يكن الصحابة يتبعون رسول الله ﷺ في كل ما يأمرهم به؟

وفي المحاولة للإجابة عن ذلك، نورد بعض الحوادث التّاريخية المهمة في

صدر الإسلام، والتي كان لها الأثر الأكبر في تغير مسار التّاريخ الإسلاميّ، ومنها:

١ - منع بعض الصحابة رسول الله ﷺ من كتابته للوصية.

٢ - تخلف بعض الصحابة عن بعثة أسامة وطعنهم في إمارته.

٣ - أحداث السقيفة وبيعة أبي بكر رضي الله عنه.

٤ - استخلاف عمر رضي الله عنه.

٥ - استخلاف عثمان رضي الله عنه.

٦ - موقعة الجمل وخروج أم المؤمنين.

٧ - موقعة صفين وتمرد معاوية.

٨ - استشهاد الإمام عليّ عليه السلام.

٩ - معاهدة الصلح واستشهاد الإمام الحسن عليه السلام.

١٠- ثورة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام.

استشهاد الإمام عليّ عليه السلام

كانت آخر موقعة خاضها الإمام عليّ عليه السلام هي موقعة النهروان، حيث قاتل المجموعة التي فرضت التحكيم عليه في صفين، ولكنها ندمت بعد عدة أيام، فنكثت عهدها وخرجت من بيعة الإمام، وقد عرفوا لاحقاً باسم «الخوارج» أو «المارقين»، وقد انتصر عليهم الإمام، وكان يتهيّأ لاستئناف قتال المتمردين في الشّام بعد أن فشل التحكيم عند اللقاء بين الحكمين، بَيْدَ أنّ الإمام عليه السلام استشهد على يد أحد أفراد الخوارج، وهو «عبد الرحمن بن ملجم» عندما طعن الإمام بسيف وهو في سجوده، عند صلاة الفجر في مسجد الكوفة، صبيحة اليوم التّاسع عشر من رمضان، سنة أربعين للهجرة، بعد خمسة أعوام من الحكم. وقد بقي الإمام يعاني علّته ثلاثة أيّام، عهد خلالها بالإمامة إلى ولده الحسن السبط، ليمارس بعده مسؤولياته في قيادة الأمة. وهذا الاستخلاف لم يكن لأنّ الحسن كان

ابناً لعلي عليه السلام، أو أنه كان الأصلح للخلافة بنظره، وإنّما عملاً بأمر الله تعالى الذي اختار خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الاثني عشر ـ كما مرّ سابقاً ـ حيث كان الإمام الحسن ثانيهم.

معاهدة الصلح واستشهاد الإمام الحسن

بعد استشهاد الإمام عليّ عليه السلام، اعتلى الإمام الحسن المنبر، ونهض أهل الكوفة وبايعوه خليفة للنبي صلى الله عليه وسلم، وإماماً للأمة، إلاّ أنّ ذلك لم يدم سوى ستة أشهر، فعندما وصل الشّام نبأ استشهاد الإمام عليّ عليه السلام، تحرك معاوية بجيش كبير نحو الكوفة ليأخذ بيده زمام المسلمين، ويجبر الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام، على الاستسلام. ولم يجد الإمام الحسن مناصاً سوى المسالمة، وعقد ميثاق صلح مع معاوية.

وأما الأسباب التي فرضت عليه عقد مثل هذا الصلح فقد كانت تفكّك جيشه ووضع العراق الداخلي المضطرب من جهة، والإمبراطورية الرومانية التي كانت تتحيّن الفرصة لضرب الإسلام وقد تأهّبت بجيش عظيم لحرب المسلمين من جهة أخرى، مما يؤكد أن الحرب لو نشبت بين معاوية والإمام الحسن، في ظل هذه الظروف، لكان المنتصر فيها إمبراطورية الروم وليس الإمام الحسن ولا معاوية.

وهكذا، فإنّ الإمام الحسن بقبوله السّلام قد أزال خطراً كبيراً كان يهدد الإسلام، أمّا بنود معاهدة الصلح فكانت:

١ ـ يسلم الحسن بن عليّ عليه السلام الحكومة وأزمة الأمور إلى معاوية، شرط أن يعمل معاوية وفق مبادئ القرآن وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢ ـ تكون الخلافة بعد موت معاوية حقّاً خاصّاً بالإمام الحسن وإذا حدث له حادثة فإنّ الخلافة ستكون لأخيه الإمام الحسين عليه السلام.

٣ ـ تمنع الشتائم وشتى الإساءات ضد الإمام عليّ عليه السلام سواء على المنابر أو غيرها.

٤ ـ ينفق مبلغ خمسة ملايين درهم الموجودة في بيت المال في الكوفة تحت إشراف الإمام الحسن، ويجب على معاوية أن يرسل سنويّاً مليون درهم من

الخراج إلى الإمام الحسن، ليوزعها على عوائل أولئك الذين استشهدوا في معركتي الجمل وصفين إلى جانب الإمام عليّ عليه السلام.

٥ ـ يتعهد معاوية أن يدع الناس قاطبة، من أي جنس وعنصر، في منأى من الملاحقة والأذى، ويتعهد أيضاً أن ينفذ بنود هذا الصلح بدقة ويجعل الملة عليه شهيداً.

إلاّ أنّ الإمام الحسن عليه السلام استشهد في سنة ٥٠هـ ، بعد أن دست له زوجته (جعدة بنت الأشعث بن القيس) السم، وهي كانت تنسب إلى إحدى الأسر المخالفة للعلويين. وقد حرّضها معاوية على اقتراف هذه الجريمة السوداء بإرساله إليها مائة ألف درهم، ووعده إيّاها بأن يزوّجها بابنه يزيد إذا دسّت السم للحسن عليه السلام. وقد فرح معاوية فرحاً كبيراً عندما علم باستشهاد الإمام الحسن عليه السلام، إذ كان يرى أن أكبر عقبة بوجه مآربه ـ وخصوصاً توطيد الحكم للأسرة الأموية ـ قد زالت من الوجود. وهكذا فقد تمّ لمعاوية بعد ذلك ما أراد، وتمكن من تنصيب ابنه المراهق الخليع يزيد على الأمة قهراً.

فأين هذا من اعتقاد أهل السُّنَّة بأنّ الخلافة هي بالشورى؟ أوَلم يرفضوا النصوص التي تدل على استخلاف أئمة أهل البيت بحجة أن الخلافة هي بالشورى؟ أوَليس يدل هذا على أنّ الخلافة ـ على رأيهم ـ إن لم تكن بالشورى فهي غير شرعية؟ ولكن لماذا اعتبروا خلافة يزيد شرعية؟ وكيف قبلوا تسميته بأمير المؤمنين؟

وتأمل في ما يأتي لترى شيئاً من صفحات تاريخنا الإسلاميّ السوداء، وسرداً لقبس من قبسات حياة «أمير المؤمنين» يزيد بن معاوية بن أبي سفيان!

ثورة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين

بعد وفاة الإمام الحسن عليه السلام، سنة خمسين للهجرة، شرعت الشّيعة في العراق تراسل الحسين عليه السلام، وطلبت منه أن يعزل يزيد بن معاوية عن إمرة المسلمين، ولكن الحسين عليه السلام ذكر في جوابه إليهم أنّ له مع معاوية عهداً وميثاقاً لا يستطيع نقضهما.

أمّا معاوية فقد كان يقوم طوال العشرين سنة من حكمه بتهيئة وتوطيد الخلافة لابنه «الماجن» يزيد، ليجعل منه أميراً للمؤمنين، مخالفاً بذلك ليس معاهدته مع الإمام الحسن فحسب، والتي عاهد الله عليها، وإنما خالف ما عليه أهل السنة من اعتقاد بأن اختيار الخليفة يكون بالشورى، واشتراط الصلاح والتقوى فيه، لترى مدى الجرم الذي اقترفه معاوية بحق الإسلام والمسلمين، والذي تبعه على منهجه بقية خلفاء الأمويين والعبّاسيّين والعثمانيين، والذين يصعب تفريق غالبيتهم العظمى من حكام المسلمين الفسقة الفجرة في عصرنا، وبعد موت معاوية سنة ستين للهجرة، تربع يزيد على سدة الحكم، فكان بلاطه بؤرة المجون والإثم. فهو، وباعتراف جميع فرق المسلمين، كان يحتسي الخمور علانية، ويشرب حتّى الثمالة في السهرات الحافلة.

ومن أقواله المأثورة أشعار ضحلة:

شغلتني الديدان عن صوت الأذان   وتعوّضت عن الحور عجوزاً في الدنان

ولا غرابة في ذلك، فيزيد تربى على يد مربية مسيحيَّة، وكان كما يصفه المؤرّخون شاباً أهوج، خليعاً، مستبداً، مترفاً، ماجناً، قصير النّظر، وفاقداً للحيطة. وقد روي عنه أيضاً: أنّه صلى مرّة بالمسلمين صلاة الجمعة يوم أربعاء، وصلّى بهم الفجر أربع ركعات، بعد أن كان شارباً حتّى الثمالة، وغير ذلك الكثير الكثير ما ليس في هدفنا تبيانه، وإنّما كان ذكرنا لتلك الانتهاكات ما هو إلا وسيلة لإلقاء الضوء على الظروف التي رأى فيها الإمام الحسين وجوب الانتفاضة والثورة، مستهدفاً إحياء الإسلام والسنن الدِّينيَّة، بعد أن أصبحت مهددة بالمسخ والفناء، ولم يكن هدف الإمام الحسين ﷺ في ثورته الاستيلاء على الخلافة والسلطة، فهو يعلم أنّ حظوظ بني أمية في المحافظة عليها أوفر، خصوصاً بعد نكوص أهل العراق ورهبتهم من الأمويين.

ويصرح الإمام الحسين ﷺ في إحدى خطبه بالقرب من كربلاء عن سبب انتفاضته بقوله: «أيها الناس، من رأى إماماً جائراً يحلل حرمات الله، وينقض عهد الله من بعد ميثاقه، ويخالف سنّة نبيّه، ويحكم بين عباد الله بالإثم والجور، ولم ينكر ذلك، كان حقّاً على الله أن يكبه في النار».

وكذلك قوله: «أيها الناس، إنهم أطاعوا الشيطان، وعصوا الرحمن، وأفسدوا في الأرض، وعطلوا السنن، واستأثروا ببيت أموال المسلمين، وحلّلوا حرمات الله، وحرّموا ما أحله الله، وأنا أحق الناس بالإنكار عليهم». وعندما علم الإمام الحسين بالنكوص والارتداد الذي حصل في الكوفة، جمع أصحابه وأهل بيته الذين كانوا بصحبته وصارحهم قائلاً: «قد خذلنا شيعتنا، فمن أحب أن ينصرف، فلينصرف، فليس عليه منّا ذمام فتفرقوا من حوله يميناً وشمالاً، حتّى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من مكة والمدينة».

ولكن الإمام الحسين عليه السلام بقي مصراً على قراره وبالعزيمة نفسها التي انطلق بها من مكة المكرمة، وليس معه سوى أصحابه وإخوته وأبنائه وأبناء عمومته، ولا يتجاوز عددهم ثمانية وسبعين، وقد كان لسان حاله يقول كما وصف أحد الشعراء:

«إن كان دين مُحمَّدٍ لم يستقمْ إلاّ بقتلي يا سيوفُ خذيني»

والتقى الجيش الذي أرسله والي الخليفة الأموي يزيد على الكوفة «عبيد الله بن زياد» بقيادة عمر بن سعد، وكان قوامه اثنين وثلاثين ألفاً كما في بعض الروايات. وكان طبيعيّاً أن تمكّن القوة جيش يزيد بن معاوية من قتل هذه الفئة القليلة العدد، وقد تجسدت في ذلك اليوم صورة مأساة أهل البيت ومظلوميتهم بأجلى صورها، وكأن يزيد بن معاوية، في هذه المذبحة، كان يدفع الأجر الذي سأله رسول الله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]. ولقد حدث التّاريخ عن مشاهد وصور مأسوية يصعب على أحد وصفها على حقيقتها. ومن ذلك مأساة طفل رضيع هو عبد الله بن الإمام الحسين، الذي حمله الإمام إلى المعسكر الأموي يطلب له الماء، بعد أن حالوا بين مخيم الحسين عليه السلام، وماء الفرات، وأخذ منهم العطش مأخذه. حمله يطلب له الماء وليحرك ضمائرهم ويثير إحساسهم الإنساني، فما كان منهم إلاّ أن صوّبوا سهماً نحو الرضيع فأردوه قتيلاً، واستمر تساقط الشهداء من أصحاب الحسين وأهل بيته عليهم السلام الواحد تلو الآخر. وكان الحسين آخر من استشهد في تلك المعركة الحاسمة، ولم يكتفوا بقتل سيد شباب أهل الجنة، بل احتزوا رأسه وفصلوه عن جسده، وحمل رأس الحسين ورؤوس أصحابه

هدايا يقتسمها القتلة، ويرفعونها متوجهين بها إلى يزيد بن معاوية في الشّام. والذي لا يزال يصرّ بعض المسلمين على تسميته أمير المؤمنين، فلا حول ولا قوة إلا بالله!

وبعد سرد كل هذه الأحداث التي تبين بوضوح الأهداف السامية التي قام الحسين بثورته من أجلها، والتي وصفها الداعية الإسلاميّ الكبير الدُّكتور عمر عبد الرحمن بقوله: «إن استشهاد الحسين أعظم ألف مرة من بقائه على قيد الحياة». إلا أنّه وجد أيضاً من ينتقص من قيمة هذه الثورة العظيمة لوقوعهم ضحيّة الإعلام الأموي المضلّل الذي حاول جاهداً تزوير التّاريخ، ولوقوعهم ضحيّة التعصب المذهبي المقيت، فيضطرون بذلك إلى هذا التحريف الشائن كقول (شيخ الإسلام) ابن تيمية مثلاً ما معناه: إنّ الإمام الحسين بثورته هذه، قد أحدث فتنة في أمة الإسلام بخروجه على طاعة ولي أمر المسلمين!

وإذا سألنا شيخ الإسلام عن خروج معاوية على طاعة الإمام عليّ عليه السلام، فإنه يرى أن ذلك كان فتنة بينهما، ولا ذنب لهما فيها، وهكذا بالنسبة لخروج عائشة رضي الله عنها أيضاً على الإمام عليّ عليه السلام. وما هذه إلاّ صورة من صور محاولات التزييف المكشوف في تاريخنا الإسلاميّ، وإلاّ فكيف نفسر تجاهل معظم أهل السنة لهذه المأساة التّاريخية، والتي يقتل فيها أبناء رسول الله ﷺ، بأبشع ما يكون القتل والتعذيب، وقد سار على نهج معاوية وابنه يزيد، سائر أبنائهم من ملوك بني أمية والعبّاس، في قمع أي حركة معارضة لسلطانهم، وخصوصاً آل البيت النبوي الذين كانوا ملاحقين دائماً بالاضطهاد والتشريد والقتل والتعذيب. ولم يقتصر هذا الظلم ضد آل البيت النبوي فحسب، فقد كان في عداد ضحايا الاستبداد الأموي من غير آل البيت عبد الله بن الزبير مثلاً، إذ سجل التّاريخ ذلك المشهد المأسوي في الحرم المكي عندما ذبح وسلخ ابن الزبير، ولم تشفع له قدسية هذا المكان فحتى الجاهلية كانت تقدّسه وتعظّمه، ولا تستبيح فيه دماء الوحش فضلاً عن البشر، ولم تشفع له الكعبة التي تعلق بستائرها عند حكام بني أمية؟ وهي التي رميت بالمنجنيق في عهد عبد الملك بن مروان الذي أطلق العنان ليد طاغيته الحجّاج، ليقتل ويذبح الناس بغير حق. وقد قال فيهما الحسن البصري: «لو لم تكن لعبد الملك سيئة سوى

الحجّاج لكفته» وقول عمر بن عبد العزيز ﷺ: «لو جاءت كل أمة بطاغيتها، وجئنا بالحجّاج لغلبناهم». فضلاً عمّا عرف من تمزيق الوليد بن عبد الملك لكتاب الله وغير ذلك الكثير الكثير، فهل تؤهّل هذه الأعمال صاحبها أن يكون مسلماً، فضلاً عن أن يكون خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين؟ لا شكّ أنّنا اليوم بحاجة إلى إعادة النّظر في تاريخنا الإسلاميّ وإمعان النّظر في كثير من الحوادث فيه واستنطاقها لما لها من ارتباط وثيق برسم معالم المذاهب الإسلاميَّة التي عليها المسلمون اليوم، ولما فيها ممّا يساعد على معرفة حقيقة هذه الطائفة أو تلك بعيداً عن الظلم والتجني.

فبسبب تلك الحوادث تفرّع المسلمون من الخط الإسلاميّ المُحمَّدي الأصيل، وأصبحوا بذلك طوائف وشيعاً متفرّقة، كل واحدة منها تزعم بأنها الطائفة الناجية، وليس لأحد في عصرنا أن ينتظر وحياً من السماء ليخبره باسم هذه الطائفة[1].

(١) أسعد وحيد القاسم، «حقيقة الشّيعة الاثني عشرية»، دار الزّهراء للطّباعة والنّشر.

الفصل الثالث

بدايات النفوذ الفاطميّ

الإخشيديّون ـ القرامطة ـ الحمدانيون

يندرج تاريخ طرابلس الشّام، خلال بدايات النفوذ الإسلاميّ الشيعي الفاطميّ، في سياق المناخ العام للحياة السّياسيَّة التي خيّمت على بلاد الشّام قبيل الفتح الفاطميّ. ومع أن الفاطميّين قد استطاعوا بسط سيطرتهم، وامتدّ سلطان نفوذهم، سجّل التاريخ أيضاً، أنهم برغم قوة شكيمتهم، واجهوا صعوبات كثيرة بسبب مواقف الأمراء العرب في بلاد الشّام. وقد تأثر سلباً النفوذ الفاطميّ في هذه المنطقة المشرقيّة من العالم الإسلاميّ، نتيجة عوامل التفسّخ الناتجة من بروز الكيانات المنفردة التي تحكمت بمواقف هؤلاء الأمراء. وقد خضعت طرابلس الشّام باعتبارها في قلب الخريطة الجغرافية لبلدان المشرق العربيّ لتلك المؤثرات التي وفدت عليها من هنا وهناك.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى الوقائع الجغرافية السّياسيَّة التي ساعدت على فرض تلك المؤثرات على مدينة طرابلس الشّام بفعل الموقع والانتماء.

لم تستفد مصر من ولاتها الذين حكموها منذ الفتح الإسلاميّ قدر ما استفادت من الفاطميّين، وذلك على جميع المستويات الاقتصادية والاجتماعيَّة والسّياسيَّة والعلميَّة. وإنّ بناء القاهرة والجامع الأزهر، لهما خير دليل على ذلك. ويحدّثنا التّاريخ عن نهضة واسعة في الحياة الفكرية والأدبيَّة في العصر الفاطميّ، فضلاً عن ازدهار العلوم الفلسفية والرياضيات والفلك والتنجيم والطب.

وهناك شهادات في تلك الحقبة المضيئة من التّاريخ العربيّ الإسلاميّ،

إحداها قول الدُّكتور مُحمَّد كامل حسين: «في العصر الفاطميّ نرى تطوراً جارفاً في الحياة الفكرية، ولا سيما في العلوم الفلسفية على اختلاف ألوانها وفنونها، إذ ازدهرت هذه العلوم ورعاها الخلفاء الفاطميّون.

بل كان هؤلاء الخلفاء من العلماء المبرّزين في بعض هذه العلوم، وخاصة في الإلهيات والفلك. وقد اهتمّ الفاطميّون برصد النُّجوم واهتموا بعلماء الرياضيات اهتماماً خاصاً. كما اهتموا بالشعر واتخذوه وسيلة من وسائل دعوتهم السّياسيَّة.

وكان الفاطميّون أساتذة في فن الدعاية، واتخذوا لها كل الوسائل الممكنة في عصرهم، وجنّدوا للدعاية كل من يفيدهم في هذا المضمار. ولا أكاد أعرف دولة من الدُّول الإسلاميَّة أقامت للشعراء هذا التمجيد، أو اهتمت بهم هذا الاهتمام، فلا غرو إذاً إن ازدهر الشعر المصريّ ازدهاراً لم يُعرف من قبل».

ويقول الدُّكتور عبد المنعم الماجد: «ويرجع الفضل إلى الفاطميّين في خلق أهمية مركز مصر الدولي للتجارة. إذ إنهم عرفوا مزايا الموقع الجغرافي لمصر في مفترق القارات، لتربط بين عالمين. ولكي يسهل الفاطميّون نقل التجارة بين الشّرق والغرب فتحوا القنال بين النيل والبحر الأحمر، وهو ما عرف في عهد المستنصر بالخليج الحاكمي نسبة إلى الحاكم بأمر الله».

وقد ذكر الرحالة ناصر خسرو عندما مرّ بمصر في تلك الفترة: «أنّ المصريّين كانوا في حالة حسنة جداً. وأنّه رأى أموالاً يملكها بعض المصريّين لو ذكرها أو وصفها لما صدّقه أحد. فهي لا تقع تحت تحديد أو حصر، وهي للنصارى والمسلمين على السواء».

وذكر أيضاً: «وقد رأيت الأمن والعدل فيما رأيت من بلاد العرب والعجم في أربعة مواضع: الأول بالدشت أيّام نشكر خان، والثّاني بالديلم أيّام أمير الأمراء جستان بن إبراهيم، والثّالث بمصر أيّام المستنصر بالله أمير المؤمنين، والرَّابع بطبس أيّام الأمير أبي الحسن بن مُحمَّد.

فلم أسمع على كثرة ما سافرت بهذه الجهات عن الأمن ولم أره».

لقد أصبحت مصر لأول مرة في التّاريخ مركز الحكم والتوجيه، وتحوّلت القاهرة إلى عاصمة للعالم الإسلاميّ، كما أصبحت منارة العلم وقبلة المتعلمين، وذلك بفضل الفاطميّين الشّيعة.

وكانت الدَّولة الفاطميَّة تمتد من أقصى المحيط الأطلسي إلى الفرات، وبلغت دعوتها إلى أقصى انتشارها، ووصل غناها إلى الذروة، وهكذا كان حال الدَّولة الفاطميَّة حين تسلمها المستنصر بالله الخليفة الثّامن من خلفاء الفاطميّين.

وكانت الدَّولة الفاطميَّة في خلافة الظاهر والد المستنصر، في منتهى الاستقرار والرفاهية، ولأجل ذلك مال الظاهر إلى الدعة والراحة، ولمّا جاء المستنصر ركن إلى هذا الحال.

وقد ازدهرت الحركة العمرانية في عهد الفاطميّين، فضلاً عن صناعة النسيج، واشتهرت مصر بصنع أنواع خاصة من النسيج.

وكانت الحكومة تقوم بكسوة موظفيها في الصيف والشتاء، وكسوة العامة من الفقراء والمحتاجين. وليست المواكب المترفة جداً، التي كانت تخرج في شوارع القاهرة، في المناسبات الدِّينيَّة: كعيد الفطر، والأضحى، وبداية رمضان، وكذلك في عيد ميلاد الخليفة، إلاّ دلالة واضحة على حالة الرخاء والسعة التي كانت تعيشها مصر في ذلك الحين.

وجميع أفراد الشعب كانوا يتأنقون لهذه المواكب، فيلبسون أروع الملابس التي كانت تصنع في دور الطرز المصريَّة، وغالبيتها مذهبة، يشملها زي مصريّ عام، ذو كميّن واسعين، وقد بلغت الناس غاية التأنق في عهد الظاهر.

وكان الخليفة العزيز يقول: أحبّ أن أرى النعم عند كلّ الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار، وأن يكون ذلك كله من عندي.

ويروي المؤرّخون الكثير عن عدل المستنصر، ورحمته بالناس، فقد كان يعطي المحتاج الدواء بالمجان، ويخالط الناس، ويسمع شكواهم، وقد أحبته الرعية حباً شديداً.

كذلك يروى أنّ النفقة على قافلة الحج في عهد المستنصر بلغت مائتي ألف دينار، ولم تبلغ هذه النفقة مثل ذلك في دولة من الدول، حيث كانت تشمل ثمن الطيب والشمع، والحماية والصدقة وأجرة ـ الجمال، ومعونة خدم القافلة ومن يسير معها من العسكر الذين بلغت نفقاتهم، في عهد المستنصر، ستين ألف دينار زيادة على مرتباتهم، أو ألف دينار في اليوم.

وقد أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة أو دار العلم، عام (٣٩٥هـ)، وزودها بالكتب من كل نوع في العلوم والآداب والعقائد. وكان الطلاب يفدون إليها من شتى الأقطار، فكانت أشبه بجامعة تتكوّن من بضع كليات. وكانت خزانة الكتب في زمن المستنصر لا نظير لها في جميع بلاد الإسلام، وهي تتكوّن من أربعين خزانة، تحوي قرابة مائتي ألف كتاب، وعدداً كبيراً من الكتّاب والنسّاخ. وبلغ عدد المساجد في مصر آنذاك ستة وثلاثين ألف مسجد في جميع المدن والقرى، ولكل مسجد يقع في حدود الدَّولة من الشّام إلى القيروان، نفقات يقدمها الخليفة المستنصر، من زيت وحصير وسجاجيد للصلاة ورواتب للقوام والفرّاشين والمؤذّنين وغيرهم.

واعتاد خلفاء الفاطميّين أن يقيموا في قصورهم الولائم الفاخرة في الأعياد لعامة الناس، فتقدّم لهم الفطرة، وهي حلوى من دقيق وفستق ولوز وبندق وتمر وزبيب وعسل، وتنشر كالجبل الشاهق على مائدة طويلة بالإيوان الكبير. وفي عيد الأضحى كان الخليفة ينحر بنفسه الأضاحي إيذاناً منه ببدء النحر، وكانت تنحر في فترة العيد ما يزيد على الألف رأس، توزّع لحومها على الموظفين وطلبة العلم والقائمين بشؤون الجوامع.

إن الدَّولة الفاطميَّة التي استقرت بمصر، كانت أوفرها بين الدُّول بهاءً وأبقاها أثراً، وما زال الجامع الأزهر غرس الدَّولة الفاطميَّة اليانع يقوم منذ ألف عام أثراً خالداً ورمزاً باهراً لهذا العصر الزّاهر، ولهذه الدَّولة المستنيرة العادلة. وربما كان العصر الفاطميّ بين العصور الإسلاميَّة الغابرة، أجدرها من هذه الناحية بالدرس والتمحيص، وأحفلها بالمواقف الشائقة، وأكثرها سحراً وفتنةً، وأبعثها إلى التأمل

والعطف، لأنّ الخلافة الفاطميَّة، برغم مما كان يحيق بأصولها وإمامها من الريب في نظر بعض المسلمين، فقد كانت بنظمها الطريفة، ورسومها الفخمة، وخلالها الباهرة، تنثر من حلوها فيضاً من العظمة والبهاء، وتطبع العصر بطابع عميق من روحها الباذخ بحسبما يحدثنا التّاريخ. وفي أيّام هذه الدَّولة أخذت أنوار الحضارة الإسلاميَّة تنبثق من هذه المدينة الزاهية على أرجاء الأرض. وأخذ الفن المصريّ الإسلاميّ يتألق في جميع نواحيه. وفي رعاية هذه الدَّولة وثبت العمارة الإسلاميَّة وثبة قوية حتّى قاربت الكمال، لأنّ خلفاءها تباروا في إنشاء المساجد الكبرى والحصون والقصور والمناظر والحدائق والبساتين. وفي هذا العصر انتشر الزخرف في واجهات المساجد وانتعش التصوير ونبغ المصورون وترقّت ودقّت صناعة الجصّ والأخشاب. وكانت أيّامهم كلّها أعياداً بما ابتكروه من حفلات، جمعت بين جلالة الملك وطرب الشعب وبهجته.

في ظل الحالة السّياسيَّة التي كانت سائدة في بلاد الشّام قبل الفتح الفاطميّ، وأرخت بظلالها على هذا القسم من العالم العربيّ الإسلاميّ، حرص الإخشيديّون أثناء ولايتهم على مصر على توطيد نفوذهم في ولاية الشّام التي تقلدوا حكمها، فلما علم مُحمَّد بن طغج الإخشيديّ أنّ مُحمَّد بن رائق الخزري، أمير الأمراء في بغداد، يطمح إلى ولاية الشّام، كتب إلى نائبه ببغداد يطلب إليه أن يستطلع رأي الخليفة في هذا الأمر، غير أنّ الخليفة العبّاسيّ لم يكن إذ ذاك لديه من النفوذ بحيث يستطيع أن يتخذ قراراً يلزم أحد الفريقين باتباعه، لذلك استقرّ رأي الإخشيديّ على إعداد العدة لمحاربة مُحمَّد بن رائق، فخرج على رأس جيشه في أوائل سنة ٣٢٨هـ، ودارت بينه وبين رائق معركة في العريش، وكان صلح على أن تكون طبرية وما في شمالها من البلاد لمُحمَّد بن رائق. وما لبث ابن رائق أن نقض هذا الصلح، وقصد الرملة في طريقه إلى مصر، واستأنف القتال بينه وبين الإخشيديّين، فلحقت الهزيمة في بداية الأمر بالإخشيديّين عند العريش، ثم أرسل الإخشيديّ جيشاً لمطاردة ابن رائق، غير أنه لم يتمكن من إحراز النصر عليه. ورأى مُحمَّد بن رائق رغم ذلك أن يسعى لمصالحته. وانتهى النزاع بينهما بعقد الصلح على أن يحكم ابن رائق الولايات الشّاميَّة شمالي الرملة، وعلى أن يدفع الإخشيديّ

إليه جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار. ومن المحتمل أن الإخشيديّ اضطرّ إلى قبول الصلح على هذه الصورة برغم ما أحرزه من نصر خشية أن تواصل الخلافة العبّاسيَّة الحملات عليه، ورغبة في إعداد نفسه لدرء الخطر الفاطميّ الذي كان يهدده من ناحية حدود مصر الغربية.

استطاع الإخشيد أن يعيد بلاد الشّام إلى حوزته من غير حرب بعد وفاة ابن رائق، وبذلك استقر حكمه في هذه البلاد وأصبح من القوة بحيث استطاع أن يحصل على تقليد في مطلع سنة ٣٣٣هـ من الخليفة المتقي بولاية مصر، وحق توريث إمارتها لأبنائه من بعده، كما أخذ تقليداً من الخليفة المستكفي في جمادى الآخرة من السنة نفسها، أقرّه فيه على ولاية مصر والشّام. ولم يحتفظ الإخشيديّ فترة طويلة بسلطانه على جميع بلاد الشّام، ويرجع السبب في ذلك إلى تطلع الحمدانيين إلى انتزاع هذه البلاد من أيدي الإخشيديّين. فلما أسندت ولاية حلب إلى أبي الفتح (عثمان بن سعيد الكلابي)، حقد عليه أهل بيته من الكلابيين، وراسلوا سيف الدَّولة بن حمدان ليسلموا إليه حلب. وكان سيف الدَّولة قد طلب من أخيه ناصر الدَّولة أن يوليه إحدى الولايات، فقال له ناصر الدَّولة: الشّام أمامك وما فيه أحد يمنعك منه. فلمّا وقف سيف الدَّولة على الخلاف القائم بين الكلابيين، وأيقن عجز أبي الفتح والي حلب عن مقاومته، سار في جيشه الصغير قاصداً حلب، فقابله إخوة أبي الفتح الكلابي عند نهر الفرات وأعلنوا ولاءهم له. علماً أنّ أبا الفتح نفسه ما لبث أن لقي سيف الدَّولة ودخل في طاعته، وبذلك تيسّر لسيف الدَّولة الاستيلاء على حلب وأصبح أميراً عليها منذ عام ٣٣٣هـ، وبدأ عمله بإقامة الخطبة للخليفة العبّاسيّ المستكفي، ولأخيه ناصر الدَّولة، ولنفسه.

ولمّا وصل إلى مُحمَّد بن طغج الإخشيديّ نبأ دخول سيف الدَّولة حلب وإقامته الخطبة للخليفة العبّاسي، كتب إلى الخليفة بذلك، فأرسل إليه وإلى ابنه (أونوجور) خلعاً دليلاً على تأييده له. على أنّ سيف الدَّولة ما لبث أن كشف عن نيّاته بعد أن استقرت له الأمور في حلب، فسار إلى حمص يريد دمشق، ولما بلغ الإخشيدي أن سيف الدولة عزم على بسط سلطانه على دمشق، أرسل إلى الشّام

جيشاً التقى سيف الدَّولة عند بلدة الرستن، فكان النصر حليف الحمدانيين، وتقهقر الجيش الإخشيدي إلى دمشق، ثم خرج منها قاصداً الرملة في طريق عودته إلى مصر، وسار سيف الدَّولة في إثر الجند المصريّين يريد دمشق، وكتب إلى أهلها كتاباً قرئ على منبر المسجد الأموي. وقد تضمن هذا الكتاب حرصه على صون أرواحهم والمحافظة على أموالهم.

استقرّ رأي مُحمَّد بن طغج الإخشيديّ بعد أن وصلته نسخة من كتاب سيف الدَّولة، على أن يسير بنفسه لمحاربته، فاستخلف على مصر ابنه (أونوجور) وسار على رأس جيش كبير إلى دمشق، والتقى الفريقان في (قنسرين)، وكان النصر في البداية حليف سيف الدَّولة، غير أنّ هذا النصر ما لبث أن انقلب إلى هزيمة، فدخل الإخشيد حلب حاضرة الحمدانيين واسترد دمشق. وبرغم انتصار الإخشيديّ، فإنه رأى أن يصالح الحمدانيين، وتم الصلح بين الأميرين في ربيع الأول سنة ٣٣٤هـ، على أن يكون لسيف الدَّولة، حلب وما يليها من بلاد الشّام شمالاً، وأن يكون للإخشيديّ دمشق وأعمالها، كما تضمن الصلح أن يدفع الإخشيديّ لسيف الدَّولة جزية سنوية، ومن المرجح أن الإخشيديّ سعى إلى عقد الصلح مع سيف الدَّولة لأنّه كان يعتقد أنّ انتصاره عليه لم يكن حاسماً، وأنّ الحرب بينهما ستظل قائمة إلى أن يتم النصر لسيف الدَّولة. أضف أنه كان على يقين من أنّ النزاع بينه وبين الحمدانيين على الشّام سينتهي بانتصارهم عليه، لأنّ هذا الإقليم يعدّ المجال الحيوي لاتساع سلطانهم، وفضلاً عن ذلك فإنّ الإخشيديّ كان يرمي من إبرامه صلحاً مع سيف الدَّولة على هذه الصورة أن يبقي الدَّولة الحمدانية حصناً منيعاً بينه وبين البيزنطيين، يكفيه مؤونة التعرض لهجومهم بين وقت وآخر. ولمّا خلت دمشق من حامية قوية تردّ غارة الحمدانيين إثر وفاة مُحمَّد بن طغج الإخشيديّ، وعودة جنده من الشّام إلى مصر، انتهز هذه الفرصة سيف الدَّولة الحمداني واتجه إليها بجيشه، فسقطت في يده بعد أن استسلم إليه حاكمها الإخشيديّ، ولم يكتف بذلك، بل عمد إلى مطالبة أهلها بودائع الإخشيديّ، فكاتبوا (كافوراً) يستدعونه من مصر، فجاءهم بصحبة سيده أونوجور، ثم دار القتال بين الفريقين، فكان النصر حليف المصريّين وتقهقر سيف الدَّولة إلى دمشق فحمص، حيث أعاد تنظيم

صفوفه، وجمع جيشاً كبيراً من الأعراب، هاجم به الجنود المصريّين شمالي دمشق، فلحقت به الهزيمة وطارده الإخشيديّون إلى حلب، فهرب إلى الرقة، ثم بدأت المفاوضات بين الحمدانيين والإخشيديّين، وانتهت إلى عقد معاهدة الصلح بالشروط نفسها التي كانت بين مُحمَّد الإخشيديّ وسيف الدَّولة ما عدا الجزية، فلم يقبل الإخشيديّون دفعها. وكان من نتائج هذا الصلح أن ساد الصَّفاء بين الحمدانيين والإخشيديّين.

لم يكن الحمدانيون هم الذين حاولوا وحدهم إضعاف نفوذ الإخشيديّين في بلاد الشّام، بل تعرضت البلاد أيضاً لغارات قرامطة بلاد البحرين، فقامت في عهد أميرهم أحمد بن أبي سعيد (٣٣٣ ـ ٣٥٩هـ) حملتان لغزو بلاد الشّام: الأولى عام ٣٥٣هـ. وتعرف بحملة طبرية. وقد تمكنت هذه الحملة، بمعاونة الحمدانيين، من إحراز النصر على الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيديّ الذي ولاّه الإخشيديون على هذه البلاد. أمّا الحملة الثّانية، فأغارت على بلاد الشّام سنة ٣٥٧هـ. وعجز الإخشيديّون عن صدّها، فسقطت الرملة في أيدي القرامطة، واضطرّ الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيديّ إلى الاتفاق معهم على أن يدفع لهم ثلاثماية ألف دينار كل سنة، وبذلك امتدّ نفوذ دولة القرامطة إلى بلاد الشّام في أواخر عهد الإخشيديّين.

وبعد سقوط الإخشيديّين ودخول الفاطميّين مصر، ظهر مذهب التَّشيُّع، وأذن في مساجد مصر الجامعة وغيرها: «حيّ على خير العمل».

وبدأت الشعارات الشيعية تبرز على ساحة الواقع، ومنها الجهر بأفضلية الإمام عليّ عليه السلام وولده الإمام الحسن عليه السلام.

الفتح الفاطميّ لبلاد الشّام

حرص الفاطميّون منذ أقاموا خلافتهم في بلاد المغرب، أواخر القرن الثّالث الهجريّ، على تقويض دعائم الخلافة العبّاسيّة، وانتزاع زعامة الإسلام منها، فأسند المعزّ لدين الله الفاطميّ إلى قائده (جوهر الصّقليّ) الحملة التي أرسلها إلى مصر

سنة (٣٥٨هـ)، وقد تكلّلت مجهودات جوهر (الصّقليّ) في فتح مصر بالنجاح، فأقيمت الخطبة للخليفة الفاطميّ على منابرها بدلاً من الخليفة العبّاسيّ، وأصبحت القاهرة، بعد أن اتخذها المعزّ لدين الله حاضرة لخلافته سنة ٣٦٢هـ، مركزاً للدعوة الشيعية التي ظلّ العبّاسيّون يقاومونها زهاء قرنين.

كانت الضرورة السّياسيّة والحربيّة تقضي على الفاطميّين بعدما فتحوا مصر، أن يولوا وجوههم شطر بلاد الشّام. ولم تخف على جوهر الصّقليّ تلك الحقيقة، ففتح هذه البلاد رغبة في تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشّرقيّ، والوقوف في وجه الروم والقرامطة.

وقد تضمن كتاب الأمان الذي أعلنه جوهر للمصريّين، في شعبان سنة ٣٥٨هـ، إشارة ظاهرة إلى خطر القرامطة الذين اجتاحوا بلاد الشّام، وأوقعوا الهزيمة بقوات الإخشيديّين سنة ٣٥٧هـ، ولم يكن إخراجه العساكر المنصورة والجيوش المظفّرة إلاّ لمافيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم. كما ورد في هذا الأمان أيضاً «ولكم عليّ أمان الله التام العام، الدائم المتصل الشّامل الكامل، المتجدد المتأكد على الأيّام، وكرور الأعوام، في أنفسكم وأموالكم وأهلكم. وعلى أن لا يعترض عليكم معترض، ولا يتجنّى عليكم متجنٍّ ولا يتعقّب، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون، ويذبّ عنكم، ويمنع منكم، فلا يتعرّض إلى أذاكم ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم».

لمّا تمّ لجوهر الصّقليّ فتح مصر، وأيقن أن النفوذ الفاطميّ قد توطّد فيها، أرسل حملة إلى فلسطين، أسند قيادتها إلى جعفر بن فلاح الكتامي، في أواخر سنة ٣٥٩هـ. فرأى الإخشيديّون في الشّام بعد أن وصلت إليهم أنباء هذه الحملة أن يعدوا أنفسهم لصدّها، فخرج الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد ـ الذي كان والياً على بلاد الشّام إذ ذاك ـ من مدينة دمشق قاصداً الرملة، واستخلف (شمولاً الإخشيديّ) على دمشق، على أن هذا الوالي لم يكن مخلصاً للحسن بن عبيد الله، فتقاعس عن نصرته».

لما وصل جعفر بن فلاح إلى الرملة، دعا ولاة الشّام إلى طاعة المعزّ لدين

الله الفاطميّ ببلاد المغرب، فأجاب دعوته فريق منهم، أمّا الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد، فاستنجد بعمّاله على دمشق وطبرية فلم يسارع أحد منهم إلى نجدته. وانتهت الحرب التي دارت بين جعفر بن فلاح والحسن بن عبيد الله في الرملة بهزيمة الحسن وأسره مع كثير من جنده، ثم سيق إلى الفسطاط، حيث أرسل إلى بلاد المغرب، فظلّ بها حتّى توفي سنة ٣٧١هـ، في خلافة العزيز بالله.

استأنف جعفر بن فلاح السير إلى طبرية بعد انتصاره في الرملة، فبنى قصراً على الجسر الذي يشرف على المدينة ليحارب (فغنك) غلام (ملهم)، وكان يلي أمورها من قبل كافور الإخشيديّ، فخافه كل من (فغنك) و(ملهم) ولم يتعرضا له، وبذلك تيسر لجعفر دخول طبرية من دون أن يلقى مقاومة تذكر من أهلها.

لما وصل إلى أهل دمشق نبأ استيلاء جعفر على طبرية خشوا بأسه، وأرسلوا إليه جماعة من كبار رجالهم، يطلبون الأمان، لكنه لم يحسن استقبالهم، فغادروا إلى دمشق، ودارت رحى الحرب بين جنود جعفر بن فلاح وجنده من المغاربة والقبائل العربيَّة في الشّام التي انضمت إليه، فإذ الهزيمة لحقت بهم، واستولى جعفر على دمشق.

وحين رأى أهالي دمشق ما حلّ بجندهم من الهزيمة، وعجزهم عن الوقوف في وجه الفاطميّين، انتدبوا بعض رجالاتهم لمقابلة جعفر، وطلبوا إليه إصلاح حال مدينتهم، وإعادتها إلى ما كانت عليه، فقبض عليهم بعض جنده من المغاربة وسلبوهم ثيابهم. وكان لهذا العمل أسوأ الأثر في نفوس أهالي دمشق، على أنّ جعفر لم يلبث أن أخمد هذه الفتنة، واضطرّ أهالي دمشق إلى مقابلته لطلب الأمان، وما زالوا يتضرّعون إليه حتّى قال: «ما أعفو عنكم حتّى تخرجوا إليّ ومعكم نساؤكم مكشوفات الشعور. فيتمرّغن في التراب بين يدي لطلب العفو». فقالوا: «نفعل ما يقول القائد»، وأخذوا يلحّون عليه بالرّجاء لعله يعفو عنهم، فهدأت ثائرته وانبسط معهم في الكلام، واستقرّ الرأي بينه وبينهم على أن يصلّي هو ورجاله يوم الجمعة في مسجد دمشق، فدخل المسجد هو وأصحابه، وأقيمت في هذا اليوم الخطبة للخليفة الفاطميّ المعزّ لدين الله، وحذف اسم الخليفة العبّاسيّ

المطيع، وكان ذلك في محرم سنة ٣٦٠هـ. لم تكد تستقر الأمور في دمشق حتّى عاد جند جعفر إلى العبث بالنظام، فانتهكوا حرمة بعض المنازل وسلبوا ما فيها. وكان ذلك مما حمل أهل دمشق على مقاتلتهم، واضطرّ شيوخ هذه المدينة إلى مقابلة جعفر لطلب الأمان من جديد، فقال لهم: «دخل رجال أمير المؤمنين للصلاة فقتلتموهم»، ثم هددهم باستعمال العنف، فأخذوا يهدّئون من روعه حتّى وعدهم بالعفو إذا دفعوا ديّة من قتل من جنوده، فاستجابوا طلبه وقد جمعوا له الأموال الكثيرة. لما رأى جعفر بن فلاح أنه لا يستطيع توطيد سلطان الفاطميّين في دمشق إلا بالقضاء على زعماء الفتنة من أهلها، أرسل جنده في طلبهم، وعندما تمكّنوا من القبض عليهم، أمر جعفر بضرب أعناقهم. وكان من بينهم (إسحق بن عصودا)، ولم ينج منهم إلا (أبو القاسم بن أبي يعلى العبّاسيّ)، و(مُحمَّد بن عصودا)، وقد حاول (ابن أبي يعلى) الهرب إلى بغداد، فقبض عليه عند تدمر، وسيق إلى جعفر بن فلاح حيث شهّر به وأرسل إلى مصر. أما (مُحمَّد بن عصودا وظالم بن موهوب العقيلي) والي حوران من قبل الإخشيديّين فلحقا بالقرامطة في الأحساء.

برغم أن جعفر بن فلاح حالفه النصر في بلاد الشّام، فإنّ سياسة العنف التي اتبعها في دمشق وإساءة جنده معاملة الأهلين، واستهتارهم بأرواحهم، أثارت سخط الناس عليه، فدبر أهل دمشق المؤامرات لإقصاء هذا القائد، والقضاء عليه، والتخلص من حكم الفاطميّين الذين يخالفونهم في المذهب الدِّينيّ. لم يؤدِ استيلاء قوات جعفر بن فلاح على دمشق إلى بسط سلطان الفاطميّين على جميع أرجاء بلاد الشّام، فكان هناك الحمدانيون في حلب، وقد لجأ إليهم كثير من أنصار الإخشيديّين، كما أنّ الروم كانوا يهدّدون بين حين وآخر المدن الشّماليَّة والساحلية ببلاد الشّام، كذلك كان لقرامطة بلاد البحرين بعض النفوذ في هذه البلاد منذ أغاروا عليها سنة ٣٥٧هـ. على أنّ الحمدانيين لم يكونوا في ذلك الوقت من القوة بحيث يستطيعون مناوأة الفاطميين والوقوف في وجههم. فقد أخذت دولتهم في الضعف منذ وفاة سيف الدَّولة سنة ٣٥٦هـ. أمّا الروم، فقد تكفّل الحمدانيون في النصف الأول من القرن الرَّابع الهجريّ صدّ غاراتهم، ولولا الجهود التي بذلوها في هذا السبيل لاستولوا على بلاد الشّام في غفلة العبّاسيّين.

وعندما اعتلى (نقفور فوكاس) عرش الدَّولة البيزنطية (٩٦٣ ـ ٩٦٩م)، تقدم الروم إلى حدود سوريا الشَّماليَّة، فاستولى جيشه سنة (٣٥٨هـ ـ ٩٦٩م)، على أنطاكية التي كان يطمح إليها منذ زمن طويل، لأنها كانت مدينة البطاركة والقديسين، وقد اعتبُرت منافسة لبيزنطة من الناحية الدِّينيَّة. وبعد احتلال أنطاكية بمدة وجيزة، حاصر القائد (نقفور) مدينة حلب، واضطرَ (قرعويه) الذي كان قد ثار على سعد الدَّولة ابن سيف الدَّولة الحمداني، إلى عقد صلح مهين مع البيزنطيين سنة (٣٥٩هـ ـ ٩٧٠م). رأى جعفر بن فلاح بعد أن استقرت له الأمور ببلاد الشّام، أنّ استيلاء الروم على أنطاكية يهدد الحكم الفاطمي في هذه البلاد، ومن ثم أخذ في تجهيز جيش كبير، ضمّ إليه جنوداً من أعمال دمشق وفلسطين، وصار يرسل الحملة بعد الحملة إلى أنطاكية لإجلاء الروم عنها، لكن هذه الحملات منيت بالفشل. كذلك واجه جعفر بن فلاح خطر قرامطة بلاد البحرين الذي يعدّ من أشد الأخطار التي هددت الحكم الفاطميّ في بلادالشّام. وكان هؤلاء القرامطة يرمون إلى بسط نفوذهم على هذه البلاد، وتجلت أطماعهم فيها في عهد أميرهم (أحمد بن أبي سعيد)، إذ فرضوا منذ سنة ٣٥٧هـ، على الإخشيديّين الذين كانوا ولاةً على بعض مدن الشّام، أتاوةً يؤدونها إلى حكومتهم كل سنة، وإذا أمعنا النّظر في الظروف التي فرضت هذه الأتاوة، اتضح لنا مدى حرص القرامطة على الاحتفاظ بسيادتهم على بلاد الشّام.

ودارت الدائرة، وهمّ جوهر الصّقليّ بإحراق رحبة الصيارفة بسبب تظاهرهم ضد الحكومة رافعين شعار: معاوية خال علي. وصدر الأمر بالجهر بالبسملة، وكتب على سائر الأماكن في مصر: خير الناس، بعد رسول الله ﷺ، علي. وأمر بالصوم والفطر على مذهب الشيّعة، وقطعت صلاة التراويح من جميع البلاد المصريَّة. وفي ربيع ٣٨٥هـ، جلس القاضي (مُحمَّد بن النعمان) على كرسي بالقصر في القاهرة لقراءة علوم أهل البيت. وتسارع الناس إلى الدخول في الدعوة، فقدموا من سائر النواحي والضياع، فكان للرجال يوم الأحد، وللنساء يوم الأربعاء، وللأشراف وذوي الحاجة يوم الثلاثاء. وتزاحم الناس على الدخول في الدعوة فمات رجال ونساء. ولم تواجه جماهير السنّة في مصر ضغوطاً من جانب الدَّولة

الفاطميَّة، لإجبارها على التخلي عن مذهبها كما أشاع خصوم الفاطميّين. وإنّما الجماهير هي التي زحفت طواعية نحو دعوة آل البيت حتّى تحول أنصار مذهب السنّة إلى أقليّة.

وقد كانت الحرب الدعائية في أوجها على الفاطميّين من جانب العبّاسيّين في بغداد. ومن صور هذه الحرب إعلان العبّاسيّين وثيقة وقّعها وجهاء من السنّة والشّيعة، تدّعي بطلان الفاطميّين في الانتساب إلى آل البيت. وقد تأثّرت الكتابات التّاريخية التي رصدت تلك الفترة بهذه الحرب، وانحازت إلى صف العبّاسيّين السنّة. وبرز هذا الأمر بوضوح بعد سقوط الدَّولة الفاطميَّة على أيدي الأيوبيّين.

ويدافع المقريزيّ عن حملات التشكيك التي وجّهت للفاطميين في مسألة نسبهم لآل البيت، ومحاولة نسبتهم لليهود والمجوس، فيقول: وهذه أقوال إن أنصفت يتبيّن لك أنها موضوعة، فإنّ بني عليّ قد كانوا إذ ذاك على غاية من وفور العدد، وجلالة القدر عند الشّيعة. فما الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم، والدعاء لابن مجوس، أو لابن يهودي، فهذا ممّا لا يفعله أحد، ولو بلغ الغاية في الجهل والسخف، وإنّما جاء ذلك من قبيل ضعف خلفاء بني العبّاس عندما غصّوا بمكان الفاطميّين، وأسجل القضاء بنفيهم من نسب العلويين، وشهد بذلك من أعلام الناس جماعة منهم: الشَّريفان الرضي والمرتضى، وأبو حامد الإسفراييني، في عدة وافرة، عندما جمعوا لذلك في سنة (٤٠٢هـ) أيّام القادر، وكانت شهادة القوم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وأهلها، إنما هم شيعة بني العبّاس الطاعنون في هذا النسب، والمتطيرون من بني علي، الفاعلون فيهم منذ ابتداء دولتهم الأفاعيل القبيحة. فنقل الأخباريون وأهل التّاريخ ذلك كما سمعوه ورووه حسبما تلقوه من غير تدبّر.

الصعوبات التي واجهت الفاطميّين في بلاد الشّام من ناحيتَي القرامطة وأفتكين التركي

أ ـ قرامطة بلاد البحرين

بدأ النزاع بين قرامطة بلاد البحرين والفاطميّين منذ استولى الجيش الفاطميّ بقيادة جعفر بن فلاح على دمشق، فقد طالب الحسن بن أحمد بن أبي سعيد، الملقب (بالأعصم)، والذي ولي إمارة القرامطة سنة ٣٥٩هـ بالأتاوة التي كان يدفعها الإخشيديّون لحكومته. لكن جعفر بن فلاح رفض أداء هذه الأتاوة إليه. وكان لهذه السياسة أسوأ الأثر في نفس الحسن بن أحمد الذي رأى أن سيادة دولته قد قضى عليها الفاطميّون، هذا بالإضافة إلى حرمان حكومته من ضريبة كبيرة كانت تؤدى إليها، ومن ثم بدأ يناصبهم العداء، واتبع سياسة جديدة إزاء الفاطميّين تخالف سياسة من سبقه من أمراء القرامطة.

استقر رأي الحسن بن أحمد على أن يعدّ نفسه لمحاربة القوات الفاطميّة ببلاد الشّام وإجلائها عنها، فبعث إلى المطيع العبّاسيّ وعز الدّولة (بختيار) أمير بني بويه في العراق، سنة ٣٦٠هـ، يطلب منهما أن يمداه بالمال والرجال، ليتسنّى له استرداد بلاد الشّام ومصر من الفاطميّين، على أن يجعله العباسيون والياً على هذه البلاد.

ولمّا كان البويهيون يستأثرون إذ ذاك بالسلطة في بغداد دون الخليفة العبّاسيّ، رأوا في امتداد نفوذ الفاطميّين إلى بلاد الشّام ما يعرّض سلطانهم في العراق للضعف والزوال. ومن ثم رحّب عز الدّولة بختيار بمد القرامطة بالسلاح والمال لمعاونتهم على الوقوف في وجه الفاطميّين. فأرسل إليهم، وفق قول «ابن القلانسي»، ألف درهم، وألف جوشن، وألف سيف، وألف رمح؛ وألف قوس، وألف جعبة، وقال: إذا وصل الحسن أبو عليّ الجنابي إلى الكوفة حمل إليه جميع ذلك».

كذلك طلب عز الدّولة بختيار إلى الحمدانيين بالموصل إمداد الحسن بن أحمد زعيم القرامطة بالأموال، فلقي هذا الطلب قبولاً منهم رغبة في وقف الزحف

الفاطميّ. ويبلغ من اهتمام عز الدَّولة بختيار بمد يد المساعدة إلى القرامطة، أن أرسل إلى أبي تغلب بن ناصر الدَّولة بن حمدان، يطلب إليه أن يؤدي إلى الحسن بن أحمد مبلغاً قدره أربعمائة ألف درهم. وفي ذلك يقول النويري: «وكتب له على أبي تغلب بن ناصر الدَّولة بن حمدان بأربعمائة ألف درهم، فرحل الحسن (بن أحمد) من الحكومة حتّى أتى الرحبة، وعليها أبو تغلب بن حمدان، فحمل إليه المال المسبب له، وحمل إليه العلوفة».

لم تقتصر معاونة أبي تغلب بن ناصر الدَّولة للحسن بن أحمد على مده بالأموال، بل أمده أيضاً بقوة من الرجال قوامها الإخشيديَّة الذين وفدوا إليه فراراً مما لحق بهم في مصر وفلسطين، على يد جند الفاطميّين من المغاربة. وكان لانضواء فريق من العقيليين بزعامة (ظالم بن موهوب) تحت لواء الحسن بن أحمد، أثر كبير في ازدياد قواته وإحرازه النصر على خصمه.

لما أتمّ الحسن بن أحمد إعداد جيشه، سار متجهاً إلى دمشق سنة ٣٦٠هـ، ليقضي على نفوذ الفاطميّين في بلاد الشّام، وكان جنوده يحملون الأعلام السّود، وقد كتب عليها اسم المطيع عبد الكريم، وتحته «السادة الراجعون إلى الحق» مما يثبت لنا انحياز القرامطة إلى العبّاسيّين، وانصرافهم عن الدعوة الإسماعيليَّة التي كانت من أهم دعائم دولتهم في بلاد البحرين.

أما جعفر بن فلاح فإنّه استدعى الحملة التي أرسلها إلى أنطاكية لإجلاء الروم عنها، وأخذ في التأهّب لصدّ قوات الحسن بن أحمد، لكنه برغم ذلك لم يكن يتوقع أن يهاجمه القرامطة بقوات ضخمة، وسرعان ما اشتبكت هذه القوات مع جعفر بن فلاح في ناحية الدكة على مقربة من دمشق، حيث دارت معركة انتهى الأمر فيها بهزيمة جعفر وقتله مع كثير من أتباعه سنة ٣٦٠هـ. وبذلك تمكن الحسن بن أحمد من الاستيلاء على دمشق.

على أنّ هذه الهزيمة التي حلّت بالجيش الفاطميّ في بلاد الشّام، ترجع على الأغلب، إلى عدم إعداد جعفر بن فلاح القوات الكافية لصدّ القرامطة الذين عوّلوا على غزو هذه البلاد لاستعادة سلطانهم عليها. وكان يحسن بجعفر بن فلاح أن

يبعث إلى جوهر الصّقليّ في مصر ليرسل إليه نجدة تعاونه في توطيد الحكم الفاطميّ ببلاد الشّام. يقول المقريزيّ: «فلما صارت الشّام له (لجعفر بن فلاح) شمخت نفسه عن مكاتبة جوهر، يذكر فيها طاعته، ويقع في جوهر، ويصف ما فتحه الله للمعز على يده، فغضب المعزّ لذلك ووأد كتبه كما هي مختومة. وكتب إليه قد أطأت الرأي لنفسك، نحن قد أنفذناك مع قائدنا جوهر، فاكتب إليه، فما وصل منك إلينا على يده قرأناه ولا تتجاوز بعد، فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذي أردته، وإن كنت أهلاً عندنا، ولكنا نستفسد جوهراً مع طاعته لنا، فزاد غضب جعفر بن فلاح، وانكشف ذلك لجوهر، فلم يبعث ابن فلاح لجوهر بشيء من أمره إلى أن قدم عليه الحسن بن أحمد القرمطي».

رأى الحسن بن أحمد بعد أن دخلت قواته بلاد الشّام أن ينهج سياسة تنطوي على الرغبة في التودّد إلى أهالي هذه البلاد واكتساب ولائهم، فأمن أهالي دمشق بعد أن تم له فتحها، كما أقام الدعوة في مساجدها للخليفة العبّاسيّ، وأمر بحذف اسم الخليفة الفاطميّ من الخطبة. وقد لقي عمله هذا ترحيباً من أهالي هذه المدينة، ويرجع السبب في ذلك إلى أنّهم كانوا من السنّيين المتطرّفين في عدائهم للشيعة والعلويين.

واصل الحسن بن أحمد سيره إلى الرملة بعد فتحه دمشق ليقضي على ما بقي للفاطميين من سلطان ببلاد الشّام، وكان والياً على هذه المدينة سعادة بن حيان المغربيّ، فلما علم بمسير القرامطة إليها اضطرّ إلى الرحيل عنها، والفرار إلى يافا، فتمهّد بذلك السبيل لدخولهم الرملة، وأصبحت معظم بلاد الشّام في يدهم، وأقيمت فيها الدعوة للخليفة العبّاسيّ، يقول المقريزيّ: «وأقام القرامطة الدعوة للمطيع بالله العبّاسيّ في كل بلد فتحوه وسوّدوا أعلامهم، وأظهروا أنّهم كأمراء النواحي الذين من قبل الخليفة العبّاسيّ».

ولمّا تمّ للحسن بن أحمد الاستيلاء على كثير من مدن الشّام، زحفت جيوشه إلى مصر في أواخر سنة ٣٦٠هـ، فهاجمت مدينة القلزم، وتمكنت من دخولها وأسر واليها الإخشيديّ (عبد العزيز بن يوسف)، ولم تلبث أن تابعت سيرها في الأراضي

المصريَّة في أوائل سنة ٣٦١هـ، فاستولت على (عين شمس)، ثمّ تقدّمت إلى القاهرة.

تأهّب القائد جوهر الصّقليّ لصدّ زحف القرامطة منذ أزمعوا المسير إلى مصر، فأعدّ جيشاً قوامه المغاربة والمصريّون، كما حصّن القاهرة بخندق عظيم حفره حولها. فلما هدّد القرامطة هذه المدينة في ربيع الأول سنة ٣٦١هـ، أبدى الجنود المصريّون الذين انضموا إلى جيش جوهر شجاعة فائقة استرعت انتباه المؤرّخين، فتمكّنوا من الوقوف في وجههم، وتقهقر الحسن بن أحمد بجنده ورحل إلى الأحساء، وقد علّق المقريزيّ على هذه الهزيمة التي حلّت بالقرامطة بقوله: «ولم يتّفق على القرامطة منذ ابتداء أمرهم كسرة أقبح من هذه الكسرة، وفيها فارقهم من كان قد اجتمع إليهم من الكافورية والإخشيديَّة، فقبض جوهر على نحو الألف منهم».

ظلّ القرامطة قوة يُخشى بأسها برغم انسحاب قواتهم من مصر في ربيع الأول سنة ٣٦١هـ، وقد انتهز جوهر الصّقليّ فرصة رحيل الحسن بن أحمد إلى الأحساء، فأنفذ جيشاً إلى يافا تمكّن من إعادتها إلى حوزة الفاطميّين. على أنّ الحسن بن أحمد ما لبث بعد عودته إلى دمشق أن وجّه اهتمامه إلى استرداد نفوذه ببلاد الشّام، ثم أخذ في التأهّب للسير إلى مصر، فأعد حملة بحريَّة أرسلها إلى (تنيس) وسواحل مصر، كما جهّز جيشاً ضمّ إليه عدداً كبيراً من العرب.

لمّا قدم المعزّ لدين الله الفاطميّ من المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢هـ واتخذ القاهرة حاضرة لخلافته، وجّه سياسته إلى مناهضة نفوذ القرامطة، حتّى يتيسّر له توطيد أركان دولته في مصر والشّام. فرأى أن يبعث إلى الحسن بن أحمد بكتاب قبل أن يشتبك معه في الحرب لعلّه ينجح في إثارة الساخطين من القرامطة عليه، وحمله على العدول عن موقفه العدائي من الفاطميّين.

وقد أشار المعزّ في هذا الكتاب إلى ما عرف عن القرامطة من حرص على التودّد إلى الفاطميّين، كما أخذ على الحسن بن أحمد خروجه على هذه السياسة التي اتبعها أسلافه من أمراء القرامطة ببلاد البحرين، فقال: «فأما أنت الغادر

الخائن، الناكث البائن، عن هدى آبائه وأجداده، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده، والموقد لنار الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنّة، فلم أغفل أمرك، ولا خفي عني خبرك، أما كان لك بجدك أبي سعيد أسوة، وبعمل أبي طاهر قدوة؟ أما نظرت في كتبهم وأخبارهم؟ ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم؟ أكنت غائباً عن ديارهم، وما كان من آثارهم؟ ألم تعلم أنهم كانوا عباداً لنا أولي بأس وعزم شديد، وأمر رشيد، وفعل حميد، يفيض إليهم موادنا، وينشر عليهم بركاتنا، حتّى ظهروا على الأعمال ودان لهم كل أمير ووال، ولقبوا بالسادة فسادوا، منحة منّا، واسماً من أسمائنا، فَعَلَت أسماؤهم، واستعلت هممهم، واشتد عزمهم، فسارت إليهم وفود الآفاق، وامتدت نحوهم الأحداق، وخضعت لهيبتهم الأعناق، وخيف منهم الفساد والعناد، وأن يكونوا لبني العبّاس أضداد، فعبئت الجيوش وسار إليهم كل خميس بالرسال المنتجة، والعدد المهذبة، والعساكر الموكبة. فلم يلقهم جيش إلا كسروه، ولا رئيس إلا أسروه، ولا عسكر إلا كسروه، وألحاظنا يرمقهم، ونصرنا يلحقهم، كما قال إلهه عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣]، ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢]، ﴿وإنّ جندنا لهم المنصورون﴾ [الصافات: ١٧٢]. فلم يزل ذلك دأبهم، وعين الله تحرسهم، إلى أن اختار لهم ما اختاروه من نقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن نعيم يزول ونعيم لا يزول، فعاشوا محمودين، وانتقلوا مفقودين، إلى روح وريحان وجنات النعيم، فطوبى لهم وحسن مآب».

ولقد وضّح المعزّ أيضاً في كتابه مدى انتشار الدعوة الفاطميَّة في كثير من أرجاء العالم الإسلاميّ، وعاب على الحسن بن أحمد انصرافه عنها، فقال: «ومع هذا، فما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلاّ ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا، ويدلون علينا، ويأخذون تبعتنا، ويذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا، وينذرون بأسنا، ويبشرون بأيّامنا، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن، وفي كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون، وعنهم يأخذون، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. وأنت عارف بذلك. فيا أيها الناكث الحانث، ما الذي أرداك وصدّك، أشيء شككت فيه، أم أمر استربت به،

أم كنت خلياً من الحكمة، وخارجاً على الكلمة، فأزالك وصدّك، وعن السبيل ردّك؟ إن هي إلا فتنة لكم ومتاع إلى حين. وأيم الله لقد كان الأعلى لجدك، والأرفع لقدرك، والأفضل لمجدك، والأوسع لوفدك، والأنضر لعودك، والأحسن لعذرك، الكشف عن أحوال سلفك. وإن خفيت عليك، والقفو لآثارهم، وإن عميت لديك، لتجري على سننهم وتدخل في زمرهم، وتسلك في مذهبهم».

كذلك أظهر المعزّ في كتابه استياءه من إقامة الحسن بن أحمد الدعوة لبني العبّاس، ومع ما أصابها من وهن وضعف، فقال: «لم تقنع في انتكاسك وترديتك في ارتكاسك، وارتباكك وانعكاسك، من خلافك الآباء ومشيك القهقرى، والنكوص على الأعقاب، والتسمّي بالألقاب. بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، وعصيانك مولاك، وجحدك ولاءك، حتّى انقلبت على الأدبار، وتحملت عظيم الأوزار، لتقيم دعوة قد درست، ودولة قد طمست، إنّك لمن الغابرين، وإنك لفي ضلال مبين، أم تريد أن تردّ القرون السالفة، والأشخاص الغابرة؟ أما علمت أنّ المطيع آخر ولد العبّاس، وآخر المتاريس في الناس؟! أم تراهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: ٧ ـ ٨] ختم والله الحساب، وطوى الكتاب، وعاد الأمر إلى أهله، والزمان إلى أوله، وأزفت الآزفة، ووقعت الواقعة، وقرعت القارعة وطلعت الشمس من مغربها، والآية من وطنها، وجيء بالملائكة والنبيين وخسر هنالك المبطلون، هنالك الولاية لله الحق، والملك لله الواحد القهّار، فله الأمر من بعد ومن قبل».

لم يفت المعزّ في كتابه أن يلوم الحسن بن أحمد على حشده القوات لغزو بلاد الشّام، وقتله لجعفر بن فلاح قائد الجيش الفاطميّ وكثيراً من جنده. كذلك عدّد له الأحداث التي ارتكبها أثناء هجومه على هذه البلاد من استباحته الأموال وسبيه النساء، فقال: «ثم لم يكفك ذلك ـ مع بلائك وطول شقائك ـ حتّى جمعت أرجاسك وأنجاسك، وحشدت أوباشك وأفلاسك، وسرت قاصداً إلى دمشق، وبها جعفر بن فلاح في فئة قليلة من كتامة وزويلة، فقتلته وقتلتهم جرأة على الله ورداً لأمره، واستبحت أموالهم، وسبيت نساءهم وليس بينك ولا بينهم ترة ولا

ثأر، ولا حقد ولا أضرار، فعل بني الأصفر والترك والخزر. ثم سرت أمامك ولم ترجع، وأقمت على كفرك ولم تقلع، حتّى أتيت الرملة وفيها سعادة بن حيان، في زمرة قليلة وفرقة يسيرة، فاعتزل عنك إلى يافا، مستكفياً شرّك، وتاركاً حربك. فلم تزل ماكثاً على نكثك باكراً وصابحاً. وغادياً ورائحاً، تقعد لهم بكل مقعد، وتأخذ عليهم بكل مرصد وتقصدهم بكل مقصد، كأنهم ترك وروم وخزر، لا ينهاك عن سفك الدماء دين، ولا يردعك عهد ولا يقين».

وفي نهاية الكتاب، عرض المعزّ على حسن بن أحمد ثلاث خصال ليختار منها واحدة يعمل على تحقيقها، وهدّده بسوء العاقبة، فقال: «ونحن معرضون عليك ثلاث خصال، والرابعة أردى لك، وأشقى لبالك، وما أحسبك تحصل إلاّ عليها فاختر: إمّا قدت نفسك لجعفر بن فلاح وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيّان. وردّ جميع ما كان لهم، رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبّة من عقال ناقة وخطام بعير، وهي أسهل ما يرد عليك. وإمّا أن تردّهم أحياء في صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم، ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار. وإمّا سرت ومن معك بغير ذمام ولا أمان، فأحكم فيك وفيهم بما حكمت، وأجريكم على إحدى ثلاث: إمّا قصاص، وإمّا منّا بعد، وإمّا فداء، فعسى أن يكون تمحيصاً لذنوبك، وإقالة لعثرتك. وإن أبيت إلاّ فعل اللعين فاخرج منها، فما يكون لك أن تنكب فيها، وقيل أخسئوا، تكلمون فما أنت إلاّ كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار. فلا سماء تظلّك ولا أرض تقلّك، ولا ليل يجنّك، ولا نهار يكنّك، ولا علم يسترك، ولا فئة تنصرك».

لم يعدل الحسن بن أحمد، بعد أن وصله كتاب المعزّ، عن سياسته التي تنطوي على مناهضة النفوذ الفاطميّ، بل أظهر عدم اكتراثه لتهديد المعزّ له، وأساء في ردّه، فكتب إليه: «وصل كتابك الذي قلّ تحصيله وكثر تفعيله، ونحن سائرون إليك على أثره والسّلام». ثم زحف إلى مصر سنة ٣٦٣هـ ـ ٩٧٤م، وتوغّلت جنوده في الأراضي المصريّة، كما تقدمت القوة الرئيسية من جيشه نحو القاهرة، وعسكرت بالقرب من الخندق الذي حفره جوهر، ولمّا علم المعزّ بنبأ وصوله، هاله كثرة قواته، فأشار عليه أهل الرأي بالسعي في تفريق كلمتهم، فعمد إلى

استمالة (حسان بن الجراح الطائي) رئيس جند العرب الذين يعدّون أقوى عناصر جيش الحسن بن أحمد. واتفق معه على أن يدفع إليه مائة ألف دينار على أن يتظاهر بالهزيمة أمام جند الفاطميّين. وكان هذا المبلغ كفيلاً لحمل بني طي على الانصراف عن حليفهم الحسن بن أحمد، فلما دارت الحرب بين الفريقين، تقهقر حسان بن الجراح أمام قوات المعزّ، فأدّى ذلك إلى هزيمة الحسن بن أحمد، وتقهقر إلى الشّام، وأسر الفاطميّون نحو ألف وخمسمائة من القرامطة.

وقد رأى المعزّ برغم نجاح قواته في صدّ هجمات القرامطة عن مصر أن ينفذ حملة بقيادة أبي محمود بن جعفر بن فلاح لمطاردة جيش القرامطة في الشّام، حتّى لا يعاود المسير إلى مصر، فلحقت بهم في أذرعات (مدينة بأطراف الشّام قبل الحجاز). أمّا الحسن بن أحمد فإنّه بعد أن وصل إلى دمشق، ترك بها أبا المنجا القرمطي والياً عليها من قبله ورحل مع بعض رجاله إلى الأحساء.

اتجهت سياسة المعزّ بعد أن عجز الحسن بن أحمد عن الاستيلاء على مدينة القاهرة للمرة الثّانية، واضطراره إلى التقهقر بجيوشه، إلى القضاء على ما بقي للقرامطة من نفوذ في بلاد الشّام، وتحقيقاً لهذا الغرض، رأى أن يستعين ببني الجراح من بني طي على استرداد هذه البلاد، كما قرب إليه (ظالم بن موهوب العقيلي) بعد انصرافه عن تأييد الحسن بن أحمد، وأسند إليه ولاية دمشق (رمضان سنة ٣٦٣هـ)، فقبض على واليها أبي المنجا القرمطي، وعلى كثير من أتباع القرامطة، وبذلك استعُيد سلطان الفاطميّين على بلاد الشّام.

لم تستقر الأمور في دمشق بتقلد ظالم بن موهوب العقيلي ولايتها، فقد أرسل المعزّ جيشاً من المغاربة بقيادة أبي محمود بن جعفر ليعاونه في المحافظة على الأمن، ولصدّ القرامطة إذا ما حاولوا العودة إلى بلاد الشّام، ولكنّ هؤلاء المغاربة ما لبثوا أن انصرفوا إلى العبث والفساد وقطع الطريق، مما أدّى إلى تذمر أهالي دمشق واشتباكهم مع جند الفاطميّين في بعض المعارك. ولا شكّ أن هذه الأحداث تعدّ من أكبر الصعاب التي واجهت ظالم بن موهوب، فاضطرَ إلى الخروج بنفسه لإخماد حركات المغاربة.

يقول ابن القلانسي: «فلما شاهد (ظالم بن موهوب) انهزام الناس والمغاربة في أثرهم، استدعى رمحه وعبر الجسر ومعه فرقة من أصحابه، وحمل على أوائل المغاربة، فردّهم عن أحداث البلد». على أنّ ظالم بن موهوب لم يحظَ برضى أيّ فريق من الفريقين المتنازعين في دمشق، وما لبث أن عزل في ربيع الآخر سنة ٣٦٤هـ، وخلفه (جيش بن الصمصامة) الذي اشترك مع ابن اخته القائد أبي محمود بن جعفر في إدارة أمور دمشق.

لم تتمتع دمشق طويلاً بالهدوء مما ساعد على عدم استقرار الحكم الفاطميّ فيها، فقامت الفتنة من جديد بين أهالي هذه المدينة وجند المغاربة، ونجم عنها إثارة الاضطراب بين الناس، وتخريب المنازل، وإغلاق الطرق، ووقف حركة البيع والشراء، كذلك قضى كثير من الفقراء على قارعة الطريق بسبب الجوع والبرد.

لمّا وصل إلى المعزّ لدين الله نبأ الاضطراب الذي حدث بدمشق، ثبت لديه أن هناك صعوبات تواجه حكمه في بلاد الشّام، ومن ثمّ عوّل على إقرار النظام فيها، فاستدعى (ريّان الخادم)، واليه على طرابلس، وعهد إليه درس الحالة في دمشق، وقمع الفتن التي ثارت بين أهالي هذه المدينة وجند المغاربة، كما قلّده ولايتها بعد عزل القائد أبي محمود بن جعفر الذي سار في جماعة قليلة من العسكر إلى الرملة، وقد بذل ريّان الخادم جهده في تهدئة الحالة في دمشق، والتوفيق بين أهلها وجند المغاربة.

ب ـ حركة افتكين التركي

برغم أنّ هذه الحركة قد وقفت في وجه بسط سلطان الفاطميّين على بلاد الشّام، فقد كان مصيرها الفشل، مثلما زال نفوذ القرامطة في هذه البلاد، واضطروا إلى الجلاء عنها مما سهّل على الفاطميّين استعادة دمشق إلى حوزتهم.

موقف أمراء العرب في الشّام من الفاطميّين

بنو الجرّاح في فلسطين

المرداسيون في شمال الشّام

كان نفوذ الفاطميّين في بلاد الشّام مرتبطاً بقوتهم العسكرية، فإذا ما ضعفت قواتهم هناك، سعى الأمراء المحليون إلى توطيد استقلالهم الذاتي، كما فعل بنو الجراح في فلسطين، وبنو مرداس في حلب.

والجدير ذكره أنّ الفاطميّين، وإنْ كانوا قد نجحوا في بسط سيادتهم على حلب، بعد أن زالت سلطة الحمدانيين فيها، ما استطاعوا ضمّها إلى حوزتهم، بعد أن حكمها أمراء من بني مرداس، بل ظلّوا في نزاع مع هؤلاء الأمراء من دون أن يتمكّنوا من القضاء على سلطتهم.

ولقد أتاح مناخ الاضطرابات الذي أثاره بنو الجراح في فلسطين، وعدم استقرار الأمور في حلب، في عهد بني مرداس، الفرصة أمام السلاجقة الأتراك، ليظهروا على مسرح السياسة في بلاد الشّام، ويقضوا على النفوذ الفاطميّ فيها.

ج ـ ضعف النفوذ الفاطميّ في بلاد الشّام في أواخر القرن الخامس الهجريّ

وقد أدّى النزاع بين الفاطميّين والسلاجقة، ونشر نفوذهم في بلاد الشّام، إلى عدم استقرار الأمور في هذه البلاد، وضعف الجهة الإسلاميّة أمام الغزو الصّليبيّ[1].

خاتمة واستنتاجات

وما يمكن استنتاجه أنّ للفاطميين مرتكزات فكرية تلخص مجمل المناخ العام الذي كان سائداً في هذه الفترة التّاريخية من المسيرة الإسلاميّة، والذي تنشقت هواءه طرابلس الشّام وجوارها المشرقيّ، وهذه المرتكزات هي:

---

(١) الدُكتور مُحمّد جمال الدّين سرور، **سياسة الفاطميّين الخارجيّة**، منشورات دار الفكر العربيّ ـ القاهرة، ١٩٩٤، الباب الخامس، الصفحة ١١١ وما بعدها.

مبدأ الإمامة (الخلافة)

يعتبر الإسماعيليّون المستعليون (البهرة) بفرعيهم السليماني والداؤدي ـ وهكذا الدروز ـ عبيد الله المهديّ إماماً مستودعاً، أي إماماً وكيلاً، أو وصيّاً أو نائباً للإمام الأصيل، لفترة زمنية محدودة، وليس له صلاحية توريث الإمامة لأحد من أولاده، فمثله مثل الإمام الحسن بن عليّ بن أبي طالب ﷺ.

بينما يعتبره الإسماعيليّون النزاريون إماماً مستقراً، وصاحب نص ثابت، فهو كالإمام الحسين بن عليّ بن أبي طالب ﷺ، له صلاحية توريث الإمامة لمن يقع اختياره عليه من أولاده.

بدايات نشر الدعوة الفاطميَّة

من المعلوم أنّ الأئمة العلويين الإسماعيليّين الذين اتخذوا من السلمية في سوريا قاعدة لهم، ومنطلقاً لنشاطاتهم الفكرية والسياسية، بعد فرارهم من العراق وبلاد فارس (إيران)، الذي تمّ تحت تأثير ضغط العبّاسيّين؛ ومن الواضح أن نزول هؤلاء الأئمة في هذه البقعة البعيدة عن أنظار خلفاء بغداد، سهل لهم الأسباب، ومهّد أمامهم الطرق، لإطلاق دعاتهم وعمالهم بحريَّة وأمان إلى الأقطار العربيَّة والإسلاميَّة، البعيدة والقريبة على السواء، للتبشير بأفكارهم، ونشر مبادئ دعوتهم الدِّينيَّة التي من أول مبادئها الوصول إلى الخلافة الإسلاميَّة.

وثمّة عوامل عدّة ساعدت على إنجاح الفكرة والدعوة الفاطميَّة على يد رائدها عبيد الله المهديّ، وبعون نصيره أبو عبد الله الشيعي ودعمه، فالناس في هذه الأرجاء كانوا قد وصلوا إلى مرحلة قصوى من القلق والتبرم من حياة الظلم والتعسّف والفساد والاستئثار وإهمال مطالب الأمة، وهضمها من جانب حكومة الخلافة العبّاسيَّة المتمركزة في بغداد، ومن يحيط بها من الأعوان والحلفاء.

وهكذا انضوى تحت لواء الدعاة الفاطميّين آلاف من الناس والجماعات والقبائل وفئات أخرى من أجزاء عديدة من العالم العربيّ الإسلاميّ.

برع الأئمة الإسماعيليّون في اختراع أساليب الدعاية ونشر الأفكار والتعاليم،

وكانت أولى طلائع تلك الجهود، حملة الدعاة الفاطميّين الذين راحوا يجوبون البلدان لتثبيت دعوتهم، ولا سيما في مواسم الحج في مكة والمدينة، وأيضاً اليمن والعراق وبلدان مصر والمغرب، ومن هؤلاء الدعاة البارزين (الحلواني) و(أبو سفيان)، و(رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب)، والداعي الكبير (الحسين الأهوازي) الذي شاءت الأقدار أن يتعرف إلى (الحسن بن أحمد بن زكريّا)، الذي عُرف بالتّاريخ فيما بعد بـ «أبو عبد الله الشيعي»، وهذا يمني الأصل كان يعيش في بغداد، وأن يقيم الأهوازي علاقة وثيقة معه، ومن ثم يرسله إلى اليمن للالتحاق بالداعي «ابن حوشب» للعمل معه في اليمن ومعاونته في نشر الفكر الفاطميّ.

المزايا السياسية والفكرية لنظام الدَّولة الفاطميَّة

كان نظام الحكم في ظل الخلافة الفاطميَّة، كما كان في سائر الدُّول الإسلاميَّة الأخرى، في العصور الوسطى، نظاماً مطلقاً يستأثر فيه الخليفة بجميع السلطات الروحية والزمنية، وقد سارت الخلافة الفاطميَّة على هذا النحو منذ قيامها في المغرب، ثم بعد ذلك منذ قيامها في مصر، فكان الخليفة الفاطميّ، هو الدَّولة، وهو صاحب السلطات المطلق، وصورة الأمور السلطانية تضم الشروح الآتية:

(إنّ طاعة الإمام جامعة للملوك والرعايا، والرعايا تجمع الإعطاء والطاعة، وإنّ الوزير يجمع السياسة، والجباية، والجباية جامعة للوزراء والعمال، وإنّ الملك يجمع الطاعة والسياسة، والعامل يجمع الجباية والإعطاء، وإنّ الإعطاء جامع للعمال والرعايا، وإنّ السياسة مشتركة).

ومن هذه الشروح الفلسفية لنظرية الحكم الفاطميَّة، يتضح أن الإمام هو رئيس الدَّولة الأعلى، وقد يكون هو الإمام الروحي والملك الزمني معاً، وقد يكون تحت رياسته ملوك آخرون، يدينون له بالطاعة الدِّينيَّة والدنيوية، وهو الحاكم المطلق، ومن تحته تتدرج السلطات من أعلى إلى أسفل، وأول من يليه من أهل السلطات هو الوزير، وباسمه وبتوجيهه يزاول سلطاته في الحكم، ويلي الوزير العمّال أو حكّام الولايات والثغور، وهؤلاء يزاولون سلطات الحكم على من دونهم من

الرعايا، وليس للرّعيّة شأن ولا قول ولا رأي، وليس لها أن تتصل بالعامل أو الوزير أو الملك، إلا بالطّاعة المطلقة.

والخلاصة، إنّها من الناحية الدستورية نظرية الحكم المطلق، بل هي تمتاز فوق ذلك، بأنّ رئيس الدَّولة الأعلى فيها، وهو الإمام، يمتاز بصفات العصمة والقداسة، باعتباره قائم الزمان، وأنّ قيامه يرجع إلى مشيئة الله.

ومن الميزات التي تميزت بها الدَّولة الفاطميَّة صبغتها المذهبية العميقة، كما كانت تمتاز بطرافة نظمها السياسية، وقد كانت الدَّولة الفاطميَّة مبتكرة مجددة في كثير من قواعد الحكم والإدارة، وفي كثير من الرسوم والنّظم، وكانت هذه الرسوم والنّظم، فوق طرافتها الدستورية، تطبعها الصبغة الباذخة نفسها، التي تطبع الدَّولة الفاطميَّة وسائر مظاهرها.

كانت الخلافة الفاطميَّة خلافة مذهبية شيعية، شعارها الإمامة الدِّينيَّة، وكان لهذه الصفة المذهبية أثرها في صوغ كثير من النّظم والرسوم التي اختصّت بها. وقد نشأت الدَّولة الفاطميَّة في قفار المغرب، دولة عسكرية ساذجة تظلّلها الصبغة الدِّينيَّة، فلمّا اتسع ملكها وعظم سلطانها بافتتاح مصر والشّام، شعرت بالحاجة إلى التوسّع في النّظم السياسية والإدارية، التي يقوم عليها هذا الملك بالباذخ، ولم تكتف بالاعتماد على الخطط العسكرية والدِّينيَّة والمدنية المعروفة، بل عمدت إلى الابتكار في تنظيم الأصول والخطط الدستورية، وفقاً لحاجاتها وغاياتها السياسية والمذهبية.

وليس من المبالغة القول إنّ ديوان الإنشاء كان أعظم الدواوين قاطبة في إدارة الحكم الفاطميَّة، وكانت مهمته من أخطر المهمّات وأدقّها. ففي دولة كالدَّولة الفاطميَّة، ذات صبغة مذهبية خاصة، كانت السجلات أو المراسيم تصاغ في أساليب عالية، وكان بثّ الدعوة المذهبية، وعرضها خلال المكاتبات السياسية، يتطلب أرقى الصيغ البيانية وأبلغها.

أمّا الخطط الدِّينيَّة فكانت تشمل بضع وظائف خطيرة، أعظمها وأجلّها قدراً منصب قاضي القضاة، ومنصب داعي الدعاة، وكان قاضي القضاة أعظم زعيم ديني

في الدَّولة، وإليه مرجع الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والحدود، والنّظر في شؤون السكة دار الضرب، وشؤون المساجد وأئمتها وسائر المتصرّفين فيها، وكان اختصاصه يشمل مصر والشّام والمغرب والحرمين، ومركزه العام في القاهرة.

أما المتون الشرعية التي كانت مرجعاً للقضاء في العصر الفاطميّ، فكانت تتضمن، أساساً، متون الفقه الشيعي، أو فقه الأئمة الإسماعيليَّة، وذلك سواء في العبادات، أو المعاملات، أو الحدود. وكان العلّامة الفقيه الشيعي الكبير النعمان بن مُحمَّد القيرواني قاضي المعزّ لدين الله، هو أول من وضع متوناً منفصلة في أحكام الفقه الإسماعيليّ، لبثت طوال العصر الفاطميّ المرجعَ الأوّل للقضاء.

من جهة أخرى، اتسمت الخلافة الفاطميَّة، على الصعيد الدِّينيّ بسياسة ثابتة، بجانب من المرونة، تمثّلت في استمالة أهل السنّة والجماعة، وتمكينهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم، وكانت المذاهب السنّية المعروفة، الشافعي والمالكي والحنبلي (بخلاف مذهب أبي حنيفة)، ظاهرة الشعائر في مملكتهم، وكان مذهب مالك بالأخص ذائعاً، ومن سأل الحكم به أُجيب إلى طلبه.

وقد أنشئت في الخلافة الفاطميَّة للمرة الأولى هيئة رسمية خاصة للنظر في شؤون العلوية والمنتسبين إلى آل البيت ﷺ، وعرفت هذه الهيئة يومئذ بنقابة الطالبيين، وكان يتولّى النّظر عليها واحد من أكبر شيوخهم وأجلهم قدراً، يسهر على صحة الأنساب وإثباتها، ورعاية شؤونهم، ورعاية مصالحهم، وفيما بعد عرفت هذه الهيئة باسم نقابة الأشراف.

كانت الدَّولة الفاطميَّة أشدّ الدُّول الإسلاميَّة حرصاً على أن تطبع الشعب والمجتمع بطابعها الخاص، وأن تصوغ روح الشعب وعقليته وتفكيره وبرامجه وفقاً لمناهجها ورسومها.

تركزت الأعياد الدِّينيَّة الرسمية في عهد الدَّولة الفاطميَّة، بجملة أعياد خاصة بها شرعت لغايات دينيَّة وسياسيَّة. أما الأعياد العامة، فهي رأس السنة الهجريّة، وليلة المولد النبوي الكريم، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة

نصفه، وغرة رمضان، ويوم الفطر، ويوم النحر أو عيد الأضحى. وأما الأعياد المذهبية فهي: عيد الغدير ـ ١٨ ذو الحجة ـ والاحتفال بمولد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﵇، ومولد ولديه الحسن والحسين ﵉، ومولد زوجته السَّيِّدة فاطمة الزَّهراء ابنة النبي ﷺ، وهي التي ينتسب إليها الخلفاء الفاطميّون، ويوم عاشوراء أو عاشر المحرم، أي اليوم الذي يصادف فيه مقتل الإمام الحسين ﵇ في طف كربلاء سنة (٦١هـ)، هذا إلى جانب أعياد مصريَّة قديمة، كعيد فتح الخليج، ويوم النوروز، وعيد الشهيد.

وكانت الخلافة الفاطميَّة ترمي بترتيب هذه الرسوم والمناسبات إلى غايتين: الأولى أن تثبت هيبتها الدِّينيَّة بما تسبغه من الخطورة والخشوع على بعض المظاهر والرسوم المذهبية، والثّانية أن تغمر الناس بفيض من الحفلات والمآدب والمواكب الباهرة، وأن تنثر عليهم ما استطاعت من دواعي البهجة والمرح، وذلك لكي تكسب ولاء الناس وعرفانهم وتأييدهم لها.

الحركة الفكرية والعلميَّة في ظل الفاطميّين

قامت الدَّولة الفاطميَّة في مصر، والحركة العقلية المصريَّة تشكل طوراً من أطوار قوتها، ذلك أنّ الدَّولة الإخشيديَّة التي استخلص الفاطميّون منها تراث مصر، كانت نصيرة للعلوم والآداب، وفي ظلّها ازدهرت الحركة الفكرية والأدبيَّة، ونبغ عدة من المفكرين والكتاب، مثل ابن يونس المحدّث والمؤرّخ، والفقيه أبي بكر الحدّاد، وأبي عمر الكندي المؤرّخ، والشاعرين أبي جعفر النحّاس وأبي القاسم بن طباطبا الحسني، والحسن بن زولاق الفقيه والمؤرّخ.

ولمّا قامت الدَّولة الفاطميَّة بمصر ما لبثت الحركة العقلية أن لقيت ملاذها في قيام الجامعة الفاطميَّة الكبرى، التي تمثّلت بالجامع الأزهر الذي أقيم في البداية ليكون مسجد الدَّولة الجديدة ومنبرها الرسمي. ثم أنشئت فيه منذ عهد العزيز بالله تلك الحلقات الدراسية التي استحالت فيما بعد إلى جامعة حقة، وكانت الدَّولة الفاطميَّة تعنى منذ قيامها بناحية معينة من الدِّراسات الدِّينيَّة هي الناحية المذهبية، وأنشئت جامعة دار الحكمة الشهيرة في عهد الحاكم بأمر الله.

وأيضاً أنشئ منصب (داعي الدعاة) ليشرف على بثّ الدعوة على يد نوابه ونقبائه، وتولّى تدريس الأصول الشيعية وفقه آل البيت ﷺ منذ البداية، جماعة من الفقهاء الممتازين، وفي مقدّمهم بنو النعمان. وأولى الحاكم الفاطميّ الحركة العقلية شيئاً أو جانباً من رعايته، فأجزل النفقة لجامعة دار الحكمة وأيضاً مثلما كان قد فعل للجامع الأزهر، وزوّدها بخزائن الكتب الجليلة، وعقد مجالس المناظرة للعلماء والأدباء، وغمرهم بصلاته، وقرب إليه عدة من أقطاب المفكرين والأدباء، أمثال الكاتب والمؤرّخ الكبير مُحمَّد بن القاسم بن عاصم شاعر الحاكم وجليسه، وأبي الحسن عليّ بن مُحمَّد الشابشتي الكاتب صاحب الديارات، وابن يونس العلّامة والرياضي والفلكي الشهير وغيرهم.

كما نبغ في مجال علوم الطب كثيرون، منهم مُحمَّد بن أحمد سعيد التميمي طبيب العزيز بالله، وأبو الفتح منصور بن مقشر النصراني، ثم طبيب ولده الحاكم من بعده.

وازدهرت الحركة الفكرية المصريَّة ازدهاراً طفيفاً خلال النصف الأول من القرن الخامس، بيد أنّها ضعفت في أواخره، في عهد المستنصر بالله، وكانت هذه الفترة غاصّة بالمحن والأحداث والفتن الداخلية والخارجيَّة، فلم تلق الحركة الأدبيَّة كثيراً من الرعاية، لكنها عادت في أوائل القرن السّادس فانتعشت، واستمرت على انتعاشها وقوّتها حتّى نهاية الدَّولة الفاطميَّة سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م.

وفي الفترة الأخيرة من عصر الدَّولة الفاطميَّة، ازدهرت حركة الكتابة في مجال النثر من حيث براعته وروعة أسلوبه وافتنانه، وتعاقب فيها من ديوان الإنشاء كوكبة من أئمة البيان الرائع، الذين جعلوا من رسائلهم الخلافية والديوانية نماذج من الفصاحة الباهرة، وكان من هؤلاء أبو الفتوح الدمياطي شيخ القاضي الفاضل، وابن الخلال.

ومن أبرز الفلاسفة الكثر الذين تأثّروا بالعقائد الشيعية عامة والفاطميَّة خاصة، أحمد حميد الدّين الكرماني فيلسوف الدعوة وحجّتها في العراق وصاحب الكتب

الفلسفية الفاطميَّة مثل كتاب راحة العقل، وكتاب المصابيح، وكتاب الأقوال الذهبية، والمؤيد في الدّين وغيرها.

ولعلّ أشهر عالم رياضي شهدته مصر الفاطميَّة هو الفيلسوف أبو عليّ مُحمَّد بن الحسن الهيثم، الذي تضاهي مرتبته العلميَّة مرتبة أينشتاين في العصر الحديث.

لقد تفرد الفاطميّون بإنشاء دور الكتب الكبرى في الإسلام، وبلغت تلك الدور حداً عجيباً، واجتمع فيها من أمّهات الكتب ومصادر العلوم المختلفة عديد عظيم الشأن. ومن مآثر الفاطميّين التي لا يزال المسلمون يستفيدون منها حتّى اليوم، الجامع الأزهر. وقد شرع القائد الفاطميّ جوهر في بناء الأزهر بأمر من المعزّ عندما شرع في بناء مدينة القاهرة يوم السّبت لستٍّ بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ، وتم بناؤه في التّاسع من رمضان سنة ٣٦١هـ، ثمّ جدّد فيه العزيز بالله والحاكم بأمر الله، ثم جدّده المستنصر بالله والحافظ لدين الله، وكان هذا المسجد محلّ رعاية الخلفاء الفاطميّين وعنايتهم، فلم يقصّروا في تجديده والزيادة فيه، ووقفوا لمؤذنيه وخدمه وسائل نظافته وإنارته وفرشه ما هو مذكور في كتب التّاريخ.

شهادات المؤرخين للفاطميين

إنّ القارئ المتتبع لتاريخ الفاطميّين يظهر له التناقض الواضح في مواقف المؤرخين من خلفائهم. ففي الوقت الذي يتهمهم مؤرّخون بالزيغ والضّلال وفساد العقيدة، وينفون نسبهم لآل البيت، وينعتونهم بالعبيديين نسبة إلى عبيد الله المهديّ مؤسس الدّولة في بلاد المغرب، هذا الموقف العدائي نجد أمامه موقفاً آخر يحمل المدح والثناء على ألسنة مؤرخي الفاطميين أنفسهم.

يقول ابن الأثير: وكان المعزّ عالماً فاضلاً جواداً شجاعاً جارياً على منهاج أبيه من حسن السيرة وإنصاف الرعية، وستر ما يدعون إليه إلا عن الخاصة، ثم أظهره وأمر الدّعاة بإظهاره إلا أنه لم يخرج فيه إلى حدّ يذمّ به.

ويقول ابن إياس: وكان المعزّ رجلاً عادلاً حازماً لبيباً فصيحاً شاعراً وله شعر جيد، فمن ذلك قوله:

ما بدا من عذري فيك حتّى عذرا ... وبدا البنفسج فوق ورد أحمرا
همت بقبلته عقارب صدغه ... فاستل ناظره عليها خنجرا

ويقول ابن الأثير عن العزيز بالله: كان يحبّ العفو ويستعمله، وكان حليماً كريماً شجاعاً وفيه رفق بالرعية.

ويقول ابن إياس: وكان العزيز يحب العدل في الرعية، وينصف المظلوم من الظالم. وكان كريماً جواداً ممدوحاً، فأحبته الرعية وصفا له الوقت بالديار المصريَّة، وكان خيار بني عبيد قاطبة.

أمّا الحاكم بأمر الله الخليفة الثّالث فقد قال عنه ابن إيّاس: فلمّا تولّى الخلافة أظهر العدل بين الرعية، وسار في الناس سيرة حسنة.

ويقول ابن الأثير عن الخليفة الظاهر لدين الله: وكان جميل السيرة حسن السياسة منصفاً للرعية. وتولّى من بعد الظاهر المستنصر بالله، وكان الحاكم في دولته بدر بن عبد الله الجمالي الملقّب بالأفضل أمير الجيوش وكان عادلاً حسن السيرة.

ويقول ابن إياس عن الخليفة الثّامن الحافظ لدين الله: وكان الحافظ لدين الله رجلاً حليماً، ليّن الجانب، قليل الأذى.

ويقول ابن كثير عن آخر الخلفاء الفاطميّين العاضد: وكان العاضد كريماً جواداً سامحه الله.

ويقول ابن إياس عنه: وبه انقرضت دولتهم، ولم يكن لها من المساوئ سوى أنهم كانوا رافضة يسبّون الصحابة كل يوم جمعة على المنابر(*).

وكان لموت العاضد بمصر يوم عظيم إلى الغاية، وعظم مصابه على المصريّين إلى الغاية، ووجدوا عليه وجداناً عظيماً، ولا سيّما الرافضة، فإنّ

(*) لم يثبت هذا وأغلب الظن أنّه من العداوات المذهبيّة. وإنما الذي شرّع السبّ واللعن على المنابر لأمير المؤمنين علي وأهل بيته عليهم السلام هو معاوية ومن تلاه من بني أميّة حتى جاء الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ فرفع المسبّة.

نفوسهم كادت تزهق حزناً لانقضاء دولتهم من ديار مصر وأعمالها.

وكما أنّ المؤرخين أثنوا على الخلفاء الفاطميّين، أثنوا أيضاً على وزرائهم وقادة جيوشهم.

يقول ابن الأثير عن جوهر الصَّقليّ فاتح مصر وباني القاهرة: كان يظهر الإحسان إلى الناس، ويجلس بنفسه في كل يوم سبت للمظالم بحضرة الوزير والقاضي وجماعة من أكابر الفقهاء، ولم يبقَ بمصر شاعر إلا رثاه وذكر مآثره حين موته.

ويقول أيضاً عن الأفضل ابن أمير الجيوش: كان حسن السيرة عادلاً. وقد قتله الإسماعيليون سنة ٥١٥هـ، لتبنيّه المذهب الشيعي الإمامي، وتضييقه على الخليفة الآمر بأحكام الله، وتوسعته على أهل السنة، والنهي عن معارضتهم، وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها.

ويقول ابن تغري بردي عن طلائع بن رزيك، وزير الفائز: وساس الأمور وتلقّب بالملك الصالح، وسار في الناس أحسن سيرة، وفخم أمره، وكان أديباً مائلاً للإماميَّة.

ويقول المقريزيّ عنه: كان شجاعاً كريماً جواداً فاضلاً محبّاً لأهل الأدب، جيد الشعر، رجل وقته، فضلاً وعلماً وسياسة وعقلاً وتدبيراً. كان مهاباً في شكله عظيماً في سطوته وكان محافظاً على الصلوات فرائضها ونوافلها شديد المغالاة في التّشيُّع.

ويقول ابن إياس عنه أيضاً: وكانت له حرمة وافرة في القاهرة وهو الذي بنى الجامع المنسوب إليه المشهور بجامع الصالح الذي هو خارج باب زويلة.

ويبدو لنا من خلال تتبع مواقف المؤرخين تجاه الفاطميّين أنها مواقف تشوبها الحيرة بسبب موقفهم المعادي للشيعة عقيدة الفاطميّين، وتيقّنهم من عدم فساد الأحوال في زمانهم. فهم لا يريدون إخفاء عدائهم للشيعة، ولا يستطيعون إخفاء منجزات الفاطميّين.

الفصل الرابع

موقف دولة بني عمّار ومواجهة الحملة الصّليبيّة

دولة بني عمّار في طرابلس

بنو عمّار أسرة تعود أصولها إلى قبيلة كتامة المغربيّة الإفريقية. وعند قيام الدَّولة الفاطميَّة، كان شيوخ هذه القبيلة ممّن لهم الصدارة في مؤسساتها الإدارية والعسكرية، نذكر منهم: الحسن بن عمّار الّذي كان من أبرز رجال الخليفة الفاطميّ العزيز بالله.

لقد كان بنو عمّار قضاة طرابلس، بعدها أصبحوا أمراءها، فمنهم أمين الدَّولة أبو طالب الحسن بن عمّار، المتوفّى سنة ٤٦٤هـ، ثمّ جلال الملك أبو الحسن عليّ بن عمّار المتوفّى سنة ٤٩٢هـ، ثم فخر الملك عمّار بن مُحمَّد بن عمّار المتوفّى نحو سنة ٥١٤هـ، وأبو المناقب شمس الملوك أبو الفرج مُحمَّد بن عمّار المتوفّى سنة ٥٠١هـ.

كان استقلال بني عمّار بطرابلس سنة ٤٦٢هـ ١٠٧٠م. وكانت إمارتهم تمتدّ حتّى تخوم بيروت من جهة، وحتّى أرباض أنطاكية من جهة ثانية. كما تمتدّ من نواحي جبلة في سوريا إلى قلعة صافيتا وحصن الأكراد والبقيعة. وفي لبنان حتّى الهرمل والضنية وجبّة بشري وبلاد العاقورة شرقيّ بلاد جبيل. وكانت جونيه من أعمال طرابلس في عصر الخطيب البغداديّ، المتوفّى سنة ٤٦٣هـ، وهو الذي زار طرابلس سنة ٣٦٢هـ.

تأسيس الدَّولة وازدهارها

وقد نمت إمارتهم نمواً عظيماً حتّى أصبحت طرابلس، في القرن الحادي

عشر، أعظم مدينة على طول الساحل الشّرقيّ للبحر المتوسّط، وكانت أساطيلها تتنقل في أنحاء هذا البحر، فهي المنفذ البحريّ الرئيسي لبلاد الشّام، عن طريقه يتم التصدير والاستيراد، وتنقل منتجات الشّام والمشرق إلى أوروبا، وإليه تفد من الخارج لتحمل منه إلى سائر بلاد الشّام، ولقد كان بنو عمّار، وهم مثقلون بردّ الهجمات الصَّليبيّة عليهم من البر والبحر، يسيّرون أسطولهم التُّجاريّ إلى ثغور البحر المتوسّط، وظلّت طرابلس، ومعها دمشق، تموّنان أوروبا حتّى أواخر العصور الوسطى بالسكّر بجميع أشكاله المعروفة آنذاك، وكان التّاجر الأوروبي القادم من البندقية أو جنوى يعود إلى بلاده وهو يحمل سلال السكر وأكياسه من طرابلس، وجمع بنو عمّار زراعة قصب السكّر الذي كان ينمو بغزارة على ضفاف نهر أبو عليّ وفي بساتين طرابلس، وأقاموا المصانع داخل المدينة لعصره وتجفيفه وتصنيعه، بشكل رقائق أو ناعم أو بشكل حلوى، وكان من حسن سياسة بني عمّار وصلاح حكمهم، أن أثرت المدينة وكانت على أحسن حال اقتصادي، حتّى خلال الحصار الصَّليبيّ لها براً وبحراً، إذ ظلّت صامدة تقاتلهم عشر سنين مستعينة بثروتها الداخلية وحسن إدارة اقتصادها. وعندما أوفد القائد الصَّليبيّ ريموند، خلال الحصار، وفد المفاوضة لفخر الملك، ومرّ الوفد بأسواق طرابلس أدهشه ما رأى من تنوّع البضائع، ورواج التجارة، وعظيم الثروة، والرخاء الذي تنعم به المدينة، وقد دفع فخر الملك أثناء الحصار الصَّليبيّ إلى جميع المدافعين عن المدينة من الأجناد، براً وبحراً، رواتب ستة أشهر مقدّماً، كما كان أثرياء المدينة يشاركون بأموالهم في مقاومة الحصار الاقتصادي الذي فرضه الصَّليبيّون على المدينة، وكان فخر الملك عمّار بن عمّار يلقّب بملك الساحل، وإذا كنّا نعلم أنّ الحسن بن عمّار هو الذي أرسل، في عهد العزيز بالله، أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي إلى دمشق، وأنّ أبا تميم هذا أرسل أخاه عليّ بن جعفر بن فلاح والياً على طرابلس سنة ٣٨٦هـ، فإننا لا نعلم شيئاً عن عوامل وصول بني عمّار إلى طرابلس: قضاةً ثمّ حكّاماً، فليس في المصادر التّاريخية التي في أيدينا ما يدل على بدء قيامهم فيها.

فبعد وفاة جدّ الأسرة الحسن بن عمّار سنة ٣٨٦هـ، لا نرى أمامنا شيئاً من أخبارها، ويمتدّ ذلك زهاء ثلاثة أرباع القرن حتى يبرز لنا اسم أبي الكتائب عمار

صاحب أبي الفتح الكراجكي، المتوفّى سنة ٤٤٩هـ، والذي ألف له الكراجكي كتاب (عدة البصير في حج يوم الغدير). أمّا أول من استقلّ بطرابلس من بني عمّار فهو أبو طالب الحسن بن عمّار المشهور بأمين الدَّولة، وقد ظلّ يعدّ نفسه تابعاً للدولة الفاطميَّة حتّى سنة ٤٦٢هـ ١٠٧٠م، إذ استقلّ بطرابلس فقامت بذلك إمارة بني عمّار، ومات أمين الدَّولة سنة ٤٦٤هـ ١٠٧٢م. فتولّى بعده ابن أخيه عليّ بن مُحمَّد بن عمّار، المعروف بجلال الدَّولة، والذي استمرّ حكمه حتّى سنة ٤٩٢هـ. وتولّى بعده أخوه عمّار بن مُحمَّد بن عمّار، ذو السعدين، المعروف بفخر الملك، وبقي حتّى سنة ٥٠١هـ، إذ ذهب إلى بغداد مستنجداً بالسلاجقة على الصَّليبيّين. وسنة ٥٠٢هـ ١١٠٩م، احتلّ الصَّليبيّون طرابلس بعد نضال طويل.

منقبة مؤسّس الإمارة: أمين الدَّولة الحسن بن عمّار

كان أمين الدَّولة كبير العقل سديد الرأي، عالماً، فقيهاً، كاتباً مجيداً، ألّف كثيراً من الكتب النفيسة، أمّا منقبته الكبرى فهي تأسيسه دار العلم التي جمع فيها أول الأمر أكثر من مئة ألف كتاب. وكان يبعث، في التفتيش عن الكتب، إلى جميع الأقطار، ويبذل في شرائها مالاً وافراً، ويجلب لها الكتب النادرة، واستمرّ الأمر بعده في عهد خلفائه، هذا فضلاً عن عنايته بالعلم وطلابه فيها، وتشجيعهم على الوصول إلى طرابلس لمتابعة الدِّراسة. وإلى جانب دار العلم قامت دار الحكمة التي قدم إليها العدد الكثير من طلاب العلم، حتّى لقد أصبحت طرابلس كعبة علم، ومركزاً من أعظم المراكز العلميَّة في العصر الوسيط، يفد إليها طلاب العلوم والفنون من فقه وحديث، ولغة وأدب، وفلسفة، وهندسة وطب، وعدا طلاب العلم، فقد كان يفد إليها العلماء لمراجعة المؤلفات لأشهر المؤلفين في العلوم والمعارف. كما كانت تعقد حلقات علمية لكبار العلماء، ينضمّ إليها العلماء الوافدون إلى طرابلس للاستزادة من العلم. وقد جدّد دار العلم التي أنشأها أمين الدَّولة ابن أخيه وخليفته جلال الدَّولة، سنة ٤٧٢هـ ١٠٨٢م، إذ كانت الظروف مؤاتية لجلال الدَّولة أكثر مما كانت مؤاتية لعمه وسلفه أمين الدَّولة. ففي عهد الأول كانت الإمارة في دور التأسيس، كما أنّ عمر حكمه كان قصيراً.

أمّا جلال الدَّولة فقد استمرّ في الحكم زهاء ثمانية وعشرين عاماً، اتسعت فيها أطراف الإمارة، وعظم شأنها، ونشطت تجارتها، وقد عني جلال الدَّولة بدار العلم عنايةً فائقةً، وجعل لطلاب العلم فيها رواتب، وفرّق على أهلها ذهباً، وجعل لها نظّاراً يتولّون القيام بذلك. وكان شعراء الشّام يفدون لمدح أمراء بني عمّار ونيل جوائزهم، فيلقون الترحيب والتكريم. وكثرت حلقات التدريس، وازدحمت المدينة بأشهر الأعلام، من أدباء وفقهاء وشعراء ولغويين، من الذين يفدون إليها من كل مكان، وقصدها الناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم، كما كان يفد إليها التجار والرحالة وطلبة العلم والعلماء من كل البلاد. كذلك ازدهرت فيها ترجمة العلوم والآداب عن اللاتينية والفارسيَّة وغيرهما إلى اللُّغة العربيَّة، ومنها إلى اللغات الأخرى، ولدينا شهادة بذلك من المستشرق (دي لاسي أوليري)، في كتابه: (علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب)، وساوت في ذلك كبريات الحواضر العربيَّة، فكثر فيها المترجمون والنسّاخون والكتّاب والخطّاطون. ويقول (ستيفن نسيمان) في كتاب (تاريخ الحروب الصَّليبيّة) عن المكتبة: إنّها أصبحت أروع مكتبة في العالم. وعندما سقطت طليطلة في الأندلس، في أيدي القشتاليين، سنة (٤٧٨هـ ١٠٨٥م)، يبدو أنّه هاجر فريق من علمائها إلى طرابلس، وكان منهم: أحمد بن مُحمَّد أبو عبد الله الطليطلي، فاحتضنه بنو عمّار، وجعلوه متولياً لدار العلم. إذ كانوا يختارون للنظر في أمورها كبار رجال العلم، من أمثال: الحسين بن بشر بن عليّ بن بشر، وأسعد بن أبي روح، وغيرهما من أمثالهما. وكان في المكتبة مائة وثمانون ناسخاً عملهم الوحيد نسخ الكتب غير الموجود منها نسخ في المكتبة، وإضافتها إلى الكتب الموجودة فيها. ولم يقتصر الأمر على الكتب العربيَّة، بل ضمّت المكتبة الكثير من كتب اليونان والرومان والفرس، وبين الكتب العربيَّة عدد كبير منها بخطوط مؤلّفيها. ومكتبة كهذه تحتاج إلى الإنفاق الكثير عليها لما تضمّه من عاملين فيها، ومشرفين عليها، ونسّاخين، وخطّاطين، ومترجمين، ومجلّدين، ووزّاقين، وباعة يحملون إليها نوادر الكتب مهما غلا ثمنها. أمّا عدد الكتب التي احتوت عليها مكتبة بني عمّار، فقد تعدّدت الأقوال في شأنه: فابن أبي طي، يقول: إنّ العدد كان ثلاثة ملايين كتاب، ويؤيّد ذلك ابن الفرات. وعلى هذا

القول كثيرون من المؤرخين العرب والمستشرقين منهم: أرنولد، وغروهمان، وغيبون، وشوشتري، الذي يقول، في كتابه «مختصر تاريخ الثَّقافة الإسلاميَّة»: إن مكتبة طرابلس كانت تحتوي على أكبر عدد من الكتب، ما عرف أن مكتبةً قد حوته حتّى ذلك الزمن، ألا وهو ثلاثة ملايين كتاب. والمستشرق الفرنسي (كاترمير) لم يخالجه شك في تقدير العدد بثلاثة ملايين كتاب، ويبدو أن المكتبة بدأت، في عهد منشئها الأوّل، أمين الدَّولة بمئة ألف كتاب، وأنّ العدد ارتفع في عهد خليفته جلال الملك إلى المليون، ثم ارتفع في عهد فخر الملك إلى ثلاثة ملايين. وكان في المكتبة، قاعة خاصة للنسّاخ والخطاطين مزوّدة بكل ما يحتاجونه من الأوراق والمحابر والأقلام، كما كان فيها قاعات للمطالعين الذين يفدون إليها. وهؤلاء الوافدون لم يكونوا من أبناء طرابلس فقط، فقد كان العلماء وطلاب العلم يفدون إليها من كل مكان للإفادة ممّا تحويه في كلّ فن من فنون العلم، فاكتظت طرابلس بالعلماء والأدباء والشعراء والمحدّثين والفقهاء وبالطلاب الآخذين عنهم. حتّى صارت مدينة طرابلس تسمّى دار العلم، وقد وردت هذه التسمية في عدة مصادر تاريخية. وفي ذلك يقول الشاعر شهاب الدّين محمود: (وهي أيضاً بدار علم تسمى). وأسهم قرب طرابلس من دمشق في ازدهار الثَّقافة في طرابلس، إذ كان ينتقل إليها، في كل عام، زائرون من دمشق، ليشاركوها في الحياة العلميَّة، ثم يعودوا إلى بلدهم، وعندما حاصر «إتسز الخوارزمي» دمشق سنة ٤٦٨هـ، واعتقل عدداً من رجالها، وغلت الأسعار، وضاق أمر الناس، قامت هجرة جماعية لوجوه دمشق إلى طرابلس، وممّن هاجر الشاعر ابن الخيّاط صاحب الديوان المطبوع في دمشق، سنة ١٩٥٨م. ومن المقرر، عند جميع من كتبوا عن تاريخ الحضارة الإسلاميَّة ووصولها إلى أوروبا، أنّ من عوامل هذا الوصول كان عامل الاتصالات التِّجاريَّة بقوافلها المتنقلة بين الشَّرق والغرب. وقد كان لطرابلس بني عمّار الأثر الفعّال في ذلك، فإليها كانت تفد القوافل التِّجاريَّة البرية من بلاد الشّام، ثم ينقلها إلى مرافئ أوروبا أسطول بني عمّار التِّجاريّ الذي أعدّوه أحسن إعداد، ناقلاً معها جذور الحضارة الإسلاميَّة العربيَّة. وليس كالعلائق التِّجاريَّة بين الأمم ما يداني في التقدم الحضاري. وقال ناصر خسرو، في القرن الخامس الهجريّ، الحادي العاشر

مستم تمبر، ١٤٢٥ هـ

الميلاديّ عن طرابلس: وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة. وقد ذكر المؤرّخ «السّلامي»، في كتابه، أنّ مدينة طرابلس كانت مملوءة بالعلماء حين دهمها الصّليبيّون، وأن من يتصفّح كتب التّاريخ والتراجم ليقف على هذه الحقيقة، وسيجد أنّ طلاب العلم ورجالاته جاؤوا إلى طرابلس من: الأندلس، وبلاد المغرب، ومصر، والحجاز، والعراق، وبلاد فارس، وأنحاء بلاد الشّام، وآسيا الصغرى، وغيرها. ونذكر هنا نماذج من أسماء الوافدين إليها، فمنهم: الشاعر الشهير «ابن حيوس»، وسديد الملك بن منقذ، الأمير الشاعر، وابن السرّاج، العالم المؤلّف المقرئ، وابن النقّار القاضي، الذي درّس في طرابلس وتولّى الخطابة في جبلة، ثم تولّى كتابة الديوان في دمشق، وله ديوان شعر، وشاعر الشّام ابن القيسراني، إلى عشرات من أمثال هؤلاء، ومن أشهر الوافدين على طرابلس للإفادة من دار العلم أبو العلاء المعري. وقد شكّك المؤرّخ ابن العديم بذلك وتابعه آخرون. قال ابن العديم: . . . وقد ذكر بعض المصنفين أنّ أبا العلاء المعري رحل إلى دار العلم في طرابلس للنظر في كتبها، واشتبه عليه ذلك في دار العلم ببغداد. ولم يكن بطرابلس دار علم في أيّام أبي العلاء، وإنّما جدّد دار العلم بها القاضي جلال الملك أبو الحسن عليّ بن أحمد بن عمّار، في اثنتين وأربعمائة. وكان أبو العلاء قد مات قبل جلال الملك سنة تسع وأربعين وأربعمائة. على أن الدُّكتور مصطفى جواد قد فنّد هذا القول قائلاً: ومن الحق أنّ في النفس ما فيها من قول ابن العديم: وإنّما جدَّد العلم بها القاضي جلال الملك فالتجديد عند أهل العربيَّة: إعادة شيء عتيق إلى حالة حسنة مستأنفة فليس هو بتأسيس ولا بناء. ولو كان هذا العالم الكبير متثبتاً في قوله لقال: وإنّما أنشأ دار العلم أو إنّما أسس دار العلم، فهو محجوج مفلوج على دعواه بذكره التجديد دون التأسيس والإنشاء، وبذلك تسقط دعوى من أنكر دراسة أبي العلاء المعري بدار علم طرابلس، لأنّ التجديد يدلّ على أنّ دار العلم كانت منشأة قبل ذلك، فأصابها تلف أو حريق استوجب تجديدها. ثم يذكر الدُّكتور مصطفى جواد إنشاء أمين الدَّولة الحسن بن عمّار، المعاصر لأبي العلاء المعري، لدار العلم، ولا يتعارض هو، وقول ابن العديم من تجديد جلال الملك لها. وممّن نبغ من الطرابلسيين، في عهد بني

عمّار، نذكر أمثال: ابن خرسان الأديب الشاعر المتوفّى سنة ٤٩٧هـ، وابن زريق المهندس العالم الفلكي المتوفّى سنة ٥١٦هـ، نذكرهما مثالين لنشير إلى تنوع الثقافات التي لم تنحصر في علوم اللُّغة وعلوم الدّين. ومن الحلقات العلميَّة، في عهد بني عمّار في طرابلس، حلقة أبي عبد الله الطليطلي، الذي مرّ ذكره، وكانت حلقته تخرّج الأدباء والشعراء واللغويين والنحويّين، ومنها تخرّج الشاعر الفارس أسامة بن منقذ، والشاعر ابن الخياط. وعدا الحلقات العلميَّة فقد كانت هناك لقاءات شعبية تقوم أحياناً في حوانيت صغار الباعة وكبارهم، ومنها لقاءات العطّار أبي المفضّل، ولقاءات المتنزّهات، والأسواق، وينابيع المياه خارج طرابلس، حيث يتطارح الملتقون الأشعار، ونذكر مثالاً على ذلك أنّ أحمد بن مُحمَّد، أبا عبد الله المعروف بابن الخيّاط الشاعر الدُّمشقيّ، خرج مع بعض خلاّنه إلى ضفاف غدير في ظاهر طرابلس فقال ابن الخيّاط:

أو ما ترى هذا الغدير كأنه ... يبدو لعينك منه حلي مناطقِ

مترقرق لعب الشعاع بمائه ... فارتّج يخفق مثل قلب العاشقِ

فإذا نظرت إليه راعك لمعه ... وعللت طرفك من سراب صادقِ

فقال أحد رفاقه:

قد كنت آمل أن أجيء مصلياً ... حتى رأيتك سابقاً للسّابقِ

وسبب مجيء ابن الخيّاط إلى طرابلس يدلّك على الشّهرة التي كانت لبني عمّار في حماية الأدب والأدباء وتشجيعهم، فقد خرج هذا الشاعر من دمشق، في الحقبة الممتدة ما بين سنتَي ٤٦٣ و٤٦٩هـ، إذ كانت دمشق تعاني خلالها فترة عصيبة من الفتن والجوع والفاقة، وهو لا يزال في صباه، فقصد حماه، واتصل هناك بالأمير أبي الفوارس مُحمَّد بن مالك، ثم ذهب إلى حلب، فالتقى الشاعر ابن حيوس فشكا له حاله، وأنشده هذين البيتين يصف الحالة التي وصل إليها:

لم يبق عندي ما يباع بدرهم ... وكفاك مني منظر عن مخبرِ

إلاّ صبابة ماء وجه صنتها ... عن أن تباع وأين، أين المشتري؟

فقال ابن حيوس: لو قلت: وأنت نعم المشتري. لكان أحسن. ثم قال: كرّمت عندي ونعيت إليّ نفسي، فإنّ الشّام لا يخلو من شاعر مجيد، فأنت وارثي، فاقصد بني عمّار بطرابلس، فإنهم يحبون هذا الفن.

وسنة ٤٧٦هـ، جاء ابن الخيّاط طرابلس، وهو ابن ٢٦ سنة. وكان صاحب طرابلس يومذاك جلال الملك أبو الحسن عليّ بن مُحمَّد بن عمّار، فاتصل به ومدحه، كما مدح فخر الملك، وغيره من بني عمّار. كما كان يتردّد على دار العلم ويحضر الدروس فيها، وتدفع له الرواتب التي كان بنو عمّار يصرفونها للطلبة في الدّار. وتقدر المدّة التي عاشها في طرابلس بعشر سنوات.

كان أمراء دولة بني عمّار علماء مؤلّفين تقام حلقات المناظرة بين الفقهاء والشعراء في قصورهم، وكانوا يقيمون مسابقات للشعراء يتبارى فيها هؤلاء بنظم القصائد، ومن الكتب التي صدرت يومذاك: (شرح الإيضاح)، و(شرح ديوان الحماسة) لزيد بن عليّ الفارسي المتوفّى سنة ٤٦٧هـ، وكتاب (جراب الدَّولة) لإبي طالب أمين الدَّولة الحسن بن عمّار. وقد وقع بعض المؤلفين في خطأ كبير، حين قالوا إنّ اسم الكتاب هو: (ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح) المنعوت (بجراب الدَّولة)، ونسبوه إلى أمين الدَّولة الحسن بن عمّار.

وقد علق الدُّكتور مصطفى جواد على هذه النسبة التي أخطأ فيها ابن الفرات، وتابعه غيره من المؤلفين على هذا الخطأ، حول ما نأخذه هنا لأهميته في التّاريخ الفكري الثقافي لتلك الحقبة: لقد وجدنا من الغريب قول المؤلف المصريّ، ناصر الدّين بن الفرات، في ذكر أمين الدَّولة أبي طالب الحسن بن عمّار: وهو الذي صنَّف كتاب «ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح» المنعوت بـ «جراب الدَّولة». أما أوّلاً فلأنّ كتاب «ترويح الأرواح» من كتب الفكاهة والهزل والباطل، وهذا قاض وأمير ذو ديانة متينة. وأمّا ثانياً فلأنّ جراب الدَّولة، عند المطّلعين على التّاريخ الإسلاميّ، جاء في حالتين: أولاهما كونه لقباً للإنسان الذي ألّف ترويح الأرواح، والأخرى كونه اسماً لكتاب ألّفه ابن عمّار المذكور في اقتصاديات الدَّولة الإسلاميَّة وشؤونها الأخرى. وقد أخذ ابن الفرات المصريّ اسم الكتاب الهزلي

ولقب مؤلّفه فجعلهما اسماً لكتاب ابن عمّار، وهذا من أشنع الغلط وأفظعه، وجلّ من لا يسهو ولا يغلط.

قال ياقوت الحمويّ في ترجمة الهازل الملقب بجراب الدّولة: «أحمد بن مُحمَّد جراب الدَّولة: هو أحمد بن مُحمَّد بن علوية من أهل سجستان ويكنّى أبا العبّاس، وكان طنبورياً، أحد الظرفاء والطياب. كان في أيّام المقتدر وأدرك دولة بني بويه فلذلك سمّى نفسه (بجراب الدَّولة)، لأنّهم كانوا يفتخرون بالتسمية في الدَّولة، وكان يلقب بالريح، وله أيضاً كتاب «ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح» لم يصنّف في فنّه مثله اشتمالاً على فنون الهزل والمضاحك. أمّا (جراب الدَّولة) الّذي ألّفه أبو طالب الحسن بن عمّار فهو من أجل الكتب وأجزلها فوائد وأشرفها موضعاً، قال القاضي ولي الدّين عبد الرحمن بن خلدون في فصل: إنّ آثار الدَّولة كلّها على نسبة قوتها في أصلها. «وكذلك وجد، بخط أحمد مُحمَّد بن عبد الحميد، عمل بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيّام المأمون من جميع النواحي، نقلته من جراب الدَّولة: غلات السواد... كسكر... كورد جلة... حلوان... الأهواز... فارس». وذكر الارتفاع أي الواردات لمملكة المأمون بأسرها. فأين موضوع هذا الكتاب من موضوع الكتاب الباطل العاطل؟ انتهى.

وهكذا نرى أمراء بني عمّار كانوا في الوقت نفسه علماء مؤلفين يؤلّفون في ما يسمّى اليوم الاقتصاد السيّاسيّ. ومن المؤلفات التي صدرت في ظل حكم بني عمّار، مؤلفات أسعد بن أحمد بن أبي روح التي مرّ ذكر بعضها. وديوان ابن خرسان المتوفّى سنة ٤٩٧هـ، وديوان أحمد بن منير المتوفّى سنة (٥٤٨هـ)، وروضة النفس «لابن البرّاج»، المتوفّى سنة ٤٨١هـ، وديوان لابن النقّار، المتوفّى سنة (٥٦٧هـ)، وديوان لابن هبة الله العلوي الحسيني، المتوفّى بعد سنة ٥١٥هـ، و(التصريح في شرح قصيدة كثير)، وابن ذريح الراشدي بن بركات المتوفّى سنة ٥٤٠هـ، وغير ذلك من حركة شعريّة نشطة. وكان بنو عمّار من المقصودين بالمدح من شعراء عصرهم، فمن الشعراء الذين مدحوهم: ابن الخيّاط، وابن النقّار، وأبو المواهب المعرّي، وابن العلاّني المعرّي، وأبو الفتيان بن حيوس.

وفي أحد المجالس الشعرية التي كان يلتقي فيها الشعراء فخر الملك، اقترح عليهم أن يعارضوا قصيدة مُحمَّد بن هانئ الأندلسيّ الرائية الشهيرة التي مطلعها:

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر   وأمدّكم فلق الصباح المسفر

بأن ينظم كل واحد منهم قصيدة على وزنها وقافيتها، فسبقهم في ذلك أبو الحسن عليّ بن إبراهيم، المعروف بابن العلاّني، بقصيدة أعجبت فخر الملك، فأجزاه عليها، واستغنى بها عن قصائد بقية الشعراء.

وكان فخر الملك يقود، يومذاك، الكفاح الإسلاميّ على الصّليبيّين، ويتحمّل حصارهم لمدينته، ويدافعهم عن وطنه، وإلى ذلك يشير الشاعر في بعض أبيات القصيدة، كما أشار أبو المواهب المعرّي في قصيدته المتقدّمة بقوله:

حمى الثغر من رشف المواضي فقد   تأشّب ما يحميه سور وخندق

وقال ابن العلاّني:

يا ناصر الدّين الّذي لو لم تطل   منه مقارعة العدى لم ينصرِ
والمجد صعب المرتقى إلاّ على   يقظان في ذات الإله مشمّرِ

وقال الشاعر ابن الخيّاط يمدح عليّ بن مُحمَّد بن عمّار، أبو الحسن جلال الملك، من قصيدة:

أحبّ مكارم الأخلاق منه   وأعشق دولة الملك الجوادِ
رجوت فما تجاوزه رجائي   وكان الماء غاية كلّ صادِ
صحبنا عنده الأيام بيضاً   وقد عمّ الزّمان من السّوادِ
وأدركنا بعدل من عليّ   صلاح العيش في دهر الفسادِ
أبوك تدارك الإسلام لمّا   وهى أو كاد يؤذن بانهدادِ
سخا بالنّفس شمّا بالمعالي   وجاهد بالطّريف وبالتّلادِ
فيومك إذ دم الأعلاج بحر   يريك البحر في حلل ورادِ
رعى منك الرّعية خير راع   كريم الذّبّ عنهم والذّيادِ

وعندما ترك ابن الخيّاط طرابلس إلى دمشق كتب إليه، منها قصيدة، في مدحه، قال فيها:

لئن عداني دهر عن لقائكم ... لما عداني عن تذكار ما سلفا
ما وجد من فارق القوم الألى ظعنوا ... كوجد من فارق العلياء والشّرفا
أعديتم يا بني عمّار كلّ يد ... بالجود حتّى كأنّ البخل ما عرفا
ما كان يعرف كيف العدل قبلكم ... حتّى ملكتم فسرتم سيرة الخلفا
محامد ليس يبلي الدّهر جدّتها ... وكيف تبلى وقد أودعتها الصّحفا
وبلدة قد حماها منك ربّ وغى ... لا تستقيل الرّدى منه إذا دلفا
إن أقلق الخطب كانت معقلاً حرماً ... أو أطبق المحل كانت روضة أنفا

وقال في مدحه:

نرجي الحيا من راحة ابن مُحمَّد ... وأيّ سماء لا تُشام بروقُها
وقى الله فيك الدّين والبأس والنّدى ... عيون العدى ما جاور العين موقُها
خشوع وإيمان وعدل ورأفة ... فقد حقّ بالنعماء منك حقيقُها
ويغنيك عن حفر الخنادق مثلها ... من الضّرب إمّا قام للحرب سوقُها
وقفت القوافي في ذراك فلم يكن ... سواك من الأملاك ملك يروقُها
معطّلة إلاّ لديك حياضها ... ومهجورة إلاّ إليك طريقُها

وقال في عمّار بن مُحمَّد بن عمّار، فخر الملك:

إلى ربع عمّار بن عمّار الّذي ... تكفّل أرزاق العباد بجدواهُ
فتى لم نمل يوماً بركن سماحه ... على حدثان الدّهر إلاّ هدمناهُ

وقال فيه:

إذا آل عمّار أظلّك عزّهم ... فغيرك من يخشى يد الحدثانِ
هم القوم إلاّ أنّ بين بيوتهم ... يهان القرى والجار غير مهان
إذا رمت شعري في علاك أطاعني ... وإن رضت فكري في سواك عصاني

هذه نماذج من الشعر الذي مدح به أمراء بني عمّار ورجال دولتهم، هؤلاء الأمراء الذين كانوا في معظمهم أدباء أو علماء، وكانوا في جمهورهم ذوّاقين للشعر، مستعذبين مجالسه، مكرّمين رجاله. وكانوا، في صفات من الخير والعدل وجهاد العدو والفروسية والكرم، ما يبعث الشعر أصيلاً صادقاً على لسان الشعراء. ولرواج سوق الشعر، يومذاك، أولع متداولوه باستكتاب الخطّاطين للقصائد بخطوطهم الجميلة، فيدفع أحدهم للخطّاط أكثر من سبعة دنانير لكتابة القصيدة الواحدة.

وقد قبض الشاعر أحمد بن حمزة، المعروف بابن الخيشي الحلبي، نحو مئتي دينار في شهر رمضان لكتابته سبعاً وعشرين قصيدة لجماعة من الطرابلسيين.

بنو عمّار من الكتاب إلى السيف

عندما وصل القائد الصَّليبيّ «صنجيل» «ريموند دي سان جيل» إلى مشارف الشّام، كان فخر الملك بن عمّار، أول من أدرك الخطر الصَّليبيّ فصمّم على الإعداد لهذا الخطر قبل أن يتغلغل في البلاد الشّاميَّة، وذلك بالدّعوة إلى حلف إسلاميّ يقف في وجهه، فراسل الأمير (ياخز) في حمص، والملك (دقاق بن تتش) في دمشق، يقول لهما على ما يروي ابن الأثير: «من الصّواب أن يعاجل صنجيل إذ هو في هذه العدة القريبة. فاستجابا له، فخرج الأمير (ياخز) بنفسه وسيّر (دقاق ألفي مقاتل)، وخرجت الأمدادات الطرابلسية فاجتمعوا على باب طرابلس وصافوا صنجيل هناك».

ويضيف ابن الأثير: «فأمّا عسكر حمص فإنّهم انكسروا عند المشاهدة وولّوا منهزمين، وتبعهم عسكر دمشق، وحمل (صنجيل) بمن معه فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل، ونازل (صنجيل) طرابلس وحاصرها».

إلى هنا، والأمر طبيعي، فالحروب سجال. ينتصر هذا الفريق، وينهزم ذاك الفريق، ولكنّ غير الطّبيعي، وما يجعلنا نكثر من التساؤل والاستغراب، هو المقدّمة الّتي قدم بها ابن الأثير لهذه الحرب وهزائمها، فهو يقول عن أحداث سنة

٤٩٥هـ، بعد أن يتحدث عن هزيمة صنجيل أمام قلج أرسلان: «ومضى (صنجيل) مهزوماً في ثلاث مائة. فوصل إلى الشّام فأرسل فخر الملك بن عمّار إلى الأمير (ياخز)، وإلى الملك (دقاق)» ثمّ يقول: «فأخرج صنجيل مائة من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق، وخمسين إلى عسكر حمص، وبقي هو في خمسين. فأمّا عسكر حمص فإنّهم انكسروا عند المشاهدة وولّوا منهزمين وتبعهم عسكر دمشق. وأمّا أهل طرابلس فإنّهم قاتلوا المئة الّذين قاتلوهم، فلمّا شاهد ذلك صنجيل حمل في المئتين الباقيتين، فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل، ونازل صنجيل طرابلس وحاصرها».

في الوسع القول إنّ في كلام ابن الأثير هذا تخليطاً لا نعرف عوامله! والذي يهمّنا الآن هو أنّ حصار الصَّليبيّين لطرابلس، براً وبحراً، قد بدأ، وأنه سيستمر عشر سنوات أصبح خلالها شعار بني عمّار: السيف، بعد أن كان شعارهم الكتاب، وإن ظلّ للكتاب عندهم مكانه الرفيع ومنزلته الكبرى.

يقول مؤرخون: اجتمع على منازلة طرابلس كل من (برتران) الابن الأكبر (لريموند الصنجيلي)، و(لوليم غوردان) ابن خت (ريموند) المذكور، و(تانكريد) أمير (إنطاكية واللاذقية)، و(بلدوين) ملك بيت المقدس، و(بلدوين) كونت الرّها، و(غوسلين) أمير قلعة تل باشر.

وكانت القوى المهاجمة للمدينة تتألّف من ٤٠٠٠ فارس بروفنسي قدموا مع (برتران)، وعدد كبير من الجنوية جاؤوا بعشرين سفينة، إلى جانب سفن (برتران) وعددها أربعون، و٥٠٠ فارس أتى بهم بلدوين ملك القدس، إلى جانب عدد كبير من الرجالة و٧٠٠ فارس من خيرة فرسان تانكريد، بالإضافة إلى بلدوين، كونت الرها، وجوسلين وحرسيهما، ثم جموع المردة ومن أتى من جبل لبنان.

كان هذا الجمع قد تجمّع على طرابلس بعد أن كلّت قواها بعد عشر سنوات من الحصار المضروب والقتال الدائم، وكان هو الذي دخل طرابلس.

يقول ابن الأثير، في أحداث سنة ٥٩٦هـ «وكان صنجيل يحاصر مدينة طرابلس الشّام، والمواد تأتيها، وبها فخر الملك بن عمّار، وكان يرسل أصحابه

في المراكب يغيرون على البلاد التي بيد الفرنج ويقتلون من وجدوا. ويقصد بذلك أن يخلو السواد ممّن يزرع لتقلّ المواد من الفرنج فيرحلون عنه. سنة كاملة مرّت على الحصار كانت مهمّة فخر الملك فيها مزدوجة ذات شقين: شقّ دفاعي وشقّ هجومي، فهو يقف في وجه اقتحام الصَّليبيّين المحاصرة له، فيهاجم الصَّليبيّين في ما يحتلونه من بقاع».

كان فخر الملك هنا بطل الدفاع والهجوم معاً، وكان العمّاريون أهله يشدّون أزره، وشعبه الطّرابلسيّ يصبر ويصابر معه». وتأتي سنة ٥٩٧هـ فيقول ابن الأثير: «في هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة اللاذقية فيها التجّار والأجناد والحجّاج وغير ذلك، واستعان بهم «صنجيل الفرنجي» على حصار طرابلس، فحاصروها معه، براً وبحراً، وضايقوها وقاتلوها أيّاماً، فلم يروا فيها مطمعاً فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل... سنتان مرّتا وفخر الملك محصور في مدينته، وهو صامد يدافع عنها دفاع الأبطال، ويستعين الأعداء بقوى جديدة فلا ينالون من صموده منالاً»... وسنة ٤٩٩هـ، يقول ابن الأثير: «كان (صنجيل) قد ملك مدينة (جبلة)، وأقام على طرابلس يحصرها فحيث لم يقدر أن يملكها، بنى بالقرب منها حصناً وبنى تحته ربضاً، وأقام مراصد لها، منتظراً وجود فرصة فيها، فخرج فخر الملك أبو عليّ بن عمّار صاحب طرابلس، فأحرق ربضه ووقف صنجيل على بعض سقوفه المحترقة ومعه جماعة من القمامصة والفرسان فانخسف بهم، فمرض صنجيل من ذلك عشرة أيّام ومات، وحُمل إلى القدس فدفن فيها. ثم إنّ ملك الروم أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس فحملوها في البحر، فأخرج إليها فخر الملك بن عمّار أسطولاً، فجرى بينهم وبين الروم قتال شديد، فظفر المسلمون بقطعة من الروم فأخذوها وأسروا من كان بها وعادوا». ويتابع ابن الأثير: «ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين إلى هذا الوقت، فعدمت الأقوات به، وخاف أهله على نفوسهم وأولادهم وحرمهم، فجلا الفقراء وافتقر الأغنياء، وظهر من ابن عمّار صبر عظيم وشجاعة ورأي سديد».

ويضيف ابن الأثير: «وأجرى ابن عمّار الجرايات على الجند والضّعفاء، فلمّا

قلّت الأموال عنده شرع يقسّط على النّاس ما يخرجه في باب الجهاد، فأخذ من رجلين من الأغنياء مالاً مع غيرهما، فخرج الرجلان إلى الفرنج وقالا: إن صاحبنا صادرنا فخرجنا إليكم لنكون معكم، وذكرا لهم أنه تأتيه الميرة من عرقة والجبل، فجعل الفرنج جمعاً على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء إلى البلد. فأرسل ابن عمّار وبذل للفرنج مالاً كثيراً ليسلّموا الرّجلين إليه فلم يفعلوا، فوضع عليهما من قتلهما غيلة. لم يكن ابن عمّار بطلاً شجاعاً فقط، بل كان إلى ذلك حازماً، بعيد النّظر، محكم التدبير، جلداً أمام الأهوال... في كل شعوب الأرض يوجد ضعاف النفوس، خوّارو العزائم، ويوجد حريصون على المال لا يبالون في هذا الحرص أن يخونوا أوطانهم. فلا يضير الشّعب الطرابلسي أن يوجد في صفوفه مثل هذين الخائنين اللذين لا نشكّ في أنهما جمعا مالهما من الحرام، ومن كلّ مصدر غير شريف، لأنّ من يقدم على ما أقدما عليه يكون قد أقدم على كلّ رذيلة في جمع المال! كان ابن عمّار ـ كما قلنا ـ حازماً، بعيد النّظر، محكم التدبير، جلداً أمام الأهوال، فلم يشغله ما هو فيه عن التفكير في أمر هذين الخائنين. إن تركهما سليمين يشجّع أمثالهما على الخيانة، فأحكم تدبير أمر اغتيالهما، واستطاع اختراق صفوف أعدائه، والوصول إلى اغتيالهما، وفي هذا ما فيه من قوة العزم، وسداد الرأي، وإحكام الأمر».

بنو عمّار والسلاجقة

وفي أحداث سنة ٥٠١هـ، يقول ابن الأثير: «ورد فخر الملك أبو عليّ بن عمّار إلى بغداد، قاصداً باب السلطان مُحمَّد السلجوقي، مستنفراً على الفرنج، طالباً تسيير العساكر لإزاحتهم، والّذي حثّه على ذلك، أنّه لّما طال حصار الفرنج لمدينة طرابلس، ضاقت عليه الأقوات وقلّت، واشتدّ الأمر عليه وعلى أهل البلد. ويتابع: «فلمّا بلغ فخر الملك انتظام الأمور للسطان مُحمَّد وزوال كلّ مخالف. رأى لنفسه وللمسلمين قصده والانتصار به. لقد استقبل فخر الملك في بغداد من السلطان ومن الخليفة بحفاوة بالغة، فطالب بالنّجدة وتعهّد أنّه إذا أجيب استنجاده وأرسلت معه العساكر يوصل إليهم جميع ما يلتمسونه. قال ذلك للخليفة

وللسلطان، فلم ينل غير الوعود، فعاد إلى دمشق خائباً! وقد حدثت في غيابه مؤامرات عليه ساهم فيها نائبه، ما أخرج الأمر من يده، وحيل بينه وبين العودة إلى طرابلس. وفي سنة (٥٠٣هـ)، كان الصَّليبيّون يدخلون طرابلس». ويوجز ابن الأثير ذلك: «ومدّ الفرنج القتال عليها من الأبراج والزحف، فهجموا على البلد وملكوه عنوةً وقهراً، ونهبوا ما فيها، وأسروا الرجال، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال، وغنموا من أهلها من الأموال، والأمتعة، وكتب دور العلم الموقوفة، ما لا يعدّ ولا يحصى، فإنّ أهلها كانوا من أكثر بلاد الله أموالاً وتجارة. وعاقب الفرنج أهلها بأنواع العقوبات، وأخذت دفائنهم وذخائرهم في مكامنهم. وكانت المكتبة الكبرى من ضحاياهم إذ أحرقوها بكل ما فيها».

بنو عمّار والعمران

لم يغفل بنو عمّار النواحي العمرانية في إمارتهم، فمن أهم ما عنوا به المشاريع المائيّة، فأمنوا لطرابلس منظّماً من النهر الذي عرف بعد ذلك باسم نهر «أبو علي»، ولا يزال حتّى اليوم يعرف بهذا الاسم، فقد كان نهر «قاديشا» يفيض فيحدث أضراراً ولا يُنتفع منه، فوضع فخر الملك أبو عليّ ابن عمار خطّة إنمائية تنظّم أمور النهر، وتمنع فيضانه، وتجريه في قنوات للرّيّ، فعاد على المدينة ومنطقتها بالخير العميم، ونمت المزروعات والبساتين والحدائق، وأمّن ذلك ثروةً زراعيةً ساعدت على رقي المجتمع، وازدهرت الحقول والأراضي المحيطة بالمدينة، بوفرة مزروعاتها وتنوّعها، وفاضت عن حاجاتها، فاحتفظت بأموالها، واستدرّت أموالاً من الخارج، وهذا ما كان عاملاً في نهوض الحركة الصّناعية والاقتصادية والثّقافيّة. وعرفت طرابلس، في كتب المؤرّخين والرحّالين، بكثرة ما تنتجه من الفواكه والثمار، حتّى لقد قالوا: إنّ فيها ما لا يوجد في سائر الأقاليم أصلاً، إذ لا يكاد يوجد دار بغير شجر لكثرة ما تخرق أرضها بالمياه، فهي تجمع بين ثمار الشّام ومصر. والفرنج عرفوا قصب السكر، لأوّل مرة، في بساتين طرابلس، فنقلوا غروسه إلى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا. ومن إنجازات بني عمّار إنشاء مصانع للورق، فقد كان الورق السمرقندي هو المشهور في العالم الإسلاميّ بجودته، فإذا بالورق الطرابلسي يفوقه جودة. وقد كان لوجود مصانع الورق أثر كبير

في رواج العلم والتدوين والتّأليف في طرابلس، وساعد على نهضتها الثّقافيّة العلميّة الأدبيّة، فكثر الورّاقون، ونشأت للتجليد صناعة فنيّة على الطّريقة الصينية من زخرفة وتوشيح بالخطوط الملوّنة. ومن الصناعات التي نهضت في طرابلس صناعة الحرير التي امتدّت مصانعها على ضفاف النهر، بما فيها من ألوف الأنوال والمغازل، وهذا ما أدهش الفرنج وأثار عجبهم. وقد عني بنو عمّار بالملاحة البحريّة فأنشأوا أساطيل تجاريّة كانت تجوب البحر حاملةً من طرابلس، أو ناقلةً إليها حاجات الناس، هنا وهناك، وقد أشرنا إلى بعضه في ما تقدّم. هذا عدا أسطولهم الحربيّ الّذي تولّى قتال أساطيل الصّليبيّين طوال عشر سنوات. ومن طرابلس عرف الأوروبيون البوصلة وكيفية استعمالها، عرفوا ذلك من البحّارة الطرابلسيين. وقد امتدت آثار بني عمّار إلى خارج إمارتهم، فهم الّذين بنوا الجهة الشّرقيّة من الجامع الكبير في مدينة حلب، وقد أثبت ذلك المؤرّخ ابن الشحنة الحلبي في كتابه (الدّرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب). كما كانوا يبعثون القضاة والخطباء إلى المدن الشّاميّة، ومن ذلك ما ذكره ابن تغري بردي، في كتابه (النّجوم الزّاهرة)، عن (ابن تلتمش)، أنّه عندما فتح حصن (أنطرطوس) من الروم سنة ٤٧٥هـ، بعث إلى صاحب طرابلس جلال الملك يطلب منه قاضياً وخطيباً ليقيم فيها. وفي أواسط القرن الحادي عشر الميلاديّ، كانت الدّولة الفاطميّة تمر في فترة من الانحلال والفوضى، ممّا جعلها غير قادرة على حكم بلاد الشّام. وفي الوقت نفسه، كانت الدّولة السلجوقية بدأت بالسّيطرة على العراق، وتتوسّع على حساب الدّولة البيزنطيّة. وأصبح العالم الإسلاميّ الشّرقيّ منقسماً قسمين: أحدهما يسيطر عليه الشّيعة بزعامة الفاطميّين، والآخر تركي يسيطر عليه الأتراك السلاجقة الّذين كانوا متعصبين لمذاهب السنّة. ومنذ أواسط القرن الحادي عشر الميلاديّ أصبحت بلادنا واقعة تحت تجاذب الدولتين الفاطميّة والسلجوقية. فأدّى ذلك إلى قيام إمارات محلّية وطنية في طرابلس، وحلب، وصور، ودمشق، وفلسطين. وكان أبرز هذه الإمارات، إمارة بني عمّار في طرابلس. وأسرة بني عمّار من قبيلة كتامة المغربيّة الإفريقية الشيعيّة المذهب، من صنّاع الدّولة الفاطميّة، قدموا إلى الميناء قضاة وولاة سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م في عهد الحاكم بأمر الله ووزيره أمين الدّولة أبو مُحمّد

الحسن بن عمّار بن أبي الحسين شيخ كتامة، وهو أول من لقّب في دولة المغاربة.
وتعتبر الشّيعية «الجهاد» ركناً من أركان الإسلام، والجهاد لا يكون بالسيف وحده، فقد يكون بتهذيب النفوس وصقل العقول، وبتكوين المؤمن القوي الّذي يكون خير مواطن صالح في ديار الإسلام. وجهاد الشّيعة طويل، ومتعدّد الجوانب، متشعّب الأطراف، متعدّد الألوان، فهو ديني وثوري وفكري واجتماعيّ. فقد شاركت جماعات الشّيعة في جميع الأحداث السّياسيَّة في التّاريخ الإسلاميّ، وكان لها شأنها وتأثيرها في المجالات الحضارية، وخاصةً الدّينيَّة والفكرية، وظلت الشّيعة طوال العصور تتصدر سائر الفرق والجماعات الإسلاميَّة. وكان من نتاج الشّيعة دولة إسلاميَّة عظمى هي الدَّولة الفاطميَّة التي يفخر كلّ مسلم بحضارتها وبدورها العالمي، وما زالت القاهرة الخالدة، وجامعة الأزهر العريقة، تشهدان على أمجاد المسلمين الفاطميّين. وفي سياق هذا المناخ أسس هذه الإمارة حسب قول المقريزيّ القاضي الأجلّ أمين الدَّولة أبو طالب عبد الله بن مُحمَّد بن عمّار بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن إدريس بن أبي يوسف الطائي (٤٥٩ ـ ٤٦٦هـ).
ويرى أكثرية المؤرخين أنّ استقلال القاضي ابن عمّار كان سنة (٤٢٦هـ ـ ١٠٧٠م)، بدليل تدخّله بين أمير الجيوش الفاطميَّة بدر الجمالي والأمير حمّود بن مرداس أمير حلب سنة (٤٥٩هـ ـ ١٠٦٧م)، وإصلاحه الحال بينهما، ممّا يدلّ على أنّه كان ما يزال قاضياً وليس مستقلاً بالمدينة. وقد حكم بعد استقلاله سنتين، ثم توفي سنة (٤٦٤هـ). ويعود الفضل إلى هذا القاضي بإنشاء المكتبة الشهيرة في طرابلس، وهي المكتبة التي كانت تضم أكثر من مئة ألف مجلد في مختلف العلوم والآداب. وكان ابن عمّار هذا أديباً بالإضافة إلى شهرته في الفقه والقضاء. وتسلّم الإمارة بعد القاضي المذكور ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن عليّ الذي حكم نحو ٢٨ عاماً (٤٦٤ ـ ٤٩٢هـ)، ويعود له الفضل الكبير في الحفاظ على استقلال طرابلس، وتوسيع إمارتها، من جبلة شمالاً إلى جبيل جنوباً، كما يعود إليه الفضل في وضع سياسة مرنة تجاه الفاطميّين، وتجاه السلاجقة الأتراك، فهو لم يقطع علاقته بالخليفة الفاطميّ بسبب تشيعّه وتشيّع أكثرية السكان في إمارته، وفي الوقت نفسه وقف يتصرّف مع السلاجقة كصديق وحليف، وبذلك حافظ على إمارته. ومن ذلك

أنّ صهره الأمير (حصن الدَّولة بن حيدرة) حاول الاستقلال بدمشق فهاجمه الفاطميّون فهرب ملتجئاً إلى طرابلس، ولكن جلال الملك سلّمه للفاطميين في القاهرة فأعدم هناك. وعندما جاء السلاجقة إلى بلاد الشّام بقواتهم الضخمة هاجموا الإمارة، وانتزعوا من بني عمّار حصن عرقة الشهير، وضربوا الحصار على طرابلس، ولكنّ جلال الملك راسل أمراء السلاجقة ودفع ٣٠ ألف دينار، وأبرز الحيلة بمناشير من السلطان السلجوقي تنصّ على إبقاء طرابلس في حكم بني عمّار، فنجحت حيلته ونجا من السلاجقة كما ذكر ابن الأثير في الصفحة (٣٠) من الجزء العاشر من «الكامل في التّاريخ». وكانت مدينة جبلة تحت الحكم البيزنطي، فأعان جلال الملك ابن عمّار قاضي جبلة «ابن صليحة» على الانفصال عن البيزنطيين، ثم ضمّها إلى إمارته، وبقي ابن صليحة قاضياً ومتسلّماً على جبلة من قبل جلال الملك حتّى وفاة هذا الأخير سنة (٤٩٢هـ - ١٠٩٨م)، فتسلّم الإمارة في طرابلس أخوه فخر الملك أبو علي، وحكم من سنة ٤٩٢هـ إلى ٥٠١هـ، وهي الفترة المناسبة لبدء الحروب الصَّليبيّة حتى سقوط إمارة طرابلس في أيدي الصَّليبيّين. وأول من أسس الإمارة في المدينة واستقلّ بها عن الدَّولة الفاطميَّة هو أبو طالب عبد الله بن مُحمَّد بن عمّار الملقب بأمين الدَّولة، سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٦م، والذي كان قاضي المدينة وواليها من جانب الفاطميّين، وسبب هذا الاستقلال السّياسيّ يعود لما كان يعانيه الميناء من قوة الجذب بين الفاطميّين والسلاجقة مما حدا واليها وقاضيها، على إخراجها من دائرة الجذب، وتحييدها عن النزاع الدولي، والاستقلال بها كمثيلاتها من المدن الأم. واشتهر فخر الملك بمقدرته في حماية إمارته من مختلف الأعداء المحيطين به، وقد حاول الاستنجاد بالعبّاسيّين، فذهب إلى بغداد في محاولة يائسة لإنقاذ طرابلس من السقوط أمام الصَّليبيّين. وجرت أثناء غيابه محاولة انقلابية في طرابلس نظّمها ابن عمّه «أبو المناقب بن عمّار». وبعد سقوط إمارة طرابلس انتقل إلى دمشق حيث ولّي منطقة الزبداني، فبقي فيها حتّى وفاته سنة ٦٢٠هـ. ويعتبر عهد عائلة بني عمّار في طرابلس من أزهى عهودها التّاريخية من النواحي العلميَّة والتّجاريَّة والزراعية والسّياسيَّة.

سقوط إمارة بني عمّار في طرابلس الشمال

بعد استتباب الأمر للصليبيين في القدس، توالت النجدات الصَّليبيّة في البحر، وبدأ توزّع الأمراء الصَّليبيّين على مناطق السواحل واحتلالها، لأنّهم شعروا بضرورة تأمين السواحل، لاستقبال نجدات البحر، وتأمين الطريق البرية مع البلاد البيزنطية، وقد عاد «بوهمند» أمير إنطاكية الصَّليبيّ، و«بودوان» أمير الرّها من القدس عن طريق البقاع، فأسرع حاكم دمشق الملك «دقاق» محاولاً الظّفر بالأميرين الصَّليبيّين عند بعلبك، ولكنّه لم يتمكّن إذ أفلتا من المحاولة (وليم الصوري). أمّا «ريموند دي سان جيل» فقد عاد بحراً إلى اللاذقية، حيث بدأ منها عملياته في التوسع وبناء إمارته. فجاءت وفاة «غودفروا دي بويون»، سنة ١١٠٠م، لتسبّب مشكلة للصّليبيّين بالنسبة إلى عرش المملكة الصَّليبيّة، فعاد أخوه «بودوان» من الرها، ومعه ٥٠٠ مقاتل، ومرّوا بطريق طرابلس بيروت. وبينما كان فخر الملك أبو عليّ بن عمّار يقدّم المعونة، إذا بالملك «دقاق» من دمشق، والأمير «تاج الدَّولة بن ملاعب» من حمص، يقطعان الطريق على «بودوان» عند نهر الكلب شمالي بيروت، ويقتلان كثيراً من جماعته، ولكنّه تمكّن من النجاة، ووصل إلى القدس حيث توّج ملكاً على الصَّليبيّين. وقد سبّب هذا الحادث إصرار الصَّليبيّين على احتلال السواحل اللُّبنانيَّة، ولكنه في الوقت ذاته أوجد الاختلاف الظاهر بين سلاجقة الشّام المعادية للفرنج، وسياسة بني عمّار المهادنة لهم، وربّما الموالية كذلك. وقد اقتدت صور كذلك بطرابلس، وأرسلت وفوداً لتهنئة «بودوان» بتتويجه وحملوا إليه الأموال. وبقيت دمشق بزعامة الملك «دقاق» معادية. ثم مضت أربع سنوات من المهادنة بين الصَّليبيّين والسواحل اللُّبنانيَّة تمكّن خلالها «ريموند دي سان جيل» من بناء حصن طرابلس سنة ١١٠٣م، وفي مطلع مارس/ آذار سنة ١١٠٤م قدم أسطول جنوى الكبير إلى اللاذقيّة فانتهز هذه الفرصة الأمير ريموند دي سان جيل وطلب مساعدة الأسطول في احتلال طرابلس، ولكنّ الهجوم عليها فشل، فرفعوا الحصار عن المدينة واتجهوا إلى جبيل، فقال ابن الأثير: «إنّ الفرنجة حاصروا مدينة جبيل وقاتلوا عليها قتالاً شديداً. فلمّا رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أماناً، وسلّموا البلد إليهم فلم توفّر الفرنج لهم بالأمان، وأخذوا أموالهم

واستنفدوها بالعقوبات وأنواع العذاب». وكان سقوط جبيل في ٢٨ أبريل/ نيسان سنة ١١٠٤م، وهي أولى المدن اللُّبنانيَّة التي سقطت في أيدي الفرنجة. وبسقوط جبيل بدأ يظهر تطويق «ريموند دي سان جيل» لإمارة طرابلس، من الشمال: جبلة، وطرطوس، ومن الجنوب: جبيل، فلم يبق أمام طرابلس إلا البحر وبعض مناطق عكار الموصلة إلى الداخل، وتمكّن «ريموند» من احتلال أقسام كبيرة من منطقة عكار، فعمد فخر الملك أبو عليّ بن عمّار إلى إرسال أصحابه في المراكب يغيرون على البلاد التي تحت سيطرة الفرنج ويقتلون من وجدوا، وقصد بذلك أن يخلو السواد ممن يزرع لتقلّ المواد عن الفرنج فيرحلوا عنه. وهكذا يكون حصار طرابلس الجدّي قد بدأ سنة ١١٠٤م. وفي السنة ذاتها، وإثر سقوط جبيل هاجم الصّليبيّون بمساندة الأسطول الجنوي مدينة عكا، فسقطت في أيديهم بالقوة. وقد أظهر سقوط عكا ضعف الفاطميّين في الدفاع عن المناطق التابعة لهم، ولعلّ ذلك هو الذي جعل بقية المناطق اللُّبنانيَّة تتجه نحو حكّام دمشق وبغداد لطلب المساعدة. وقد استغلّ فخر الملك ابن عمّار انصراف معظم الصّليبيّين من منطقة عكار وطرابلس إلى عكّا، فهاجم الحصن الذي بناه «ريموند دي سان جيل» فقتل من فيه ونهب وأحرق وخرّب، وأخذ منه السلاح والمال والديباج والفضة. وفي دمشق تسلّم الحكم بعد وفاة الملك «دقاق» الأتابك، طغتين، سنة ١١٠٤م. وحين عاد «ريموند دي سان جيل» إلى حصنه، وجده مهدّماً. «ويقول ابن الأثير إن ريموند، وقف على بعض سقوفه المحترقة فانخسفت به، وسببت له جروحاً، فمات متأثراً بها في ٢٨ فبراير/ شباط سنة ١١٠٥م، فحمل جثمانه ودفن في القدس. ثمّ تسلّم زعامة الصّليبيّين في منطقة طرابلس ابن أخت الأمير المتوفّى «وليم جوردان»، فتابع أعمال الحصار، واستنجد بالبيزنطيين، فأمدوه بحراً بالمعونة، ولكنّها وقعت في يد أسطول بني عمّار في طرابلس فاستفادوا منها. ولم ييأس الصّليبيّون، بل جدّدوا الحصار على طرابلس براً وبحراً، فاستنجد فخر الملك بأمراء المسلمين وملوكهم في دمشق، وحلب، والموصل، وديار بكر، وماردين، ولكنّ النجدة المطلوبة لم تصل بسبب اختلاف هؤلاء الأمراء والملوك فيما بينهم. فوقعت الضائقة الاقتصادية في طرابلس، حتّى اضطرّ فخر الملك ابن عمّار إلى مصادرة

أموال الأغنياء وتوزيعها على الفقراء، ممّا أدّى ببعضهم إلى الهرب والاتصال بالصّليبيّين ومعاونتهم على القضاء على حكم بني عمّار. ودام الحصار الشديد على طرابلس دون أية نجدة من الخارج حتّى سنة ١١٠٨م، حين رأى فخر الملك أن يذهب بنفسه إلى بغداد ليحصل على مساعدة تقضي على الحصار المضروب على المدينة، فتوجه مع ٥٠٠ رجل من جماعته إلى دمشق، وعيّن مكانه ابن عمّه أبا المناقب ابن عمّار، بعد أن أمّن له الأمور والأموال. ولكنّ أبا المناقب استغلّ الفرصة فانقلب على فخر الملك. وأعلن تبعيته للدولة الفاطميَّة على أمل الحصول على مساعدة من مصر. فعرف فخر الملك بذلك وهو في دمشق فأرسل إلى جماعته يطلب منهم القبض على أبي المناقب، فقبضوا عليه، وتابع سفره إلى بغداد حيث حصل على وعود كثيرة لم ينفذ منها شيء. ويبدو أنه ممّا أسهم في الانقلاب على فخر الملك أنّه أراد الاعتماد على بغداد، ممثلة السّنّة في مساعدة طرابلس بدلاً من القاهرة ممثّلة الشّيعة. فكان انقلاب الشّيعة عليه. وممّا يعزر هذا الرّأي هو أنّ أهل طرابلس نادوا بشعار الفاطميَّة بعد أن أنهوا عملياً حكم بني عمّار. فعيّن الوزير المصريّ الأفضل وهو شرف الدّولة ابن أبي الطيب، والياً فاطمياً على المدينة، ولّما وصل الوالي الجديد قبض على جميع بني عمّار وأنهى حكمهم رسمياً. وقد تمكّن الفاطميّون من السيطرة على طرابلس بسبب ضائقتها الاقتصادية، إذ حملوا إليها المؤن والأغذية، وطمأنوا أهاليها بقوة الأسطول الفاطميّ المصريّ. وحين عاد فخر الملك من بغداد إلى دمشق ساعده الأتابك، طغتكين، بجنوده على استرداد مدينة جبلة من الصّليبيّين فأقام فيها. ورأى حاكم عرقة من قبل فخر الملك أنّه أصبح عاجزاً عن حماية المدينة فسلّمها إلى طغتكين. وبدا أنّ طغتكين هو الّذي سيهاجم الصّليبيّين والفاطميّين معاً، إلا أنّ الأمير الصّليبيّ وليم جورردان، هاجم قلعة «عرقة» واحتلّها، وبذلك تنشط الصّليبيّون، ثم وصل من أوروبا برتران بن ريموند دي سان جيل، على رأس أربعة آلاف جندي وأسطول جنوي كبير. ودعا برتران الملك الصّليبيّ بودوان لمساعدته، وعُقد في قلعة طرابلس الصّليبيّة مؤتمر صليبي كبير، أعلن خلاله برتران ولاءه للملك بودوان، واتفق على أن تكون عرقة وطرطوس لوليم جورردان، وطرابلس حتى جبيل لبرتران، ويكون للجنويين امتيازات

تجاريَّة. وعلى هذا الأساس أطبق الصَّليبيّون على طرابلس، من البر والبحر، واستعملوا عليها الأبراج وقذفوها بالنيران. وتخاذل الحاكم الفاطميّ في الدفاع، كما أنّ الفاطميّين لم ينجدوا المدينة، فسقطت المدينة يوم عيد الأضحى سنة ٥٠٢هـ، أي في (١٢ يوليو/ تموز سنة ١١٠٩م). ويقول ابن الأثير في ذلك: «ومدّ الفرنج القتال عليها من الأبراج والزحف، فهجموا على البلد وملكوه عنوة، وقهروا يوم الاثنين في الإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، ونهبوا ما فيها، وأسروا الرجال، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة، وكتب دور العلم الموقوفة، ما لا يعدّ ولا يحصى، فإنّ أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالاً وتجارةً، وسلّم الوالي الذي كان بها، وجماعة من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها». وهكذا سقطت طرابلس وتحولت إلى كونتية صليبيّة. ثم سقطت جبلة في أيديهم، وانتهى فخر الملك بن عمّار أميراً في الزبداني من قبل الأمير طغتكين[1].

استقلال بني عمّار

في أواسط القرن الخامس للهجرة ضعفت الدَّولة الفاطميَّة في مصر، ونزل بها الهرم، وأخذ ظلها يتقلّص عن البلاد رويداً رويداً. فأكثرت الحكام من المظالم، وأرهقت السكان بأنواع الضرائب والرسوم الفاحشة، شأن الدُّول التي ينزل بها الهرم. وكان أبو الحسن أحمد بن نحرير الأرغلي، أمير طرابلس على نحو ذلك، يرهق الناس ويظلمهم ويصادرهم في أموالهم، فقام أهلها عليه وأخرجوه إلى حصن عرقة مقيّداً، ولم يتعرضوا لنهب ماله الذي سلبه منهم قهراً وظلماً، وكان القاضي في طرابلس يومئذ أبو طالب بن عمّار، فاستولى عليها واستبدّ بأمرها وهو شيعي المذهب، وفي أيّام ولايته أنشأ مكتبة جسيمة، بالغ بعض المؤلفين في محتوياتها، فأوصلوا عدد مجلداتها إلى عدد ضخم جداً، وأقل ما قيل فيها، إنّها كانت تشتمل

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، منشورات دار النهار، بيروت (١٩٧٧م)، ص ٩٩، ١٠٢.
محمد كامل البابا، طرابلس في التاريخ، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان.

على ثلاثماية ألف مجلد، وجعل مركزها في الميناء، ووظّف فيها ثلاثين كاتباً لنسخ الكتب. ومع ملاحظتنا لتغاير الأزمان، وتقدم المدينة، فإنّ هذا العدد من المجلدات لا يوجد في كثير من مكتبات العواصم الأوروبية اليوم، وهي في إبّان ترقّيها مدعومة باكتشاف الطّباعة، الذي هو أعظم اختراع لنشر المؤلفات والكتب بين الناس، فكانت هذه المكتبة، جوهرة في جبين الدهر، يقصدها العلماء من كل فج عميق، وقد تردد إليها أبو العلاء المعري زمناً طويلاً، واستفاد منها ما شاء له ذكاؤه. ولكن لم يطل زمن هذا الفيض العلمي، حتى قضى عليه جهلاء الصَّليبيّين، حينما هاجموا البلد، كما سيأتي ذكره لاحقاً. وفي رجب سنة ٤٦٤هـ، توفي أبو طالب بن عمّار أمير طرابلس، فتولّى مكانه جلال الملك أبو حسن ابن عمّار، فضبط البلد أحسن ضبط. وأضاف إليها كثيراً من النواحي، منها حصن جبلة. وعجز بدر الجمالي، من أمراء الدَّولة الفاطميَّة من مقاومته. وتقلّص لذلك الحين ظلّ هذه الدَّولة عن معظم البلاد السورية، فاستولى عليها السلجوقيون ملوك الأناضول، فصار أمير طرابلس وصور التي كانت يومئذ ذات مركز عظيم، يصانعان الأتراك السلجوقيين بالهدايا ويلاطفانهم بالمراسلات دهاءً وسياسة لردّ غاراتهم.

النَّهضة العمرانية في طرابلس أيّام بني عمّار

لّما تمكّن بنو عمّار من تسخير طرابلس والحكم عليها، كان ذلك سبباً لتأسيس حركة علمية اقتصادية تجاريَّة فيها. فنهضوا بأهلها وأخذوا يستفيدون من طبيعة هذه البقعة، وسلكوا بها سبيل الرّقي المدني والعمراني والعلمي، فكانت الزراعة والصناعة والتجارة آخذة بالرقي بنسبة متزايدة كلّما طال عليها الزمان. وكان أهلها لا يألون جهداً بنشر العلوم والمعارف والسعي لإنارة الأفكار. فشيّدوا الجوامع العظيمة، والتكايا، والمدارس، والخانقاهات، والبيمارستانات (المستشفيات)، وأوجدوا كثيراً من الأوقاف الواسعة لأعمال شتى من صنوف البرّ والخير، ممّا لم يتوصّل إلى مثله أبناء العصر الحاضر، وأنشأوا المكتبات التي كانت تعمل لتحرير الأفكار من أسر الفلسفة اليونانية المضرّة. وتولّى زعامة هذه النَّهضة المباركة بنو عمّار، وهم كثر، فمنهم القاضي أبو طالب المارّ ذكره،

وإسماعيل بن عمّار، وجلال الملك بن عمّار، وفخر الملك بن عمّار، ومنصور بن عمّار، وغيرهم. وقد أخذت مدينة طرابلس تتقدّم تقدّماً سريعاً في ظل العدالة والنَّهضة العمرانية الراسخة في نفوس ولاتها. وقد وصف لنا بعضاً من هذا الترقي «ناصر خسرو» قبيل منتصف القرن الخامس الهجريّ، أي قبل الاحتلال الصَّليبيّ بأكثر من نصف قرن. ومدينة طرابلس التي عناها رحّالتنا هي طرابلس الفينيقية التي أمر بهدمها الملك المنصور قلاوون فاتح المدينة. وإذا اعتبرنا ما ذكره صحيحاً، نجد أن طرابلس في وقتنا الحاضر أي بعد تسعة قرون متساوية مع ذلك الزمن بالخطط العمرانية، اللهمّ إلاّ ما أفادته الاكتشافات والاختراعات الحاضرة من عمران ومدنية. وكثرة الطبقات يومئذ لم تعهد إلاّ في الغرب، وما نظن البلاد السورية زادت طبقات بيوتها على ثلاث في معظم أدوار التّاريخ خلاف طرابلس. والمنقار النحاسي الذي ذكره ناصر خسرو ولم يزل مستعملاً قليلاً في بعض الدور القديمة في طرابلس إلى الآن باسم «سبع». ولا ريب أنّها إلى ذلك الحين كانت ممتعة بمياه جارية تتدفّق بأسواقها وبيوتها على نحو ما هي عليه اليوم.

غزو السلجوقيين لطرابلس أيّام بني عمّار

لم يدم أمد السلم في طرابلس بعد وفاة قاضيها أبي طالب أكثر من عشرين سنة، حتَّى اتفقت الأمراء من الدَّولة السلجوقية ملوك الأناضول على غزو بلاد سورية (٤٨٤هـ/ ١٠٩٢م). فأتى قسيم الدَّولة (آقسنقر وبوزان) أمير الرها، وتاج الدَّولة (تتش)، والسلطان ركن الدّين ملك السلجوقيين، على رأس جيش عرمرم، واستولوا على بلاد كثيرة كحلب وحمص ودمشق وغيرها، وفتحوا قلعتي عرقة وأفاميا قلعة المضيق. ثمّ ساروا إلى طرابلس ونازلوها، ونصبوا عليها المنجنيقات، وكان أميرها جلال الملك بن عمّار على جانب عظيم من الدهاء وبعد النّظر وأصالة الرأي. فلمّا رأى الجيش الذي نازله لا طاقة له به، ولا سبيل لدفعه إلا بالحيلة، عمد إلى أخذهم من هذا السبيل، فأرسل إلى الأمراء وأطمعهم بالمال، وطلب إليهم أن يصلحوا حاله مع تاج الدَّولة تتش ويردّوا غاراته، فلم ير فيهم مطمعاً. وكان مع تتش وزير اسمه «ذر بن كمر»، فراسله ابن عمّار، فرأى عنده ليناً، فأتحفه

وأعطاه، فسعى هذا مع قسيم الدَّولة آقسنقر في رد غارة الجيش عن طرابلس. وحمل ابن عمّار إلى الأمراء ثلاثين ألف دينار وتحفاً بمثلها، وأبرز لهم مناشير من سلطان السلجوقيين، بإقراره حاكماً على طرابلس، والله أعلم بصحة هذه المناشير. فلم يقبل منه تاج الدّين تتش، وتوقف قسيم الدَّولة عن قتاله وقال: «أنا لا أقاتل من كان في يده هذه المناشير». فأغلظ له أخو السلطان في الجواب وقال له: «هل أنت إلاّ تابع لي. فقال: أنا تابعك إلاّ في معصية السلطان، وانقلب من الغد عن موضعه متراجعاً. فرحل تاج الدَّولة، غضبان إلى دمشق. وعاد بوزان حيث انقلب بفرقته إلى الرّها. وهكذا انفضّ الجيش عن طرابلس، وانشق أمره بدهاء ابن عمّار وحنكته. وكان من أخبار هؤلاء فيما بعد، أن حمل تاج الدَّولة تتش الحقد في قلبه على آقسنقر، مذ قال له هذا يوم نزولهما على طرابلس: «نحن نطيعك إلاّ في معصية السلطان». كما أنّه لم يوافقه لاحقاً على رغائبه في نزع الملك السلجوقي من ابن ملكشاه، لينتصب ملكاً، فقتل تتش آقسنقر، وجزى الله تتش بأن قام أحد صنائع آقسنقر، فأخذ بثأره، وقتل تتش، واستراح ملكشاه من تصديه للملك، وهو الذي لم يقنع بملك الشّام، وفيه الكفاية والغنى. ودار الزمان دورته، فتسلّمت ملك الشّام ذرية تتش، لمدة قليلة، ريثما انتقل منها الحكم إلى مملوك آخر اسمه طغتكين، وهو بدوره سلّمه إلى حفيد آقسنقر، نور الدّين محمود زنكي الشهيد.

الحروب الصّليبيّة ودفاع ابن عمّار عن طرابلس

كان النصارى من أهل أوروبا يحجّون إلى القدس، وقد ازداد عدد حجّاجهم بعد عقد الاتفاق بين هارون الرشيد، وشارلمان الكبير، ملك فرنسا. فلمّا زالت دولة العبّاسيّين، وآل الحكم في سورية إلى الفاطميّين، أشعر الفرنج بهذا الانقلاب، حيث وقعت اضطهادات كثيرة على حجّاج النصارى، خصوصاً أيّام الحاكم بأمر الله، فهاجت خواطر دول الغرب، وحملهم ذلك على إثارة حروب طاحنة سمّيت الحروب الصّليبيّة، لأنّ جنودهم كانوا يضعون على صدورهم علامات من جوخ بشكل صليب. وسنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٨م، وافى القدس راهب إفرنسي سمّاه مؤرخو العرب بطرس الناسك، فشاهد من أعمال الفاطميّين ما أغضبه، وبعد أن حجّ وعاد إلى وطنه، أخذ يطوف المدن والقرى، ويلقي الخطب

المهيّجة، محرّضاً الناس على القتال، وقد ساعده «البابا أربان»، وفريق من رهبان أوروبا على نشر دعوته. فجمع جيشاً عرمرماً خرجت مقدمته، وعددها نحو ثمانين ألف مقاتل بقيادته من فرنسا حتّى وصلت إلى الآستانة. ثم اجتازت الأناضول، فخرج لملاقاتها «قليج أرسلان»، أحد ملوك السلجوقيين، فوقعت بينه وبينهم حروب طاحنة، لم ينج منها إلاّ القليل من الإفرنج، وبعد حين تغلّبت الجيوش الصّليبيّة على السلجوقيين ووصلوا إلى أنطاكية فاحتلوها سنة ٤٩٢هـ/ ١١٠٠م، واحتلوا كثيراً من سورية الشّماليّة. بعد أن رتّبوا أمر إدارتها، همّوا بالمسير إلى القدس، فذهب فريق في البر واستولوا على جبلة، وطرطوس. وكان للصليبيّين أسرى في اللاذقية فافتدوهم، وركب فريق منهم السفن، وجاء آخرون بطريق البر، فالتقوا عند مدينة عرقة التي كانت لذلك الحين عامرة بكثرة النفوس، وآثار هذه المدينة اليوم ظاهرة، ما بين نهر البارد ونهر عرقة في طريق الذاهب إلى حلبا. وهناك احتفلوا بعيدهم الكبير السّابع من نيسان. ثم وافاهم قوم من المردة الجراجمة، وهم أمراء النصارى من أهل سير، وجبال الضنية، وحدث الجبة، وبلاد جبيل، وما إليها من قضاء كسروان، ورحبوا بهم. كانوا ينجدونهم في مواقفهم وحروبهم مع المسلمين بالميرة والذخائر، وما لديهم من صنوف السلاح، مذّة الحروب الصّليبيّة كلها، فنقضوا بذلك عهود الذمة المعقودة بينهم وبين أهل البلاد. ويقول الصحافي الفرنسي، إدوار سابليه، الفرنسي أنّ ثلاثين ألف محارب ماروني انضمّوا إلى الصّليبيّين. ثم إنّ الصّليبيّين شدّدوا الحصار على عرقة، ونقبوا سورها عدة ثقوب، وأقاموا على حصارها أربعة أشهر. فأتى لنجدتها جلال الملك بن عمّار أمير طرابلس، وكانت عرقة تابعة له، فلم يقو على ردّ غارتهم عنها. ولهذا التزم أن يفتديها وطرابلس بخمسة عشر ألف دينار وخيل وبغال وأقمشة وميرة قدّمها لهم. وقد ذكر «ميشو» الفرنسي عن هذه الحادثة ما نصّه: «بعد أن تمكّن الصّليبيّون من كسر أمير طرابلس في معركة أقامها عليهم، حتّى بات مجبوراً أن يشتري سلام بلدته وراحتها بضريبة». ثم ساروا نحو القدس، وسار معهم أناس من المردة أهل لبنان، يهدونهم الطرق، ويعرّفونهم المسالك حتّى أوصلوهم إليها، واتفق ذلك سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م. وكان من شروط الصلح أن يكون للصليبيين

ضواحي طرابلس، وأن لا يقطعوا الطريق على الميرة والمسافرين منهم، وبهذا تيسّر للفرنج أن يحفظوا خط رجعتهم براً في طريقهم إلى القدس.

وصف طرابلس عند نزول الصَّليبيّين عليها

ولما نزل الصَّليبيّون طرابلس، أعجبتهم نضارتها وكثرة فاكهتها وأشجارها. وهم قد أتوها أيّام الربيع، كانت مكسوّة بحللها السندسية، وأزهارها العطرية، ولا سيما، يومئذ، بأرقى أدوارها الزراعية، ونهضتها العمرانية والصناعية، وكانت زراعة قصب السكر منتشرة فيها انتشاراً عظيماً، فلمّا ذاقه الصَّليبيّون، وكانوا لا يعرفونه، استلذوا طعمه، فنقلوا منه أولاً إلى صقلية وسائر إيطاليا، ومنه انتشر في غيرها من ممالك أوروبا. كان أهل طرابلس يستخرجون منه السكر، والصَّليبيّون يأكلونه أيّام الحصار. ومع أنّه يعدّ الآن من الأصناف التّجاريَّة المهمّة، لم يكن معروفاً يومئذ في الغرب. ثمّ تابع الصَّليبيّون سيرهم إلى القدس، فأجفل الناس من أماكنهم، وكانوا في كل بلد يدخلونه يقتلون أهله، ويخربون عمرانه، ويحرقون كتبه ومتاعه، ويدمرون آثاره. هام الناس على وجوههم في البراري، فمنهم من قصد إلى داخل بلاد الشّام وما إليها، ومنهم من فرّ إلى مصر على حالة يرثى لها. ولما هاجم الصَّليبيّون القدس، كانوا مندفعين بأشد حماسة، وأعظم استهتار في بذل الأرواح. وأخيراً غلبت الكثرة، ولم تنفع معهم شجاعة المسلمين، فملكوا القدس وما حولها من عكا، والرملة، ويافا، وغيرها. وبقيت بلاد الساحل البعيدة، تقاوم عشر سنين، أي نحو سنة ١١٠٩م، معتصمة وراء أسوارها، محصورة في بقعة ضيقة من ضواحيها، معتمدة على معاونة الفاطميّين لها من البحر. شعر وقتئذ القاضي عبد الله بن صيلحة، المتغلّب على ثغر جبلة بضعفه عن حماية بلده. فأرسل إلى نائب دمشق السلجوقي، يلتمس منه إنفاذ من يراه من ثقاته ليسلم إليه جبلة. فانتدب إليها ولده تاج الملوك، فتسلمها وأساء هو وأصحابه إلى أهلها، فشكوا حالهم إلى جلال الملك بن عمّار أمير طرابلس، ولم يكن، لعلو همّته ووفور مروءته، لتمنعه مدافعة الصَّليبيّين عن نجدة أهل جبلة، ومدّ يد العون إليهم، برغم أنّ طرابلس كانت يومئذ مهدّدة بالسقوط، والجيوش الغزاة لها في المرصاد. بل كان في وضع

يحتاج معه لتوفير كلّ جندي من جنوده للمحافظة على بلدته، فأنهض إليهم عدة وافرة من جيشه، فدخلها، واجتمعت مع أهل البلد على التركمان السلجوقيين، فقهروهم وأخرجوهم منها، وحملوا تاج الملوك إلى طرابلس، ومن هناك بعث به جلال الملك بن عمّار مكرّماً معزّزاً إلى أبيه. ولم يطل الأمر حتّى استولى الفرنج على ثُغر جبلة.

حصار سان جيل لطرابلس وقتل سبعة آلاف من الجيوش الإسلاميَّة

سان جيل الإفرنسي، أحد الأمراء الذين جاؤوا بالحملة الصَّليبيّة، وهو كونت مدينة تولوز، في فرنسا، خرج بقومه، وكان يريد الاستيلاء على طرابلس ليكون أميراً عليها، فخرجت أربعون مركباً من سواحل أوروبا مدداً له. فغرق بسبب الريح أكثرها، ووصل أقلها. فأتى سان جيل، بهذا المدد وحاصر ثغر طرابلس، فكتب جلال الملك بن عمّار إلى دمشق يستصرخ أهلها لمعونته، فسار عسكرها مع عسكر حمص إلى طرطوس، والتقوا الفرنج، فانهزم المسلمون، وعاد الفرنج إلى مناجزة طرابلس القتال، فعاد ابن عمّار إلى الاستصراخ لصاحبي دمشق وحمص، فعادوا لإمداده، ودفعوا بالاشتراك مع عسكر طرابلس غائلة الصَّليبيّين. وكانت وقعة عظيمة جداً استشهد فيها سبعة آلاف من الجيوش الإسلاميَّة، ثم جمع سان جيل، فلوله، وأتى المردة سكان جبال لبنان، وأهل القرى المجاورة من النصارى لمعونته، واستأنف سان جيل، حصار طرابلس جلال الملك. ولّما شعر ابن عمّار بعجزه عن حربه، هادنه على مال سلّمه إليه، فسار سان جيل، إلى طرطوس ففتحها وقتل من بها من المسلمين. ثم رحل إلى حصن (الطوبان) وهو يقارب (رفنية)، ومقدّمه اسمه «ابن العريض». فقاتلهم وانتصر عليهم، وأسر ابن العريض فارساً من أكابرهم. فبذل سان جيل، في فدائه عشرة آلاف دينار وألف أسير، فلم يجبه ابن العريض إلى ذلك. ثم سار سان جيل، وحاصر حصن الأكراد، فجمع تاج الدَّولة نائب حمص جموعه ليسير إليه فوثب عليه باطني من الإسماعيليَّة فاغتاله، فبلغ سان جيل ذلك فطمع في حمص، وترك حصن الأكراد ونازلها، فلم يقدر عليها، بل ملك ملحقاتها، ثم رجع لحصار طرابلس.

استئناف سان جيل لحصار طرابلس وموته وموت جلال الملك

وصلت مراكب الفرنج من بلادهم (١١٠٣م) إلى ظاهر اللاذقية، مشحونة بالجنود والتجار والحجّاج وغير ذلك. فاستنجد بهم سان جيل، المنازل لطرابلس لمضايقتها والمعونة على ملكها. فاجتمعوا معه ونازلوها، وقاتلوا أهلها أيّاماً ثم رحلوا عنها، ونزلوا على ثغر جبيل وأهله يومئذ مسلحين. ويطيب للمستشرق وأستاذ اللغات الشَّرقيَّة «آدم متز» الإشارة إلى أنّه يظهر «أنهم عملوا بمقتضى القاعدة السيّئة التي تجعل للأمير الحق في فرض المذهب الذي يريده، وهي قاعدة لم يناد بها أحد في الإسلام فضلاً عن أن تطبق تطبيقاً شرعياً»[1] ونعتقد أنّ «متز» غافل عن إدراك مقولة الدَّولة الإسلاميَّة في الشَّرق كتعبير شامل لمعان وحالات مختلفة من الدول، من حيث واقعها وتاريخها وجغرافيتها، ومن حيث الأحكام والنّظريات التي تحيط بها. ولا يصح القول إن الدُّول التي نشأت وتطورت في ديار الإسلام هي واحدة، بصفاتها وأشكالها، إذ لا يكون متفقاً مع الواقع العلمي. ذلك أن الدَّولة في الإسلام قد مرَّت بعهود متنوعة، منذ أيّام الرسول العربيّ، إلى أن ظهرت الدُّول الإسلاميَّة العصرية والحديثة»[2] وبرغم أنّ هناك خصائص مشتركة بينها، والمتناقضة مع المبادئ التي قامت على أساسها الدَّولة الإسلاميَّة في عهدها الأول، في عاصمتها المدينة، «فإنّ الدُّول الإسلاميَّة قد تعدّدت وتقلّبت بعد ذلك، بشكل لا يسمح إذن بالقول بأن ثمة دولة إسلاميَّة هي واحدة في معانيها وأركانها وأنظمتها، كما تخيّلها فقهاء الإسلام، وتبعهم في هذا المضمار كتاب الإفرنج، في دراساتهم «للدولة الإسلاميَّة»، كما ينعتونها لغاية اليوم»[3]. ولكنّ فكرة الدَّولة لم تفقد، برغم هذا، ما كان لها من القوة والسلطان، حتّى أنّ بني أمية في الأندلس لم يتخذوا لأنفسهم لقب الخليفة أو التسمية باسم «أمير المؤمنين»، بل كانوا يسمّون أنفسهم «بني الخلائف». وحينما جاء الفاطميّون كانوا أول من خرج على هذه القاعدة، ولم

---

(١) آدم متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، جزءان، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، طبع لجنة التأليف والترجمة، ط ٣، ١٣٧٧، القاهرة، ص ١١٩، ١٢٠.

(٢) إدمون ربّاط، **الوسيط في القانون الدستوري اللبناني**، منشورات الجامعة اللبنانية (١٩٧٠) ص ٤٦، ٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٩.

يكتفوا بأن يكونوا أمراء ذوي سلطة دنيوية فقط، بل أرادوا أن يكونوا الخلفاء الحقيقيين للنبي ﷺ، فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان في سنة ٢٩٧هـ ـ ٩٠٩م[١]. وكان الخليفة الفاطميّ على أشدّ ما يكون من المنافسة لبني العبّاس، فكان يخطب له في اليمن والشّام، زيادة على إفريقية ومصر، فقيام دولة الفاطميّين لهو أهم الحوادث السّياسيَّة في القرن الرَّابع الهجريّ وكان لمذهب الفاطميّين «دعاة منبثون في كل صقع وناحية»[٢]. ولقد قال الخليفة المعزّ لدين الله في كتاب أرسله لأحد قوّاد القرامطة عام (٣٦٢هـ ـ ٩٧٢م)، «وما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلاّ ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا، ويدلّون علينا، ويأخذون بيعتنا، ويذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا، وينذرون بأسنا، ويبشرون بأيّامنا، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن»[٣]. فبلغت سيطرة الدَّولة الفاطميَّة على الساحل السوري كلّه مثل صور، وبيروت، وجبيل، وطرابلس، وجبلة. وذكر المؤرخون أنّ الخليفة الفاطميّ الحاكم بأمر الله، قد أصابه الغرور «لما حقّقه من انتصارات على الروم، وخصوصاً في طرابلس سنة ٩٩٩م. ثمّ تمّ التوقيع على معاهدة صلح بين «باسيل الثّاني» والحاكم بأمر الله، مدتها عشر سنوات، ليتفرّغ كلّ منهما لمشاكله الخاصة[٤]. ومن الآراء الخاطئة القول إنّ منشأ التّشيُّع يرجع إلى مذاهب الفرس وتأثيرها في الإسلام، وهذا ناشئ عن خطأ تاريخي، ذلك أنّ حركة التّشيُّع نشأت على تربة عربيَّة خالصة، ولم تنتشر بين غير الساميين إلاّ بعد ظهور المختار[٥]. وقد أدّى أحياناً إلى صراع بين فريقين من المسلمين، وهو تعبير عن حيوية الأمّة الإسلاميَّة، وعن رغبتها في التطوّر وحرصها على التجديد، وعن تمسّكها بآرائها وتعاليمها من أجل حياة رغدة، وحضارة راقية. وإنّ الخلاف لا يمس إلاّ المسائل الثانوية، دون المساس بالعقيدة الإسلاميَّة السامية، وهي

---

(١) آدم متز، مصدر سابق، ص ٢٠، ٢١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧.

(٣) متز، نقلاً عن المقريزي، ص ٧٤.

(٤) أنطوانيت باسيلي، ثغور العرب في التاريخ، الحلقة الثالثة، العدد السادس والثلاثون من مجلة «تاريخ العرب والعالم» (١٩٨١م)، ص ٦٥.

(٥) آدم متز، مصدر سابق، ص ٤٥.

اختلافات في الآراء والوسائل، وقد يكون الاختلاف في الرأي والفضيلة. ونحن المسلمين، على اختلاف مذاهبنا، أمّة إسلاميَّة واحدة، تظلّلنا الأخوة الإسلاميَّة الوثيقة، نؤمن بالخالق العظيم، وبرسوله الأمين، ونتشيّع بحبّ آل البيت النبوي الطاهر، ودستورنا القرآن الكريم والسنّة النبوية الشَّريفة. ونحن المسلمين جميعاً على طريق واحد، رسمه الإسلام لنا، طريق الإخاء من أجل تحقيق السَّلام والرخاء.

الفاطميّون والصَّليبيّون

من بين المطاعن التي وجهت للفاطميين إقامة علاقة مع الصَّليبيّين أعداء المسلمين، وقد استغلّ هذا المطعن في تشويه الفاطميّين وإثارة الشبهات من حولهم، خاصة أنّ هذا المطعن قد استخدم وسيلة لتأكيد عداء الفاطميّين للمسلمين، وميلهم للصليبيين على أساس عقيدتهم الباطنية المعادية للإسلام. وبات هذا الأمر حقيقة مسلّماً بها عند الجميع، بحيث غطّى على كل مآثر الدَّولة الفاطميَّة وإنجازاتها. من هنا استبُيحت الدَّولة الفاطميَّة وحكامها من جانب المؤرخين الذين رصدوا تاريخها ووقائعها بمنظار الشك، وأعلنوا براءتهم منها وكفرهم بها. حتّى أنّ بعض المؤرخين رفض التّاريخ لدولتهم في كتاب له حوى تاريخ الخلفاء. والحقّ أنّ اتهام الفاطميّين بالعمالة للصليبيين، كاتهامهم بالزندقة والباطنية، وكذلك التشكيك في انتسابهم لشجرة آل البيت واتهامهم بتزوير نسبهم هذا. كلّ هذه تهم ابتدعت لأغراض سياسيَّة الهدف منها الحطّ من الفاطميّين، والقضاء على دعوتهم ونفوذهم بين المسلمين، بسبب تبنّيهم الخطّ الشيعي.

إنّ القضية في الحقيقة أكبر من مجرد الاتهام بالتعاون مع الصَّليبيّين، إنّها قضية الصراع بين السنّة والشّيعة. فقد كان السنّة ممثلين في الدَّولة العبّاسيَّة آنذاك، والشّيعة ممثلين في الدَّولة الفاطميَّة المواجهة لها. ومحاولة حصر القضية في دائرة العمالة للصليبيين، يعدّ تسطيحاً لحركة التّاريخ، وتعتيماً على أحداثه. لقد قاد العبّاسيّون حملة التشويه والطعن في الفاطميّين الذين سلبوهم مركز الرّيادة والقيادة في العالم الإسلاميّ، بل كادوا أن يسقطوا دولتهم ويوحدوا المسلمين تحت رايتهم، لولا ظهور القرامطة والسلاجقة. إنّ العبّاسيّين هم الذين شهروا سلاح

السنّة في مواجهة الفاطميّين، وزجوا بالفقهاء في المواجهة، حتّى يضفوا طابع الشرعية على حربهم السِّياسيَّة ضد الفاطميّين. ويبدو هذا بوضوح من خلال المنشور الذي أصدره العبّاسيّون، ينفون فيه نسب الفاطميّين، ووقع عليه كثير من الفقهاء والرموز الإسلاميَّة السُّنيَّة البارزة آنذاك. ومسألة التعاون مع الصَّليبيّين أو الإفرنج حين ظهروا في بلاد المسلمين لا تقتصر على الفاطميّين إن صحّ نسبتها لهم. وإنّما هناك صور كثيرة لهذا التعامل، برزت في بلاد الشّام، في وجود الفاطميّين، وفي عهد الأيوبيّين. فلماذا أثيرت هذه التهمة حول الفاطميّين وحدهم وأُغفل الباقون؟ والجواب واضح. لقد جعلت حالة العداء الكامنة في نفوس المؤرّخين السنّة تجاه الشّيعة، جعلتهم يتصيّدون الأخطاء، وينسبون المواقف، ويثيرون الشبهات حول الفاطميّين. وقد أعماهم الحقد على الشّيعة عن معرفة الحقيقة، ووضع الأمور في نصابها، والفحص والتحقق في الروايات التي تنسب للفاطميين، ممّا لا يعقل، وما يخرج عن حدود الخلق العلمي. ولا يزال بعضهم إلى اليوم يتناقل الفرية التّاريخية التي تقول إنّ الشّيعة يقدمون علياً على مُحمَّد، ويقولون إنّ جبرائيل أخطأ في الرسالة، وبدلاً من أن يهبط على عليّ هبط على مُحمَّد. إنّ التّاريخ يقصّ علينا مواقف خالدة ومشرفة للفاطميين في مواجهة الصَّليبيّين، من قبل ظهور آل زنكي و «صلاح الدّين». يروي ابن الأثير عن أحداث سنة ٣٨٧هـ، أنّه قد وقعت فيها معركة كبيرة بين جيش «برجوان» الفاطميّ، قائد جيوش الحاكم بأمر الله، وجيش «الدوقس» الرومي، وانهزم فيها «الدوقس»، ودخل جيش الفاطميّين أنطاكية. وفي هذا العام، يروي ابن الأثير أنّ الخليفة الفاطميّ العزيز بالله برز لغزو الروم، إلاّ أنّه توفي في الطريق بمدينة بلبيس، وسنة ٤٩١هـ، استولى الفرنج على بيت المقدس في عهد الخليفة المستعلي بالله، وسيّر الأفضل بن بدر الجمالي، وزير الآمر بأحكام الله، ابن المستعلي، الجيوش إلى الفرنج سنة ٤٩٨هـ، فقهرهم وأخذ الرملة، ودارت بينهم معارك طاحنة، لكنه لم ينجح في إخراجهم من القدس، وعكا، ويافا، وعاد إلى عسقلان. وكان مع الفرنج جماعة من المسلمين منهم «بكتاش بن تتش». وسنة ٥٠٣هـ، ملك الفرنجة طرابلس، وانطلق الأسطول المصريّ محمّلاً بالرجال والغلال والمال وغيره، ما يكفي لسنة،

وفرّقت المؤن هذه والذخائر في الجهات المنفذة إليها: صور، وصيدا، وبيروت، وسنة ٥٠٤هـ، قام والي عسقلان من قبل الفاطميّين بمراسلة الفرنج وهادنهم، وتحصّن بهم في مواجهة دولته. وجهّز الأفضل جيشاً، وسيرّه نحو عسقلان. ووثب أهل عسقلان على الوالي وقتلوه، وبذلك انتهت الفتنة وأنقذت عسقلان. وسنة ٥٠٨هـ حاصر الفرنج صور، فجهّز الأفضل أسطولاً وسيرّه إلى صور، فعزز أحوال أهلها، وصمدوا في مواجهة الفرنجة. هذا هو حال الفاطميّين مع الصَّليبيّين، حتّى ظهر آل زنكي وتصدوا لهم، وملكوا الشّام، وبدأت الدَّولة الفاطميَّة تضعف في مصر، حتّى سقطت في قبضة الأيوبيين سنة ٥٦٨هـ. وسنعرض هنا لقصة التعاون المزعوم بين الفاطميّين والصَّليبيّين، كما وردت في كتب التّاريخ المعتمدة. سنة ٥٥٨هـ، وبعد مصرع الصالح طلائع، الرجل القوي في جهاز الحكم الفاطميّ، في عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميّين. تولّى الوزارة من بعده ولده (رزيك) الذي لقب بالعادل، وسار على هدي سيرة والده الحازمة، في مواجهة الانحرافات والفساد داخل جهاز الدَّولة. وكان أن تصدّى «العادل» لنفوذ «شاور»، الذي كان والياً على الصَّعيد، وأراد عزله، فسار «شاور» بجيشه نحو القاهرة، وفرَّ «العادل» من أمامه، وظفر به «شاور» وقتله، وأصبح مكانه في الوزارة، ولقّب نفسه بأمير الجيوش، وكان سافكاً للدماء، مكروهاً. إلا أنّ الجو لم يصفُ لشاور، فقد ظهر في مواجهته رجل قوي، وهو الأمير ضرغام، من أتباع (رزيك)، ونازع شاور، ودارت بينهما معارك انهزم فيها شاور، وفرَّ إلى الشّام. وهناك أطمع نور الدّين محمود في غزو مصر، فجهّز معه شيركوه وصلاح الدّين والعساكر سنة ٥٥٨هـ. ودارت معارك بينهم وبين ضرغام انتهت بهزيمته ومقتله. ودخل شاور، القاهرة ثانية، تحت راية الأيوبيين آل زنكي. ثم حدث خلاف وصدام بين شاور، وشيركوه، اتصل شاور على أثره بالإفرنج التي قدمت وحاصرت القاهرة، وفرّ منها أسد الدّين شيركوه وصلاح الدّين، وعاد شاور، إلى القاهرة للمرة الثّالثة تحت راية الصَّليبيّين. وأقام بها على عادته بظلم الناس وقتلهم ومصادرة أموالهم، ولم يبقَ للعاضد معه أمر ولا نهي. وهنا لجأ العاضد إلى نور الدّين محمود، وأرسل إليه يستنجده، فعاد شيركوه إلى مصر وانهزم الفرنج، وقتل شاور، بعد أن أحرق

الفسطاط ونقض العهد مع شيركوه. هذه هي قصة تعاون الفاطميّين مع الصَّليبيّين الّتي ضخّمها المؤرّخون، واعتمدوا عليها في تشويه الفاطميّين. وهي على ما تبدو مسألة صراع سياسيّ، لا صلة له بالعقيدة، تزعّمها مارق لا دين له، هو شاور الذي كان يتحرّك من خلال مصلحته الخاصة، وليس من خلال الشّيعة أو الدَّولة الفاطميَّة. وها هو الخليفة العاضد ممثل الدَّولة يستنجد بنور الدّين السنيّ، لينقذ بلاده من شاور والإفرنج الصَّليبيّين. ثم إنّه بعد أن تم له التخلص من خطر الإفرنج وشاور، خلع على شيركوه الوزارة، مع أنه سنّيّ، وتوفي شيركوه بعد فترة قصيرة فنصب الخليفة من بعده صلاح الدّين وزيراً. إلاّ أنّ صلاح الدّين تآمر على العاضد حتَّى قضى عليه وعلى عائلته، وبذلك انتهى حكم الفاطميّين في مصر. ممّا دفع ببقايا الفاطميّين إلى التآمر عليه، ومحاولة الاتصال بالإفرنج لدفعه إلى الخروج من القاهرة بجنده، والاستيلاء على المدينة، إلاّ أنّ هذه المؤامرة جرى كشفها. وهذه الحادثة الثّانية ليست إلاّ ردّ فعل لمؤامرة صلاح الدّين على الفاطميّين، وبطشه بالشّيعة في مصر على ما سوف نبيّن. ومثل هذه المواقف وغيرها، ممّا ينسب للفاطميين، إنما هي مواقف سياسيَّة بحت، لا صلة لها بالمذهب الشيعي، ولا يجوز تحميلها على أساس عقائديّ. فإنّ السياسة كثيراً ما تتمرّد على الدّين، وإذا ما حاولنا ضبط مواقف الخلفاء، سنّة وشيعة، بضوابط الإسلام فسوف نجد تناقضاً كبيراً، خاصّة خلفاء بني أميّة وبني العبّاس، والفاطميين برغم نجاحهم في تحويل المصريّين من السنّة إلى الشّيعة، ليتحول الشّيعة إلى أكثرية في مصر، لم يضطهدوا المذهب السنّي، بل كان له وجوده ونشاطه. حتّى أنّ بعض فقهاء المالكية والشافعية تولوا مناصب في الدَّولة، مثل القاضي أبي عبد الله القضاعي الشافعي. ولعلّ هذا ما دفع بالقلقشندي أن يقول: إن مذهبي مالك والشافعي ظاهري الشعار في زمن الفاطميّين، ولو كان الفاطميّون باطنية وزنادقة ويضمرون العداء للإسلام والمسلمين، كما يدعون، فلماذا تسامحوا مع المذاهب الأخرى وهي واقعة في دارة نفوذهم؟ يقول الدُّكتور عبد المنعم الماجد: لا بدَّ لنا أن نقرَّ أنّ الدعوة الشيعية، أيّام المستنصر، نجحت إلى حدّ لم يسبق لها. وأنّ المسلمين، من غير الشّيعة والقبط، كانوا يتمتعون بحريّتهم المذهبية والعقيدية إلى حدّ كبير.

الفصل الخامس

هويّة طرابلس الشّام الإسلاميَّة وإشكالياتها

بدأ التّاريخ الإسلاميّ بوصف مدينة طرابلس الشّام بأنها قاعدة عسكرية بحريَّة، شبه مهجورة من السكان المدنيين، ثم إذ بها، وكأنّما فجأة، مدينة كبرى مزدهرة إنتاجياً وفكرياً، ازدهاراً ميّزها من سائر مدن الساحل الشّامي، ومركز مهم من مراكز التَّشيُّع في المنطقة الشّاميَّة، ثم صارت إلى إمارة صليبية، تكاد تكون في تركيبتها السكانية، ونظامها السّياسيّ، ومعالمها الحضارية، مثل أي مدينة أوروبية في ذلك الزمان. ثم إذا بها أيضاً أطلال مسوّاة بالأرض، بعد أن حرّرها المسلمون فدمّروها تدميراً، مثلما يقتل ابن السفاح، وهنا ينتهي تاريخ «طرابلس» الإسلاميَّة، ولم يرتفع شأنها يوماً عن أكثر من ميناء لا يزال يحمل هذا الاسم حتّى اليوم. أما الاسم الأصلي فقد ورثته مدينة أخرى، بُنيت في جوار المدينة المنكودة الحظّ، ولم تستعد «طرابلس» اسمها بعد ذلك إطلاقاً.

امتد تاريخها المجيد منذ أواسط القرن الرَّابع الهجريّ، العاشر الميلاديّ، حتّى نهايات القرن السّادس الهجريّ، الثّاني عشر الميلاديّ، أي مدة قرن ونصف القرن، على وجه التقريب. في تلك الفترة كانت حاضرة مزدهرة بكل معاني الازدهار، إنتاجياً وحضارياً وفكرياً. ومن دواعي الأسف إن أكثر تاريخ تلك الفترة قد ضاع، وما من شك أنّ السبب في ضياعه، يعود إلى الانقطاع الذي حصل بالاحتلال الصَّليبيّ الطويل لها، ثم جاء تدميرها ليقضي على المعالم المادّية للمدينة، التي لو أنّها لم تدمر، لكانت عوناً للمؤرّخ في بعض جوانب تاريخها. والباقي في أيدينا اليوم، مما يصلح أن يكون مادة تاريخية، لا يزيد على أن يكون

تسجيلات تاريخية متناثرة، وملاحظات ثمينة تركها لنا عدد من الجغرافيين، فضلاً عن بعض آثار فقهائها وأدبائها، وهي تتضمّن مادة غنية برسم الدّراسة.

وحينما دخلت «طرابلس» التّاريخ الإسلاميّ، بوصفها ثغراً، فهذا يعني أنّها قاعدة قتالية حدودية، الأمر الذي استمر طوال القرن الأول للهجرة، السّابع للميلاد. في ذلك الحين كانت، فيما يبدو، أقلّ شأناً من «بيروت» و«صور»، جارتيها على ساحل البحر، في كلّ شيء، والظّاهر أنّها بقيت مدة طويلة أسيرة وضعها العسكري المضطرب، الذي عوّق النّمو الذي تستحقه. ولم يجد المؤرّخ والجغرافي الشهير ابن واضح اليعقوبي، حوالي الربع الأخير من القرن الثّالث للهجرة، العاشر للميلاد، ما يقوله فيها سوى «أن أهلها قوم من الفرس، كان معاوية بن أبي سفيان نقلهم إليها»، وأنّ مدينة لا يجد مؤرّخ وجغرافي متمرّس، عرف المنطقة معرفة مباشرة، ما يقوله فيها إلاّ استدعاء تغيير سكاني، يرقى إلى ما يزيد على قرنين، لمدينة بطيئة النمو حقاً، فضلاً عمّا في كلمته «قوم من الفرس» من إشارة غير خفية إلى ضآلة عدد سكانها، وانعدام تنوعهم عرقياً. ممّا نفهم من ذلك أنّها لم تكن مرغوبة للسكن من المدنيين، ولسنا نجد سبباً لذلك سوى ما سبقت الإشارة إليه.

لكنّ ناصر خسرو القبادياني، الذي زار المدينة في ٥ شعبان ٤٣٨هـ، ٦ شباط/ فبراير ١٠٤٧م، يصفها وصفاً يودع في ذهننا صورة مختلفة تماماً عن تلك التي رسمها لنا اليعقوبي. فهو يصفها بمدينة عامرة، غنية، حصينة، لا يكاد ينقصها شيء مما هو من شأن مدينة ناهضة فيها كل عناصر المدينة الإسلاميَّة النموذجية المزدهرة، في ذلك الزمان: الجسم، المساكن، والغلاف السور، والقلب المسجد، ومكان التبادل السوق، وجهاز الإنتاج المصنّع، تستقر وسط مزدرع حسن التروية خصيب. أين هذا من تلك الصورة الجرداء، الغارقة في تاريخيتها، عند اليعقوبي؟! هل للاختلاف الحاد بين الصورتين علاقة بتباين المنهج عند صاحبيهما، واتجاهات كلّ منهما العلميَّة؟ فاليعقوبي مؤرّخ وجغرافيّ رائد، وكتابه (البلدان) ثمرة عناية فائقة بما يسميه هو «علم أخبار البلدان». وهو أبو هذا العلم بغير منازع.

وبوصفه مؤرخاً، لا نستغرب أن تبرز في مؤلفه هذا آثار معرفته بتاريخ البلدان التي عُني بوصفها، وخصوصاً آثار الأحداث الماضي على تركيبتها السكانية الحالية. والحقيقة إنّ مؤلّف (البلدان) هو نسيج متين، يتقاطع فيه التّاريخ والجغرافيا، كما تتقاطع الخيوط في سجادة متينة جميلة الحياكة، فتتماسك وتتكامل وتغني، شكلاً ولوناً ووظيفةً. أمّا ناصر خسرو، فهو رجل أصدق ما يوصف به أنه مثقّف، واسع الثّقافة غنيّها، وإن غلب عليه الفلسفة والشعر، فهو ذو اطّلاع واسع على الفلسفات والأديان، من يهوديّة ومسيحيّة ومجوسيّة وهنديّة. يحسن إلى جانب الفارسيّة، لغته الأصليّة، العربيّة والسنسكرتيّة، عدا أنّه من أعظم الشعراء بالفارسيّة وأغزرهم إنتاجاً. وما يزال ديوانه، المعروف باسم (ديوان ناصر) منتشراً حتّى اليوم.

ولأمر ما، لا علاقة له بوضع الكتاب، ولا بموضوعه، قام برحلة واسعة، طالت سبع سنوات، ساقته إلى جزيرة العرب ومصر والشّام، بعد أن أدّى مناسك الحج. ولأمر ما أيضاً، سجّل ما رآه في رحلته بدقة وعناية. وتتصف تسجيلاته بالبراءة والصدق، وإن كانت لا تخلو من المبالغة في بعض الأحيان، ولكنّها مبالغة لا سمة خاصة لها. أي أنّها لا تنبئ بميل خاص مستحكم، يكيّف الرؤية وفقاً للهوى، إذ لا موضوع خاصاً لها، فهي إذن أقرب إلى أن تكون طبعاً ومزاجاً ونمط شخصية. على هذا لا بدّ من الجمع بين النصين، وذلك بالقول إن الاختلاف بينهما يرجع إلى اختلاف زمن صدورهما. فاليعقوبي قال ما عنده في «طرابلس» كما عرفها، هو، دون ريب، متأثراً في ما قاله بمنهجه التّاريخي ـ الجغرافي، وخصوصاً بمعلوماته التّاريخية. ولكنّ من المستبعد جداً أن يكون قد أخضع كل الحاضر للمروي التّاريخي، لو لم يكن ذلك الحاضر استمراراً وتكراراً لا جديد فيه. أمّا ناصر خسرو فقد رأى «طرابلس» دون أن يكون في ذهنه أيّ تصور للمدينة، لا في الماضي ولا في الحاضر، فوصفها ذلك الوصف المحيط، الذي تخفى فيه أمارات الدهشة. ونحن اليوم حين ننقل أبصارنا بين النصين، من الأول باتجاه الثّاني، نكاد نرى المدينة وهي تنمو، مثلما تمنح الحركة الحياة للصور الساكنة في فيلم سينمائي. إلا أنّنا نستطيع أن نستنتج بسهولة، أنّ «طرابلس» قد نمت سكّانياً وإنتاجياً وعمرانياً خلال القرن الرّابع الهجريّ، العاشر الميلاديّ، على الأرجح، من مجرد

نشر

تابستان، ١٣٥٢ هـ.ش

ثغر عسكري يعمره مرابطون، إلى مدينة، بكل ما يعنيه مفهوم المدينة الإسلاميَّة في ذلك الأوان.

والعبارة التي يجب أن تبعث أكبر قدر من الدهشة في نص ناصر خسرو، لدى القارئ العارف بالتّاريخ، الأكثر قدماً للمنطقة، والذي استندنا إليه، هي قوله: «وسكّان طرابلس كلّهم شيعة، وقد شيّد الشّيعة مساجد جميلة في كل البلاد. وهناك بيوت على مثال الأربطة، ولكن لا يسكنها أحد، تسمّى مشاهد». والمؤكّد لدينا أنّ المقصود بـ «شيعة» في النص، الإماميَّة الاثنا عشرية على وجه التحديد، أو على الأقل «على وجه التغليب القوي. وهذا حكم يدعمه تاريخ كامل، بجميع عناصره، من سياسيَّة وفكرية، نجد بقاياه في كتب التّاريخ والسير والأدب والفقه، دون أن يعني ذلك أنّه لم يكن هناك أقليات من غيرهم. لكن مشكلة «طرابلس الشيعية» بالذات بالغة التعقيد، قياساً على كل المراكز الشيعية الأخرى في «الشّام». فهنا، «طرابلس» المدينة بالمعنى الحضاري للكلمة من تلك التي تكاد تكون خالية خاوية على عروشها، كما أرانا إياها اليعقوبي. وهناك «طرابلس» الثّقافة، التي حملت عنواناً كبيراً وأساسياً هو التّشيُّع، الذي لم يظهر لدى ناصر خسرو إلا بتلك العبارة القصيرة، التي لا نتوقع أكثر تفصيلاً منها من مثله، بوصفه سائحاً لم يقض فيها غير فترة قصيرة. الفاصل بين الوجهين هو، بالطبع، تحليلي وليس موضوعياً. وعليه فإنّ أي تفسير لظاهرة «طرابلس» المدينة ـ الثّقافة لا بدّ أن يتسع لوجهيها في الآن نفسه، يجب أن يفسر ذلك الصعود السريع للمدينة خلال مدّة قصيرة نسبياً، ويجب أن يفسر شيعيتها وتشيّعها.

إذن عندما نطرح الآن سؤالنا الذي صار تقليدياً: من أين أتوا؟ فإنّ علينا أن لا نقنع بتفسير أعور. يجب أن يكون هؤلاء الذين لا مفرّ من فرض أنهم أتوا، قد حملوا معهم بالإضافة إلى تشيّعهم، العامل الإنساني في صعود المدينة وازدهارها، بحيث أدت المزاوجة بين إمكانات «طرابلس»، الميناء الممتاز والمزدرع الواسع الخصيب، وبين ما يمكن أن يقدّمه نزّالها الجدد، إلى ذلك الصعود العجيب. ثم علينا، ما دمنا نحدّد مشكلة البحث التّاريخي، أن نأخذ في الاعتبار أن «طرابلس»

في تشيّعها لم تكن ظاهرة معزولة عن جوارها. ونكتفي بالوقوف على عبارة من نص ناصر خسرو، لما فيها من دلالة خاصة على ما ذكرناه آنفاً من قوله: «وقد شيّد الشّيعة مساجد خاصة في كل البلاد»، مع التشديد على كلمتي «كلّ البلاد» التي تعني دون ريب بلاد «طرابلس» وجوارها.

وعلى أنّ العبارة عامة، بحيث لا يصحّ الاستناد إليها في تحديد دقيق، خصوصاً أنّها صادرة عن كاتب غريب عن المنطقة، ليس من المتوقع منه أن يكتشف ما بين البلدان من روابط غير الجغرافيا السطحية، ومع ذلك فإنّ ما يفي بالحاجة، حيث يقتصر غرضنا على تحديد مشكلة البحث. إذن من أين أتى أولئك الشّيعة الذين نهضوا بطرابلس ونهضت بهم ذلك النهوض السريع؟ لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إنْ لم نشر إلى منطقة «الضنية» أو «الظنية» المنطقة الجغرافية المجاورة لطرابلس، والتي تقع في شمالها الشّرقيّ، والتي ما زال يطلق هذا الاسم على جبالها بعد أن تحوّر اللّفظ من «الظّنية» إلى «الضّنّيَة»، وهي الآن قضاء من أقضية الشمال. ولقد اختلف المؤرّخون والجغرافيّون في رسم حدود جبال «الضنية». فالقلقشندي يعتبرها «كورة بين مصياف وأفامية»، وليس بها مقرّ ولاية، ويسميها بعمل «جبال الظنيين». مما يعني أنّ حدود تلك الجبال تصل شمالاً إلى أفامية، مجتازاً المنطقة السهليّة المعروفة باسم «ممر حمص»، ليشمل «جبل بهراء» المعروف بدوره باسم «جبال العلويين». أمّا المؤرّخ حسن بن حبيب فقد حدد «جبال الضنية» بأنّها بين «دمشق» و«طرابلس». وهذا يعني بدوره أنّ حدودها هي أقلّ من تحديد القلقشندي لها، مع أنّ ما بين «دمشق» و«طرابلس» يضمّ الكورة والبترون وجبيل وكسروان ومناطق «جبل لبنان» لتصل إلى دمشق. كما ذكر المؤرّخ «بيبرس المنصوري» أنّ جبال الظنيين هي نفسها جبال كسروان، وهو يعطي جبال الضنية بعداً جغرافياً أوسع من الشمال إلى الجنوب، بحيث شمل سلسلة الجبال الواقعة بين طرابلس وبيروت من جهة الساحل، وطرابلس وبعلبك من جهة الداخل. و«الظنيين» هم ربّما فرقة من فرق الشّيعة، وإنْ كان هناك اختلاف في تحديد الأصول والمعتقد والانتماء. إلاّ أنّه نعت أطلق على الجماعة الشيعية التي سكنت وعمرت ذلك الجبل المجاور لمدينة طرابلس، ثم من الصعب جداً قبول

فكرة أنّ فرقة أو أهل مذهب، تكون من الكثرة بحيث تملأ منطقة واسعة متوسّطة، وتمنحها اسمها، ثمّ لا نجد لها ذكراً في المصنّفات المتعدّدة الموضوعة لبيان الفرق الإسلاميّة[1].

يبدو أنّ حظوظ هذا الكتاب منوطة بالنصوص النادرة، وما هي في الحقيقة محض حظوظ، ولكنّنا نعمل خارج التّاريخ الرسمي ـ السلطوي، إذ ما نزال نخضع للرقابة المحكمة نفسها التي وجّهت عمل الذين سجّلوا التّاريخ، وأن تكون عيون الرقباء قد أكلها التراب منذ قرون. فهنا أيضاً عثرنا على مفتاح مشكلتنا في نص فريد، وجدنا لدى ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (٧٠٠ ـ ٧٤٩هـ/ ١٣٠٠ ـ ١٣٤٨م) في (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الفصل المخصّص لقبائل العرب في عصره/ ١٥٥)، ولدى القلقشندي، أبي العبّاس أحمد (٧٥٧ ـ ٨٢١هـ/ ١٣٥٥ ـ ١٤١٨م) في (صبح الأعشى: ١/ ٣٢٨) وفي (نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب/ ٤٣٩) وباختلاف بسيط بين المصدرين، منشؤه تصحيف النسّاخ، وضعف التحقيق، نصّاً يقول: «وبالجبل المعروف بالظنيين من الشّام فرقة من همدان». سندرس سند هذا النص، فإن وجدناه أهلاً للثقة، عمدنا إلى نقد المتن واستخراج خبيئه، وهذه خطة درج عليها أهل الحديث والفقه.

يصرح القلقشندي في (صبح الأعشى) بأنّه أخذ النص عن (مسالك الأبصار) ولكنّه في (نهاية الإرب) يقول إنّه أخذه عن الحمداني. إذن، فالحمداني هذا هو أول راو نعرفه للنص، أو أنّه مصدره، والحمداني هذا هو بدر الدّين يوسف بن سيف الدَّولة الحمداني التغلبي (٦٠٢ ـ ح: ٦٨٠هـ/ ١٢٠٥ ـ ١٢٨١)، واستناداً إلى (الدرر الكامنة: ٥/ ٢٣١) فإنّه وضع «تصانيف في الأنساب»، ولكن من المحزن ألاّ نعرف لها اليوم نسخة. ويفهم من كلام العسقلاني المقتبس أعلاه أنّه لم يعرفها أيضاً، وإلاّ لكان ذكرها أو ذكر بعضها بالاسم. بَيْدَ أنّنا لا نشكّ أنّ القلقشندي والعمري كليهما، بالإضافة إلى المقريزيّ في كتابه (البيان والإعراب عمّا في أرض

---

(١) جعفر المهاجر، التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية، دار الملاك، بيروت، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، ص ١٢٨، ١٣١.

مصر من الأعراب)، فضلاً عن أنّ ابن خلدون في (العبر)، هم جميعاً عالة على الحمداني، بطريقة أو بأخرى، فيما كتبوه عن مواطن انتشار القبائل العربيّة، في «مصر» و«الشّام». والحقيقة إنّ هذا الرائد أسس الكتابة في هذا الموضوع، وبذلك خرج على سنن المؤرّخين التقليديين السابقين عليه، وكان عمله من المتانة بحيث إنّنا لا نعرف كتابة عن القبائل العربيّة في تلك المواطن، لم تعتمد عليه بطريق مباشر أو غير مباشر، وبذلك استحقّ عن جدارة لقب «نسّابة العرب»، (الدرر الكامنة/ نفسه)، والظّاهر أنّ عمله، كما هو شأن الأعمال الرائدة أحياناً، لم يلق سريعاً الاهتمام الذي يستحقه، وهذا يفسّر لنا ضعف انتشاره، بحيث فقدت نسخته بعد قرن ونصف من وضعه.

تولّى الحمداني منصب «المهمندار» في البلاط المملوكي، وهي وظيفة موضوعها «تلقّي الرسل الواردين وأمراء العرب وغيرهم، ممّن يرد من أهل المملكة وغيرها» (صبح الأعشى: ٤/ ٢٢). إذن، فصاحبها أشبه بمدير التشريفات اليوم (مهمان بالفارسيّة تعني: ضيف). ثمّ صار لهذه الوظيفة شأن كبير، بعد أن اعتمد المماليك سياسة جديدة تجاه القبائل البدوية، أدّت إلى نظمها في أجهزة الدّولة، عن طريق منصب استحدثوه يحمل اسم «إمرة العرب»، وجعله رتبة عسكرية عالية. في هذه الصيغة صار عمل المهمندار أشبه بضابط اتصال بين السلطة المركزية وشيوخ القبائل. من هنا كان المنصب يقتضي معرفة واسعة ودقيقة بالقبائل، وأنسابها، وأمرائها، وأماكن انتشارها، والعلاقات في ما بينها، فضلاً عن استيعاب سياسة الدّولة تجاهها، هذه السياسة التي كانت عرضة للتغيير بين وقت وآخر تبعاً للمقتضيات. والجدير ذكره أن والد بدر الدّين شغل الوظيفة نفسها من قبله، بحيث أنّ العسقلاني في (الدرر الكامنة: ٥/ ٢٣١) يلقبه بـ «مهمندار العرب».

أمّا العمري فقد كان هو الآخر من كبار موظفي البلاط المملوكي، تولّى كتابة السر في القاهرة ودمشق (الدرر الكامنة: ١/ ٣٥٢). وكتابه الضخم يشهد بطول باعه في الشؤون الإدارية والمعارف المهيئّة لها، ومنها الجغرافية الطبيعية والبشرية والتّاريخية، وآخرهم القلقشندي، أشهر من نعرّف به وبكتابه الذائع الصيت.

إذن، فهذا النص الثمين قد وصل إلينا عن طريق ثلاثة من أكفأ الرجال الذين وضعتهم طاقاتهم العلميَّة، وخبراتهم العملية، في مناصب إدارية عالية، في البلاط المملوكي في القاهرة، يوم كانت هذه عاصمة لسلطة مركزية، تبسط سلطانها على المنطقة التي عنوا بوصفها. وكانوا جميعاً، بحكم مسؤولياتهم، في موقع ممتاز، يشرف بهم على موضوعات أعمالهم. وفي هذا الإطار العملي وضعوا مؤلّفاتهم. حقاً إنّ الأخير أخذ عن الأول، كما سبقت الإشارة، ولكنّ مجرّد نقلهما أقواله دون اعتراض عليها، وهما الخبيران بموضوعها، هو شهادة ضمنية منهما بصحتها. وهذه هي النتيجة التي نصل إليها بتتبع طريق النص إلينا. ولا مراء بعد هذا في القول إن النص يتمتّع بقدر واف من الثقة، أكثر مما يتطلبه المؤرخون عادة[1].

يبقى سؤال أخير ذو علاقة بالسند: هل النّصّ للحمداني، وعن موضوعه بالخبر والعيان؟ أم هو رواية تحكي ما وجده عنه غيره؟

أهمية هذا السؤال، من حيث علاقته بتاريخ صدور النص، ممّا يمكن أن يلقي الضوء على موضوعه، ففرق بين أن يكون موضوع النص حالة مشهودة من قبل الحمداني نفسه، أو حالة تاريخية أخذها عن مصادرها التي لم تصل إلينا، بحيث لا يكون الحاضر بالضرورة موضوعاً لها، مثلما كان يمكن أن يكون حال نص القلقشندي، لو لم يصرّح بالمصدر الذي أخذ عنه، مما أتاح لنا أن نعلو بالسند إلى العمري، ثم منه إلى الحمداني.

واضح أن لا سبيل لنا إلى جواب قاطع أو مرضٍ على الأقل، استناداً إلى النص نفسه أو إلى ملابساته، وذلك لافتقارنا إلى النص الأصلي، وربما لو كان بيدنا كتاب الحمداني المفقود لكفانا مؤونة السؤال، الذي سيبقى على الأرجح دون جواب. وعلى كلّ حال، فستكون لنا عودة إلى موضوعه، من خلال مصادر ومعلومات ومقارنات أخرى.

هذا بالنسبة للسند، فماذا عن المتن؟ إنّ النصوص التّاريخية النادرة، إذا

---

(١) المصدر السابق، ص ١٢٦.

فُسرّت وحلّلت على نحو سليم، مع الاستعانة بما يكن أن تقدّمه نصوص ومعلومات مساندة، قد تكون ذات فائدة، خصوصاً حيث يواجه الباحث ظلاماً مطبقاً، ليس فيه بصيص ضوء. إنّ البصيص الذي يبدو في نهاية نفق معتم لن ينير الطريق حتماً، ولكنّه يحدّد للتائه في داخله، الاتجاه الذي عليه أن يسلكه لكي يخرج من كربته، وهذه بالتحديد مهمة النص الذي نعالجه. إنّ عليه، بالإضافة إلى معطاه المباشر، أن يقود عملية البحث والتأمّل، إذ من المتوقّع أن نجد نصوصاً أخرى، كانت مهملة لأنّها تفتقر إلى الفكرة الناظمة لها.

إذن، فوظيفة هذا النّصّ هي ذاتية أولاً، بما يقدمه من تصوّر جديد، بالنسبة إلينا، وبالنسبة إلى مستوى البحوث في موضوعه، وغيرية ثانياً، من حيث إنّه يؤهّلنا للإفادة من نصوص أخرى، ما زالت ميتة بالنسبة إلى البحث والباحث. وتاريخ البحث المنهجي حافل بأمثال فتحت فيها ملاحظة أو فكرة وحيدة آفاقاً بكراً شاسعة، لأنّ تلك الفكرة أو الملاحظة كان لها من قوة الإنارة، أن أضاءت مساحة واسعة، بحيث كشفت عناصر معرفية كانت في متناول اليد، لكنّها معطّلة تماماً، لأنّها غارقة في الإبهام، معزولة عمّا يمكن أن تتكامل معه.

النّصّ مركّب من عنصرين أساسيّين: جغرافي بشري هو «الجبل المعروف بالظنيين»، وإنساني هو «فرقة من همدان».

وعلينا أن نتناول بالدرس كلا العنصرين.

يقول القلقشندي، وهو يتحدّث عن القسم الثّاني من أعمال طرابلس: الأعمال الصغار، إنّ عمل «الظنيين» هو «كورة بين مصياف وأفامية»، (صبح الأعشى: ١٤٨/٤). وما من شكّ أنّ التحديد يحكي التقسيم الإداري الذي كان معمولاً به من السلطة المملوكية في القرن الثّامن للهجرة، الرّابع عشر للميلاد، ولا علاقة له بالتسمية التّاريخية وحدودها. إنّه يتحدّث تحت عنوان «عمل الظنيين» وليس «جبل الظنيين»، ومعلوم أن العمل يعني وحدة إدارية، توضع حدودها لاعتبارات لا علاقة لها لا بالتّاريخ ولا بالجغرافيا.

أمّا الاسم التّاريخيّ فإنّه مكوّن من عنصرين، أولهما طبيعي هو «جبل»،

والثّاني سكّاني هو «الظنيين». والتّحديد الذي قرأناه عند القلقشندي يتجاوز الاثنين معاً، يتجاوز العنصر الطبيعي، حيث يصل شمالاً إلى أفامية، مجتازاً المنطقة السهلية المعروفة باسم «ممر حمص» ليشمل «جبل بهراء» المعروف اليوم باسم «جبل العلويين». وما من شكٌ أنّ «جبل بهراء» أو «جبل العلويين» كان له دائماً اسمه المستقلّ المنفصل والمغاير لـ «جبل الظنيين»، وإذ يتجاوز النص العنصر الطبيعي، يتجاوز أيضاً العنصر السكّاني، أعني «الظنيين». الاسم التّاريخيّ الذي ما زال متداولاً حتّى اليوم، بعد أن تطوّر إلى «الضنية» يبدو أكثر صدقاً، وإن تكن التقسيمات الإدارية الحديثة قد شوّهت دلالته، بعدما سلخت عنه ما بات يعرف بـ «قضاء زغرتا»، في حين أنّ «الضنية» نفسها ألحقت بـ «طرابلس»، فصار اسمها الرسمي «قضاء طرابلس». والظاهر أنّ «جبل الظنيين» التّاريخيّ يعني ما يشمل اليوم القسم الجبلي من قضاء طرابلس، بالإضافة إلى قضاء زغرتا.

ومع ذلك، أي مع اقتناعنا الكافي بوجاهة ما ورد أعلاه، في شأن هذه المسألة الغامضة، فإن هناك احتمالاً لا يصحّ إغفاله، خصوصاً أنّه ذو علاقة بإحدى المشكلات التي يطرحها تاريخ بعض أهل المنطقة، وهذا ما سنتطرق إليه لاحقاً، هو أن يكون التحديد الإداري، الذي كان معمولاً به في الوقت الذي سجّل فيه القلقشندي، ما عنده من معلومات عن «عمل الظنيين»، قد أخذ في الاعتبار خصوصية العنصر السكاني، الذي نعرف أنّه عمر المنطقة التي حدّدها. وعلى كلّ حال، فليحتفظ القارئ بهذه الملحوظة في ذهنه، عسى أن تكون مفيدة في ما يأتي.

أمّا العنصر السكّاني «الظنيين»، فالمعروف أنّه يشير إلى فرقة شيعية سكنت الجبل. ومثل هذا مألوف في المنطقة، ومن ذلك «جبال العلويين»، التي كانت تسمى من قبل «جبل بهراء»، نسبة إلى «بني بهراء القضاعيين»، و«جبل الدروز» نسبة إلى هذه الفرقة، و«جبل عامل» نسبة إلى بني عاملة اليمانيين، و«وادي التيم» نسبة إلى بني تيم الله بن ثعلبة، وهم من بطون بكر بن وائل. وهذه التسميات تحكي جانباً من قصّة التبدّلات السكّانية في «الشّام»، سواء تلك التي حصلت قبل الإسلام أو بعد الانتشار الإسلاميّ، وكذلك المضطرب العقدي الذي خاضه المجتمع

الإسلاميّ. فهي وثائق ثمينة ونادرة، سجّلت فيها أجزاء من تاريخ ضائع[1].

ولكن ليس هناك، فيما نعلم، فرقة شيعية أو غير شيعية حملت اسم الظنيين، أو أي اسم قد تشتق منه نسبة كهذه، ومن الصّعب جداً قبول فكرة أو فرقة أو أهل مذهب، تكون من الكثرة بحيث تملأ منطقة واسعة متوسّطة وتمنحها اسمها، ثم لا نجد لها ذكراً في المصنّفات الموضوعة لبيان الفرق الإسلاميّة، وهي التي عُنيت بذكر تمذهبات موقّتة وصغيرة، دارت على أمور تافهة، بادت دون أن تخلّف أيّ أثر، على صعيدي الفكر والناس. أضف إلى أنّه من المستبعد جداً أن تطلق فرقة على نفسها مثل هذا الاسم الذي يَشي بالحيرة والبعد عن اليقين شيئاً.

لذلك فإنّنا نميل إلى القول، إنّه إذا كانت هذه التسمية تتصل بالفعل بفرقة شيعية عمرت ذلك الجبل، فإنّها مما نبذها به غيرها، ومثل هذا غير نادر، بل كان جزءاً من لغة الصّراع ذي الوجه السّياسيّ، بين الفرق والمذاهب الإسلاميَّة. ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على أي كتاب من الكتب المعنية ببيان الفرق الإسلاميَّة، لكي نرى هذه الحقيقة واضحة. وبالنسبة للمنطقة الشّاميَّة خصوصاً، فإنّنا نعرف أنّ الشّيعة الذين سكنوا «كسروان» يذكرون في بعض كتب التّاريخ المعاصرة باسم «الجرديّين». كما أطلق على بعض شيعة «جبل عامل» اسم «المياذنة»، الأوّل نسبة إلى الجرد، وإشارة إلى أنّهم كانوا يسكنون الجبال العالية الوعرة، والثّاني إلى منطقة زراعية واسعة، تقع قرب مدينة النبطية في جبل عامل، عرفت بـ «نبع غزير» فيها، اسمه «نبع المأذنة»، ما زال يعرف بهذا الاسم حتّى اليوم.

يبقى القول في المناسبة التي من أجلها حمل أولئك، أو بناءً على وجهة نظرنا، حمّلوا اسم الظنيين، وهذا ما لم نعثر له على وجه. وعلى كلّ حال، فإنّ البحث مفتوح، وعسى أن نعثر أو يعثر غيرنا على ما ينير السبيل.

مهما يكن، فإنّ المغزى المهمّ بالنسبة إلى بحثنا، في القول إن الظنيين هم فرقة شيعية، يكمن في أنّ واضعيه والذين تناقلوه من بعدهم، لم يجدوا تعليلاً يمكن

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٨.

قبوله، سوى القول إنّه مأخوذ من اسم جماعة شيعية عمرته، ممّا يشير إلى مرتكز قوي ومشهور، بحيث لا يمكن تجاوزه، هو أنّ الشّيعة هم حصراً بناة هذا الجبل التّاريخيون. هذا الارتكاز يتصل بسياق تاريخي نعرف عنه ما يكفي، ظلّ مستمراً حتّى ما بعد نهاية الوجود الصَّليبيّ في طرابلس، في حين يقدم لنا نصّ ابن فضل الله العمري ما يعيننا على فهم منطلق هذا السياق، خلافاً لكل المعطيات المحلية، وهذا هو فضله على بحثنا.

فهذا ما يسعنا قوله في الشق الأول من عبارة العمري «الجبل المعروف بالظنيين». أما بالنسبة للشقّ الثّاني منها «فرقة من همدان» فإنه يطرح سؤالين: أولهما مباشر، يتعلق بحجم الوجود الهمداني في «جبل الظنيين»، ذلك المشار إليه بـ «فرقة». وآخر غير مباشر، ولكنّه جزء أساس من طبيعة العمل التّاريخي، ويتعلق بتاريخية ذلك الوجود.

أمّا كلمة «فرقة» فإنّها لا تدلّ في ذاتها على عدد يمكن تحديده، ولو على نحو تقريبي. ولكن، لما كان هذا الوجود ملحوظاً بحيث سجّل، رغم أنّه يستقرّ في بقعة ظلت لفترة طويلة بعيدة عن مجرى الأحداث، فإنّ هذا يدلّ على أنّه وجود بارز.

لكن الكلمة تنطوي على معنى يتصل بالسؤال الثّاني، هو أنهم، أعني الهمدانيين النازلين «جبل الظنيين»، جزء من جماعة افترقت إلى بضع فرق، واستعمال الكلمة بالذات يشير إلى أنّ هذا الأمر كان معروفاً، مركوزاً في أذهان المتصلين به بدرجة أو بأخرى، ويناسب ما عرفناه من وجود الهمدانيين كأكثرية في «حمص» وفي أطراف «بعلبك»، فضلاً عن أماكن أخرى.

هذا التحليل بمجمله ذو فائدة مزدوجة بالنسبة لما نعالجة الآن، فهو من جهة يدلّ على أنّ عدد الهمدانيين الذين نزلوا «جبل الظنيين» لم يكن قليلاً. ومن جهة أخرى يدلّ على أنّ نزولهم كان في الآن نفسه الذي نزلوا فيه منزليهم الآخرين، وربما غيرهما.

ثم إنّه إذا صح أنّ الموارنة قد شرعوا ينزلون «جبل لبنان» في أواخر القرن السّابع الميلاديّ، وتحديداً مطلع سنة ٦٨٥م/ ٦٦هـ، بعد أن اضطرّوا إلى ترك

مواطنهم في وادي «نهر العاصي»، كما يرجح أكثر المؤرخين المختصين (صليبي: منطلق تاريخ لبنان/ ٤٣)، فإنّ اختيارهم للأعالي الباردة القاحلة، أي بلدة «بشري» وجوارها دون الشمال، الأكثر دفئاً والأغنى بالمياه والأراضي السهلة الاستصلاح نسبياً، أعني «جبل الظنيين» أو «الضنية»، لَيدلّ دلالة شبه أكيدة، على أنّ هذه كانت مأهولة بالسكان في ذلك الوقت، بحيث حال ذلك بينهم وبين نزولها، وألجأهم إلى ذلك الاختيار الأسوأ. هذا، بالإضافة إلى أنّ انتشارهم في ما بعد جنوباً، باتجاه «البترون» و«جبيل»، دون الشمال أيضاً، يؤكّد الدلالة نفسها.

إنّ الجمع بين هذه التحليلات، بما فيه المقارنة الأخيرة، يصل إلى تحديد واضح لما يعنيه «جبل الظنيين»، في نص العمري. ومن ثم، واستناداً إلى النّصّ نفسه، منزل الهمدانيين، الذين لا يمكن أن يكونوا قد قدموا إليه إلاّ من «الكوفة»، مثل إخوانهم الذين نزلوا «حمص»، لكلّ الأسباب المذكورة آنفاً. وثانياً، وعلى وجه التخصيص، فإنّ ما استفدناه من كلمة «فرقة»، بالإضافة إلى المقارنة التّاريخية مع نزول الموارنة، بتقاطع مع التصوّر الذي وصلنا إليه سابقاً لتاريخ هجرة الهمدانيين من «الكوفة»، ذلك التصور الذي وصلنا إليه نتيجة استقراء الأحداث التّاريخية الكبرى التي وقعت في الكوفة بعد عام الجماعة، سنة ٤١هـ/ ٦٦١م، فإذا كان نزول الموارنة «جبل لبنان» قد بدأ نحو سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥م، وإذا كان اختيارهم منطقة «بشري» يحمل الدلالة التي ذكرناها أعلاه، فإنّ سنة ٤١هـ، أو بعيدها بقليل، يبدو تاريخاً تقريبياً مقبولاً لنزول «الهمدانيين» «جبل الظنيين»[1].

المعطيات التّاريخية تبدو الآن متناسقة تماماً، مثلما تتناسق الكلمات في جملة مفيدة. من هنا نصل إلى نتيجة مهمة على صعيد البحث، كنا قد طرحنا موضوعها بشكل سؤال في مستهل هذا الفصل، هي أنّ نص الحمداني يتحدث عن معلومة تاريخية، منقولة عن مصادرها المجهولة بالنسبة إلينا، وليس عن واقعة عرفها من خبرته الشخصية ومن طبيعة عمله، وربمّا كان وجود الهمدانيين في «جبل الظنيين» أمراً معروفاً عند الناس حتّى زمان الحمداني، أي حتّى القرن السّابع

(١) المصدر السابق، ص ١٤٠.

الهجريّ، الثّالث عشر الميلاديّ، يؤيّد هذه النتيجة، أنّنا لا نعرف، لا من (مسالك الأبصار)، ولا من غيره، أنّه كان لهمدانيي «جبل الظنيين» حضور سياسيّ بأي شكل من الأشكال، أو علاقة أو اتصال بالسلطة المملوكية، بحيث تستدعي من المهمندار الاتصال بهم، وتجعل منهم موضوعاً لعمله، بل إنّنا شبه متيقّنين من أنهم ظلوا مدة طويلة كامنين في معاقلهم الجبلية الحصينة، يعيشون ويتكاثرون بصمت، وفي عزلة كاملة.

أعتقد أنّ طريقنا إلى حل جميع المشكلات التي طرحها علينا بروز «طرابلس» العجيب والمفاجئ، بكامل تركيبتها وخصوصاً الثَّقافيَّة، قد أصبح سالكاً الآن، سيكون من الغريب جداً، بل من غير المعقول، أن لا يكترث نُزّال «جبل الظنيين» الجدد للمدينة شبه الخالية، التي هي على مرمى حجر منهم، وهي التي تعد من ينزلها بجميع ما منحتها إيّاه الطبيعة من أعطيات، تجعلها مهيّأة لاستيعاب أعداد كبيرة من الناس، ينعمون بخيرها العميم، خصوصاً أنّنا لا بدَّ أن نفترض، أنّه خلال ما يقرب من القرنين من الزمان من الكمون في الجبل، كان أولئك الهمدانيون قد تكاثروا، بحيث وصلوا بمنزلهم إلى حد الاحتقان السكّاني، وبات التوازن مفقوداً بين القدرة الإنتاجية للجبل وبين عديد سكّانه المتكاثر. فضلاً عن أنّ التهديد الرومي، الذي عوّق نمو المدينة، وحال بين المدنيين وبين نزولها آمنين، ارتفع عنها في ما بعد ببروز القوة البحريَّة الطولونية.

إذن لا مفر لنا، ونحن نبحث عن سرّ ذلك البروز المفاجئ للمدينة، من الربط ما بين الخزّان البشري، الباحث عن منفذ قادر على استيعاب الزيادة السكانية الطبيعية، التي تراكمت خلال أجيال، وبين طرابلس المجاورة، التي شاء لها موقعها على الحدود الجديدة، التي تشكّلت بالانتشار الإسلاميّ، أن تتحوّل من مدينة إلى ثغر، ولكنّها ظلّت، بحسبما يبدو، وبرغم ذلك، محتفظة بالبنية التحتية المادية للمدينة، بفضل سلامتها من التدمير. وبذينك العاملين، أعني مجاورتها لخزان بشري محتقن وسلامة بنيتها المادية، باتت مهيّأة للانبعاث من جديد وبسرعة، فور ارتفاع التهديد الرومي عنها، واستقرار الأمور من حولها.

علينا أن نسجّل هنا، أنّ «طرابلس» لم تكن في هذا الأمر على عمومه بدعاً بين الحواضر، التي صارت لاحقاً من «لبنان»، فبمقدار ما نعي التاريخ ونشكّل تلك الحواضر سكّانياً، نعرف أنّ تركيبتها السكانية قد ساهمت فيها الجبال بقسط وافر، فبمقتضى التقاليد والمنظومة الأخلاقية السائدة في تلك الجبال، فضلاً عن نمط الإنتاج وأسلوب العيش، فإنّ العائلة الكبيرة مفضّلة على العائلة الصغيرة. ولكن القدرة الإنتاجية للأرض الجبلية محدودة جداً، بحيث إنّه سرعان ما ينشأ الاختلال بين عديد السكان وكمية الغذاء المنتجة، ولذلك كان هناك دائماً حركة انتقال، ذات اتجاه واحد، من الجبال باتجاه السواحل أو الداخل، ابتغاء إعادة التوازن المفقود، لا استثناء من ذلك سوى الظروف التي يختلّ فيها الأمن، وتصبح حياة الناس مهدّدة بسبب الحروب أو الفتن، عند ذلك تنعكس الحركة لتتجه صوب الجبال الأكثر أمناً عادة، ولكنّ هذه الحركة المعاكسة موقّته، تزول بزوال أسبابها.

من هنا يمكن أن نتصوّر ما حدث لـ «طرابلس»، وهي تتحول من ثغر إلى مدينة، وتنمو ذلك النمو العجيب، وكأنّه يحدث أمامنا. فبمجرّد أن هدأت الأمور من حولها، وارتفع عنها التهديد الرومي، حتّى بدأ الناس يفدون إلى المدينة شبه الخالية، من أقرب خزّان بشري، أعني «جبل الظنيين»، مثلما يحدث حينما تصل بين وعاءين أحدهما ملآن والآخر فارغ، إذ يأخذ السائل بالانتقال بدافع طبيعي باتجاه الفارغ، إلى أن يتحقّق التوازن بين الإناءين.

هذه النّظرية تفسّر جميع المشكلات التي يطرحها علينا بروز «طرابلس» المفاجئ، بل على رأسه هويتها المذهبية، فهي أولاً: تناسب قاعدة أنّ التّشيُّع في «الشّام» جبلي في الأساس، لا ساحلي ولا سهلي، وهي قاعدة علينا أن نحترمها، ونأخذها في الاعتبار، إلاّ حيث يقوم دليل على خلافها، وذلك بسبب طبيعة التّشيُّع الفكرية وعقيدته السّياسيَّة، فضلاً عن تجارب أهله التّاريخية، التي تأبى عليهم الاندماج في المجتمعات المدينيَّة السلطوية.

وهي ثانياً: تفسّر التركيبة الثّقافيَّة لـ «طرابلس» كما وصفها ناصر خسرو، وكما هو ثابت على كل حال، وهي في الأعماق شيعية إماميَّة. فما لا ريب فيه، أنّ النموّ

السكّاني، وتلك الشخصية الثّقافيّة قد نشآ على نحو متواز، أو هما بالأحرى وجهان لتغيّر واحد، ولم يكن أحدهما، خصوصاً التغيّر السكاني، سابقاً على الآخر، أي إنّه لم يحدث نموّ سكّاني ثمّ تلاه تحوّل مذهبي، إذ لو كان شيء من ذلك لبانت آثاره. وعلى كلّ حال فإنّ تحوّلاً كهذا لا يمكن أن يخفى.

هو ذا تصوّر لما كان من أمر «طرابلس» على وجه الإجمال، في الفترة الحرجة من تاريخها، أعني لحظة تحوّلها من ثغر إلى مدينة.

ولقد كان لهذه الصيرورة قصة ولا ريب في واقع الأمر، ثم لا ريب أنّها كانت قصّة جميلة، بل ربمّا آلاف القصص الصغيرة، ولكم يخفي هذا التّاريخ في طيّاته من أقاصيص عن كفاح الناس وآلامهم وآمالهم، يأتي مؤرخ ليختصرها في ما بعد بسطور معدودات، غير معنيّ إلاّ بالحدث الأكبر. لكنّ أجمل ما فيها عندي، هذه الحركة المعقودة بعنان التحوّلات التّاريخية الكبرى، بعد أن تنضج أسبابها بهدوء، بعيداً من مستوى المراقبة. ولكنّ هذه القصة ضاعت تفاصيلها، لأنّها حدث، برغم ضخامته وبعيد أثره، هادئ صنعته الجماهير العادية، التي تستجيب بوعي غامض وعجيب إلى إشارات التغيير، ولم يكن فيها إشارات التغيير، ولم يكن فيها لسلطة وسياستها وفعلها دور مباشر، ولم يدر عليها صراع، مما يتفنّن كتّاب التّاريخ في وصفه.

والظاهر أنّ صعود نجم المدينة قد بدأ في الفترة التي كانت فيها تحت حكم الطولونيّين. وهناك ما يكفي من الأدلّة على ذلك. ففي عهدهم زار ابن واضح اليعقوبي «طرابلس»، حيث قال في مينائها إنّه «ميناء عجيب يحتمل ألف مركب»، وهو وصف مبتسر جداً، يا للأسف، وخصوصاً أنّه لا يلتفت إلى درجة النشاط الفعلي فيه، ولكننا نعلم من مصادر أخرى، أنّ ابن طولون وابنه خمارويه من بعده (٢٧٠ ـ ٢٨٢هـ) (٨٨٣ ـ ٨٩٥م) قد أوليا موانئ «الشّام» عناية كبرى، فرمّمها وحصّنها وشحنها بالسفن المخصصة للقتال (الكندي: الولاة/ ٢٥٨)، وهذه سياسة مفهومة جداً، فالطولونيون حكموا دولة بحريّة، تقوم عقيدتها العسكرية على قوة السلاح البحريّ، على العكس من عبّاسيّي «بغداد» الداخلية. وقد ترك مؤسّس

الدَّولة الطولونية عند موته أسطولاً قوياً، مؤلّفاً من مائتي سفينة حربيَّة كبيرة بكامل تجهيزاتها.

من هنا ندرك أنّ سبب تأثّر اليعقوبي بمنظر ميناء طرابلس، هذا الذي أودعه عبارته المذكورة آنفاً، لم يكن عائداً إلى سعته فقط، بل إلى النشاط الذي يزخر به، ومن ذا الذي يتأثّر بهذه القوّة بمنظر ميناء ميت.

ولا يذهبنَّ بقارئ الظن، إلى أنّنا بهذين الفهمين، اللذين يبدوان متهافتين لنصّ اليعقوبي، نجمع بين الصّيف والشّتاء على سطح واحد، فنهوض الميناء لاعتبارات عسكرية قد سبق نهوض المدينة، وهيّأ له، وما «طرابلس» بأوّل مدينة ينهض بها ميناؤها.

ثمّ علينا أن لا ننسى، أنّ التهديد الرومي للسواحل الإسلاميَّة على «البحر المتوسِّط» كان تهديداً بحريّاً بالدرجة الأولى، لو أنّه كان مستنداً إلى دعم بحريّ للقوات البرية. ومن هنا فإنّ إنشاء أسطول إسلاميّ قويّ على يد الطولونيين قد رفع التهديد الذي كان لجم المدينة، وحال دون نهوضها، ومنح الهمدانيين الكامنين في الجبال القريبة، فرصة الهبوط منها، فنهضت «طرابلس» ذلك النهوض العجيب[1].

هكذا، عندما وصف اليعقوبي «طرابلس» ذلك الوصف الغارق في تاريخيّته، كانت المدينة ما تزال في سباتها الطويل، ولكنّ ميناءها كان بالفعل يدعو للعجب، لسعته الطبيعية، وبما أدخله عليه الأميران الطولونيّان من ترميم وتحصين، وبما شحناه من سفن ومقاتلين بحريّين.

الفاطميّون والعلوم

كان في مقدّمة ما عني به الخلفاء الفاطميّون جمع الكتب، ممّا يستدلّ معه على ميلهم إلى إحياء العلوم، وشغفوا بصفة خاصة بجمع النادر من الكتب في كل علم وفن. وكثيراً ما كانوا يحرصون على اقتناء نسخ من مختلف الكتب بخط

(١) التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية، مصدر سابق، ص ١٤٥.

مؤلّفيها، ويدفعون في سبيل ذلك أغلى الأثمان، مبالغة في التحقيق والتدقيق، هذا فضلاً عن تنسيق تلك الكتب وتبويبها، والمحافظة عليها وفق نظام دقيق، تيسيراً للرجوع إليها والاغتراف من مناهلها[1].

خزانة الكتب

وقد ذكر المقريزيّ في خططه أنّهم اختزنوا كتباً في الفقه على سائر المذاهب، والنحو واللُّغة، وكتب الحديث، والتواريخ وسير الملوك، والنجامة والروحانيات، والكيمياء، والمصاحف الكريمة، بخط «ابن مقلة» ونظائره كابن البواب وغيره، وثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة، وألفين وأربعمائة ختمة قرآنية في ربعات، بخطوط منسوبة، زائدة الحسن محلاّة بذهب وفضة. وأنّ جميع ذلك ذهب فيما أخذه الأتراك في واجباتهم، أي أجورهم ومرتباتهم، ببعض قيمته أيّام الشدة الكبرى في عهد الخليفة المستنصر. ومن طريف ما ذكره المقريزيّ في هذا الشأن: أنّ رجلاً حمل إلى «العزيز بالله» نسخة من كتاب «الطَّبريّ»، اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز أمناء المكتبة فأخرجوا من الخزائن ما يزيد على عشرين نسخة من تاريخ الطَّبريّ، منها نسخة بخط يده. ولعلّه فعل ذلك لكيلا يركب الرجل متن الشطط في تقدير ثمن الكتاب. ونقل المقريزيّ عن صاحب كتاب الذخائر: «قال وكنت بمصر في العشر الأول من محرّم، سنة إحدى وستّين وأربعمائة، فرأيت فيها خمسة وعشرين جملاً موقّرة كتباً محمولة إلى دار الوزير أبي الفرج مُحمَّد بن جعفر المغربيّ، فسألت عنها، فعرفت أنّ الوزير أخذها من خزائن القصر هو و«الخطير بن الموفّق في الدّين بإيجاب» وجبيت لهما عمّا يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجبليين».

شغف الخلفاء بالعلم

ولم يكن اقتناء الكتب والمحافظة عليها حباً في الزينة، وجرياً وراء المظاهر

---

(١) صالح الورداني، الشيعة في مصر، دار الرأي، القاهرة ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م سهيل زكّار، طرابلس الشام في الزمن الفاطمي، محفوظات مكتبة الأسد، دمشق، لتواني بوبكر، الأسطول الفاطمي، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العربي، عدد ٢٥، ٢٦، السنة السابقة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

البرّاقة، وإنّما كان الخلفاء الفاطميّون يدمنون القراءة والمطالعة. بل قد عرف عن بعضهم أنّهم كانوا من أعلم أهل زمانهم كالمعزّ لدين الله، الذي كان عالماً وفقيهاً وعلماً من أعلام الدّين والأدب، بليغ الأسلوب، ملمّاً بكثير من اللغات، وما رُئي في مجلس أو عابراً طريقاً، إلاّ وبيده كتاب. وكان هو وكثير من أسرته من بعده، ومن بينهم الحاكم بأمر الله، يشتغلون بعلوم النُّجوم، ويميلون إلى علوم الأوائل، ويقرّبون إليهم أهلها، ويفرضون العلم على أولادهم ومماليكهم. وكثيراً ما كان الخليفة يزور خزانة الكتب فيجيء راكباً، ثمّ يترجّل، ويتخذ مجلسه فوق دكّة منصوبة، ويمثل بين يديه أمين المكتبة، ويأتيه بمصاحف كثيرة، مكتوبة بأقلام مشاهير الخطّاطين، وغير ذلك ممّا يقترحه من الكتب فإن عنّ له أخذ شيء منها أخذه ثم أعاده.

عناية الوزراء بالعلم

ولم يكن الخلفاء وحدهم يشتغلون باقتناء الكتب، وينقّبون عنها، ويدمنون القراءة، ويطيلون البحث فيها، بل إنّ وزراءهم كانوا يقتفون آثارهم، وينهجون نهجهم، فقد روي عن يعقوب بن كلس وزير العزيز، أنّه كان يرتّب في داره الكتّاب والأطباء، وجعل فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأجرى عليهم الأرزاق وألّف كتباً عدّة في الفقه والقراءات، ونصب له مجلساً في داره، يحضره الفقهاء والمتكلّمون وأهل الجدل، يتناظرون بين يديه. وكان في داره كذلك كتّاب ينسخون القرآن الكريم والفقه والطب وكتب الأدباء وغيرها من العلوم، فإذا فرغوا من نسخها قوبلت وضبطت.

الجوامع كمراكز لنشر العلم

ولم تقف جهود الخلفاء الفاطميّين في إحياء العلوم ونشر المعارف عند اقتناء الكتب والمحافظة عليها، بل إنّهم نشروا العلم وشجعوا الناس على الاغتراف منه بكل الوسائل والطرق. فلقد ظلّ العلم يلقى في جامع عمرو وفي حلقاته العلميّة والأدبيّة التي كانت تعقد بانتظام، ويشهدها عدد كبير من الأساتذة والطلاب والأدباء والشعراء، كما كان يحدث في عهد الدولتين الطولونية والإخشيديّة.

وأوقف عليه الخلفاء الفاطميّون وعلى غيره من المساجد الأوقاف والهدايا، وقد كان يصيب هذا الجامع لهذا السبب كثير من الترميمات والإصلاحات، بين آنٍ وآخر. كذلك كان الخلفاء الفاطميّون يشملون الطلاب بالرعاية والعطف وترتّب لهم نفقات مأكلهم ومشربهم، فضلاً عمّا يقدّم لهم من الأطعمة والحلوى في جميع المواسم والأعياد. ومن أشهر الفقهاء الذين جلسوا للتدريس في جامع عمرو، في عهد الفاطميّين، عليّ بن نصر بن سليمان الزنبقي اللغوي، وقرئ عليه كثير من الكتب الأدبيَّة واللغوية والنحوية، وأبو أسامة جنادة بن مُحمَّد النحوي، وأبو الحسن طاهر بن بابشاذ، وكان كلاهما عالماً في اللُّغة والنحو.

الجوامع كمراكز لنشر المذهب الشيعي

غير أنّه لا يغيب عن البال أنّ الخلفاء الفاطميّين كانوا يتخذون من الجوامع مراكز لنشر المذهب الشيعي، وإشاعة عقائدهم بين الناس. فقد جلس بجامع عمرو كثير من الفقهاء درسوا فيه الرسالة الوزيرية الّتي ألّفها الوزير يعقوب بن كلس في الفقه الشيعي، في عهد العزيز. ودرّس فيه العلوم الشيعية في زمن الحاكم بأمر الله القاضيان: الحسين بن عليّ بن النعمان، وعبد العزيز بن مُحمَّد بن النعمان. كذلك أدّى جامع ابن طولون دوره كمعهد علمي، لكنه لم يتح له من النشاط والشهرة مثلما أتيح لجامعي عمرو والأزهر، إذ لم يرو لنا التّاريخ أسماء لامعة قامت بالتدريس فيه مثل ما روي من أسماء العلماء والأدباء والفقهاء الذين حاضروا في الجامعين المذكورين.

الجامع الأزهر

أمّا الجامع الأزهر فقد عقدت له الزعامة الثّقافيَّة والعلميَّة والدِّينيَّة على غيره من الجوامع ومعاهد العلم، وذلك لما كان يخصّه به الخلفاء الفاطميّون من رعاية وعناية، وما يخلعونه عليه من زخرف وزينة، وما يضاء به في المواسم والأعياد من أنوار ساطعة، فهو مسجدهم المفضّل الذي يخطب فيه الخليفة، وتعقد فيه مجالس الدروس، وتنتشر منه تعاليم المذهب الفاطميّ، وينعم فيه الأساتذة والطلاب بالأرزاق الوافرة والهدايا الحسنة. ولقد خصّه الحاكم بوقفيّة ملكيّة هي أوّل وقفية

صدرت للإنفاق على هذا المسجد، وقف فيها ريع كثير من ممتلكاته من دور وحوانيت ومخازن للإنفاق على أثاثه وخدمه وأئمته، وعلى إنارته وإصلاحه، لذلك لم يكن غريباً أن يصبح أكبر جامعة إسلاميَّة في الشَّرق، يفد إليه الطلاب من كل حدب وصوب، يتلقّون فيه مختلف العلوم الدِّينيَّة والفلسفية والمنطق، وبعض الرياضيات والطب، على يد علماء ذلك العصر، مثل «أبي عليّ بن مُحمَّد بن الحسن بن الهيثم» الّذي رحل إلى مصر في زمن الحاكم، وظلّ إلى أن توفي سنة ٤٤٣هـ، وهو أشهر علماء المسلمين في الطبيعة والبصريات، ويعرف عند الأوروبيين باسم الهازن، ومن أشهر كتبه في البصريات المسمّى كتاب «المناظر»، الّذي يعتبر أساس علم الضوء حتّى وقتنا هذا، وقد ضاع أصله العربيّ، ولكن بقيت ترجمته اللاتينية. و«الحوفي» إمام العربيَّة والنحو، و«ابن بابشاذ» المتوفّى سنة ٤٦٩هـ ـ ١٠٧٦م، وغيرهم من علماء الفقه والدّين، واللُّغة العربيَّة ونحوها وصرفها وآدابها. ولقد قصد الفاطميّون من إنشائهم الجامع الأزهر أن يكون جامعة شيعيّة، ولم يدروا أنّهم يضعون أساس أكبر جامعة إسلاميَّة سنيّة، بل وأعظم قلعة حصينة يذاع منها الإسلام خالصاً صحيحاً في مشارق الأرض ومغاربها، فما دالت دولة الفواطم، وعفت آثارها، إلاّ حمل الأزهر الأمانة، وظلّ طوال القرون التالية، حتّى اليوم، حصن الإسلام الحصين، وركنه الركين، وانعقدت لعلمائه في تاريخ مصر الحديث الزعامة والرياسة، في توجيه الرأي العام. وقد وصف المقريزيّ حركة العلم في الأزهر فقال: (ولم يزل في هذا الجامع منذ بني عدّة من الفقراء يلازمون الإقامة فيه، وبلغت عدّتهم في هذه الأيّام ـ أيّام المقريزيّ ـ (٧٥٠ رجلاً)، ما بين عجم وزبالقة، ومن أهل ريف مصر، ومغاربة، ولكلّ طائفة رواق يعرف بهم، فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودرسه، والاشتغال بأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو، ومجالس الوعظ والإرشاد، وحلق الذكر، فيجد الإنسان، إذا دخل هذا الجامع، من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره. وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس، وإعانة للمجاورين فيه على عبادة الله، ولو قليل، تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلويات، ولا سيما في المواسم.

دار الحكمة أو العلم

لم تقف جهود الفاطميّين في نشر العلم على المساجد، بل تعدّت ذلك إلى إنشاء المعاهد الّتي انفردت بنشره، فقد أنشأ الحاكم سنة ٤٠٠هـ - ١٠٠٩ - ١٠١٠م، دار العلم أو دار الحكمة، وكانت تلاصق القصر الغربي، وأمدّها بالأثاث، ورتب لها الخدم والفرّاشين، وحمل إليها من خزانة القصر عدداً كبيراً من الكتب، في مختلف العلوم والفنون، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة، للإنفاق على الطلاب والأساتذة والأدوات. وذكر المقريزيّ أنّه «حصل في هذه الدّار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله، من الكتب الّتي أمر بحملها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة، ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم، ممّن يؤثر قراءة الكتب والنّظر فيها، وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعليم. وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر». وظلّت دار العلم تؤدّي رسالتها طوال العهد الفاطميّ، ما عدا فترات قصيرة أغلقت فيها، ثم أُعيد فتحها إلى أن دالت الدَّولة، وقامت على أنقاضها دولة بني أيّوب، فأحالها صلاح الدّين الأيّوبيّ وكان قد أوقف جهوده على القضاء على المذهب الشيعيّ إلى مدرسة لتعليم الدّين وفق المذهب الشافعيّ.

مجالس المناظرة في القصر

وفي القصر كانت تعقد مجالس المناظرة تحت إشراف الخليفة ووزرائه، وبحضور العلماء والأدباء وكبار رجال دولته، فيتناظر العلماء في مختلف المسائل، وفي نهاية المناظرة ينهض الشعراء ويتبارون في مدح الخليفة والإشادة بمجد آبائه وأجداده. ولا غرو إذا وفد إلى مصر كثير من الشعراء من مختلف الأقطار، يسعون إلى مجلس الخليفة، ينشدون عطاءه، ويبتغون كرمه. من هؤلاء أبو حامد الأنطاكي، ومُحمَّد بن القاسم بن عاصم، وأبو الحسن عبد الواحد البغداديّ، المعروف بصريع الدلاء، وأبو الحسن عليّ بن نوبخت، وعبد الوهّاب بن نصر

المالكي. وقد مدح ابن هانئ الأندلسيّ المعزّ لدين الله الفاطميّ في قصائد رنانة، غالى فيها في مدح المعزّ حتّى انحدر إلى درجة الكفر. وكان يزمع الرحيل إلى مصر في أثر المعزّ بعد رحيله من بلاد المغرب ولكنّه توفي في الطريق فحزن عليه المعزّ كثيراً.

بناء الجامع الأزهر

ومن أعمال الدَّولة الفاطميَّة، «الجامع الأزهر» الذي كان أوّل أمره مسجداً عادياً، ثمّ أقيمت فيه حلقات الدِّراسة، وقد اهتمّ بهذه الدِّراسات خلفاء الفاطميّين، لأنّها كانت مقتصرة على الفقه الشيعي، ثم تطوّرت بعد الفاطميّين عندما تولّى صلاح الدّين حكم مصر، فأصبحت تدرّس الفقه على كلّ المذاهب والعلوم الدِّينيَّة دون تمييز، وعلى غير ما أراد الفاطميّون، فقد صار الأزهر أول جامعة في العالم لنشر الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة على المذهب السنّي، وما زال منارة يهتدي بها أبناء العروبة والإسلام، وحصناً يحمي البلاد من المذاهب الهدّامة والعقائد الفاسدة.

وكانت هذه الحضارة قد ارتكزت على قوة عسكرية لا يستهان بقدراتها، بالمعنى الإستراتيجي لحضور هذه القوة. ولا سيّما في البحر المتوسّط الّذي تمتّع منذ أقدم العصور، إلى الوقت الحاضر، بموقع جغرافي فريد، جعله مطمع كلّ قوة تبغي لنفسها الازدهار والسلطان في هذا المجال البحريّ، وبرغم هذا لم تستطع أيّة قوة أجنبية أن تنال الخلود الذي تمتع به العرب باستقرارهم على شواطئ هذا البحر.

فكم من حضارة قامت على جوانب هذا الحوض المائي المهمّ، وازدهرت، وبلغت ذروتها. ثمّ أتى عليها الزمن، فاندثرت، وأصبحت أثراً بعد عين! وكانت الحضارة العربيَّة نغماً فريداً خالداً بين أترابها، وما زالت أقدام بني يعرب راسخة ممتدّة الجذور إلى يومنا هذا، في رقعة شاسعة تضم شواطئ الشّام ومصر وأفريقيا، بما يعادل نصف شواطئ المتوسّط[١]. ويعزى سرّ هذا الخلود إلى أنّ العرب اتّخذوا أهبتهم لامتطاء أمواجه، وفق خطوات منظّمة مدروسة بعيدة عن الارتجال

---

(١) ماجد عبد المنعم، **الأطلس التّاريخيّ للعالم الإسلاميّ**، ص ٢.

«Atlas géologique d'Algérie, P. 35».

والفوضى، وذلك منذ أن لامست أقدامهم مياهه في القرن السّابع الميلاديّ حاملين راية الإسلام[١].

وسرعان ما اشتدّ عود الأسطول العربيّ الفتي، فهزم بحريَّة الروم، وانتزع منها سيادة البحر المتوسِّط الذي زالت عنه صفة (بحر الروم)، وغدا بحيرة عربيَّة إسلاميَّة بالنسبة إلى هذا البحر، مثّل سلطان الفاطميّين، كما في شمال أفريقيا، ثم في مصر والشّام في ما بعد، قمّة المجد العربيّ البحريّ، حيث بدأ عصر سيادة الأساطيل العربيّة في المتوسِّط بلا منازع، واستطاعت الدَّولة الفاطميَّة الناشئة أن تتبوّأ تلك المنزلة السامية في تاريخ البحريَّة العربيَّة بسبب نشأتها وترعرعها في بيئة بحريَّة خالصة، شاهدت منذ أقدم العصور أقوى الأساطيل وأشهر أمراء البحار الذين عرفهم التّاريخ[٢].

ومن المعلوم أنّ الفاطميّين قضوا على الأغالبة، وورثوا ملكهم في رقادة[٣] وصراعهم في الحوض الغربي للبحر المتوسِّط. كان هذا الصراع قد ازداد حدّة وعنفاً بعد فتح المسلمين لصقلية سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م، فأمست منذ ذلك الحين إحدى القواعد المهمة لانطلاق الجيوش الإسلاميَّة[٤]. ولما جاء الفاطميّون ضاعفوا من ذلك النشاط، ولم يكتفوا بموقف الدفاع وصدّ الهجمات، بل وقفوا موقف الهجوم، وحاولوا كسب مراكز جديدة لأنّهم كانوا يهدفون إلى تكوين إمبراطورية قويّة ذات قواعد عسكريّة بريّة وبحريَّة، كي يتمكنوا من أخذ زمام المبادرة وحماية دولتهم من أي خطر مهما كان مصدره. ومن الطبيعي أن تجعلهم هذه السياسة مهتمين بالأسطول البحريّ وإنشاء الموانئ الهامة كالمهديَّة[٥] وغيرها،

---

(١) البكريّ، المغرب، ص ٣٧، وحسن حسني عبد الوهاب، بساط العقيق، ص ٤٩.

(٢) ماجد عبد المنعم، ص ٢ و٣ Gautier: le passé de l'Afrique, p. 52.

(٣) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص ٢٢٢ ـ ٢٣١ وابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٤٠ ـ ٤٧ والمقريزيّ، اتعاظ ١، ص ٨٦ ـ ٨٨.

(٤) الإدريسيّ، المكتبة العربيّة الصّقليّة، ص ٢٨ ـ ٣١، وابن الأثير، ج ٧، ص ٥ ـ ٧ ـ موربينو، المسلمون في صقلية، ص ١١ و١٢، Gorges. M. l'Architecture musulmane, p. 324.

(٥) أحمد توفيق المدني، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، ص ٧٢ و٧٣.

وإقامة دور صناعة السفن على اختلاف أحجامها، والبحث عن المواد الأولية كالأخشاب. وبرزت عنايتهم بالجيش البحريّ من حيث التدريب والعدد والعدة، وأغدقوا الأموال والهبات على رجاله، ومنحوهم الإقطاعات الواسعة بغية تشجيعهم وبعث روح الحماسة في نفوسهم، وبذلك يكونون طوع إرادة الخليفة، ومتفانين في مهماتهم العسكرية.

وفي الوقت نفسه، اهتمّ عبد الله المهديّ بجزيرة صقلية، ودعم سلطانه فيها، ورأى في الاحتفاظ بها سبيلاً لتحقيق أهدافه في إنشاء إمبراطورية عظيمة في المتوسّط، ففيها كنوز طبيعية مثل الذهب والفضة والنحاس والرصاص، وهي منطقة زراعية خصبة معطاء، تنتج التفّاح والبندق والجوز والقسطل، ويتصدّر ذلك كله صلاحيتها قاعدة لأسطول كبير. وكل أولئك يدعون إلى الاستقرار والاستفادة ممّا تتمتع به هذه الجزيرة، حيث وجد الفاطميّون في حيازتهم شمال أفريقية وصقلية موارد ساعدتهم على بناء أسطول قوي يحقق لهم تنفيذ مشاريعهم البحريّة[١].

واستهلّ الأسطول الفاطميّ الوليد نشاطه المبكّر في حوض البحر المتوسّط الغربي بتدعيم ملك الفاطميّين في شمال أفريقية، وبسط سيطرتهم على ما جاورهم من الجهات الساحلية التي دأب أهلها على الشغب والثورات. وقد واجه الأسطول الفاطميّ أثناء تحقيق هذه المهمة أسطول الأندلس ومحاولاته المتكررة للإغارة على ممتلكات الفاطميّين[٢]، فإمارة الأمويين في الأندلس أزعجها قيام سلطان الفاطميّين على مقربة من ديارهم، وارتابت من أهداف الفاطميّين التوسعية. وبلغت شدة خوف الأمويين مبلغاً جعلهم يتحالفون مع الروم والفرنجة ضد الأسطول الفاطميّ. فهناك من ذكر أنّ عبد الرحمن الناصر حسّن علاقته مع صاحب (بروفانس) الذي كان حاقداً على الفاطميّين بسبب غزوهم لموانيه كجنوة، كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة قسطنطين الثّامن (٣٤٩ ـ ٤١٩هـ/ ٩٦١ ـ ١٠٢٨م) الذي كان يأمل في استرجاع

---

(١) البكريّ، المغرب، ص ٢٩، والحميري، المعطار، ص ١٧٢، وياقوت الحمويّ، المعجم، ج ٥، ص ٢٣، «Encyclopédie de l'islam», p.329 .

(٢) حسن إبراهيم حسن وآخر، والمعز لدين الله، ص ١٧٨.

صقلية وغيرها من المراكز البحريَّة الّتي كانت في أيدي خصومه الفاطميّين[١]. وإمعاناً في محاربة الفاطميّين عمل الناصر على تحسين علاقاته بالإخشيديّين في مصر، حتّى أنّه أرسل بعض مراكبه إلى الإسكندريَّة من أجل محاربة أسطول الفاطميّين، ولّما أيقن الإخفاق في ذلك أمر بلعن الخليفة الفاطميّ على منابر الأندلس، وكتب بهذا إلى جميع العمّال بغية الحطّ من قيمة الفاطميّين[٢].

أمّا مع الروم فقد جرّد الفاطميّون حملاتهم العسكرية ضد أولئك الأعداء[٣] في كل فرصة سانحة طوال عهدهم في المرحلة المغربيّة، فهذا عبد الله المهديّ يتابع هجماته عليهم سنين عديدة من المهديَّة أو صقلية، حيث توجّهت حملة بحريَّة من الميناء الأول بقيادة صابر الفتي، وذلك سنة ٣١٥هـ/ ٩٢٩م، وعدتها أربعة وأربعون مركباً، مخرت عباب اليمّ حتّى وصلت صقلية[٤]، ومنها شنّت غاراتها على سواحل الروم ومدنهم، فقتلت الكثير، وغنمت، وعادت إلى قواعدها سالمة[٥]، ثم أعاد صابر الكرة في السنة التالية من صقلية أيضاً، فافتتح عدة مواطن رومية، واستولى على ما فيها، وأجبر أصقاعاً أخرى على مصالحته بأموال وديباج وثياب، وعاد بجيشه إلى صقلية مركز انطلاقه[٦]، ثم أعاد الكرة سنة ٣١٧هـ/ ٩٣١م، فالتقى في البحر سبعة مراكب للروم، وهو في أربعة، فهزم خصومه، وفتح وسبى سبياً كثيراً، ورجع إلى المهديَّة[٧]. وبذلك سنّ المهديّ لمن جاء بعده سنّة توجيه الحملات البحريَّة من المهديَّة[٨] وصقلية ضد الموانئ الرومية. وكان ولاة صقلية يساهمون مساهمة فعّالة في هذا المجال، نظراً لمركز ولايتهم الإستراتيجي

---

(١) أرشبالد أويس: القوى البحريّة في البحر المتوسّط، ص ٢٣٤ و٢٣٦ و٢٣٧.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١١٧ وما بعدها، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدّولة الفاطميّة، ص ٢٠.

(٣) ميخائيل أماري، المكتبة العربيّة الصّقليّة، ص ٦١، «Histoire de l'Afrique du nord», p. 412.

(٤) ابن عذاري، البيان، ج ١، ص ١٩٢، Grand l'Arousse, p. 512.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٢، Le passe de l'Afrique du nord, p. 427.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص ١٩٤.

(٧) ياقوت الحمويّ، المعجم، ج٢، ص ٢٠٩، وحسن إبراهيم حسن، عبد الله المهديّ، ص ٢٠٢.

(٨) آدم متز، الحضارة الإسلاميّة، ج ٢، ص ٤٢٦، وأرشبالد لويس، المرجع نفسه، ص ٢٣٥.

وإمكانات أسطولها البحريّ. وخير مثال على ذلك الحملة التي قادها يعقوب بن إسحاق في آخر حياة عبد الله المهديّ، ففتحت «جنوة» و«سردينية»[1]. وقد قال «آدم متز» عن اتصال الأسطول الفاطميّ بالحوض الغربي للبحر المتوسِّط منذ عهد عبد الله المهديّ وسيطرته على مياهه ما نصه[2]: «ولم يكن لأوروبا سلطان على البحر الأبيض المتوسِّط خلال القرن العاشر الميلاديّ، فقد كان بحراً عربياً. وكان لا بدّ لمن يريد أن يقضي لنفسه أمراً أن يخطب ودّ العرب كما فعلت نابولي، وغيته، وأمالقي». ويظهر أنّ الملاحة الأوروبية نفسها كانت ـ في ذلك العصر ـ على حال يرثى لها من الضعف، ففي سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٥م استطاعت مراكب عبد الله المهديّ الفاطميّ أن تغزو جنوب «فرنسا» ومدينة «جنوة» وأن تنهبهما، وأن تفعل مثل هذا بمدينة «بيبزا» في سنتي ٣٥١ـ ٣٥٤هـ، فهذا النصر يبيّن لنا مدى ثقل وطأة الأسطول الفاطميّ على أساطيل أوروبا، وتحكّمه في لجج البحر المتوسِّط، وأنّ سلطة الفاطميّين في المغرب تمثّل قمة المجد البحريّ الإسلاميّ في البحر المتوسِّط، وعصر سيادة الأساطيل الإسلاميَّة لهذا البحر[3].

وظلّ الاهتمام بالأسطول متواصلاً وكبيراً في عهد أبي القاسم مُحمَّد القائم، بل بلغت قوته شأوا بعيداً، وتفاقم خطره على الأساطيل البيزنطية، عندما ضاعف من غاراته عليها من موانئ المغرب وثغوره، ومن صقلية أيضاً. ولعلّ قلّة الثورات الداخلية في بداية عهده تركت له مجالاً للاهتمام بحرب الروم والعناية بالأسطول أكثر من أبيه. يقول ابن خلدون[4]: «وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون بأساطيلهم من المهديَّة جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة كما وقع في أيّام بني الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشّماليّ الشَّرقيّ، وأساطيل المسلمين قد ضريت ضراء الأسد على فريسته، وقد ملأت الكثير من بسيط هذا البحر عدة وعدداً، واختلفت

---

(١) صابر مُحمَّد دياب، سياسة الدُّول الإسلاميَّة في حوض المتوسِّط، ص ٩٩ و١٠٠ و١٠١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن خلدون، المقدّمة، ص ١٥٠ و١٥١ و١٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥٠ و١٥١، Golvin: Le Magreb centrale á l'epoque, p. 249.

في طرقه سلماً وحرباً، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح. حتى إذا أدرك الدّولة العبيدية والأموية الفشل والوهن مدّ النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشّرقيّة مثل صقلية وقريطش ومالطة، فملكوها، ثم ألحوا على سواحل الشّام». فهذا النص يبيّن لنا مدى الدور الخطير الذي شغله الفاطميّون في الدفاع عن المغرب الإسلاميّ والمتمثل في رد غزوات الروم.

أمّا في عهد المعزّ لدين الله فقد كان للبحريّة الفاطميّة شأن يذكر في بلاد المغرب ومصر، حيث اتخذ هذا الخليفة من المهديّة مرفأ رئيساً، ومن «سوسة» وغيرها من الموانئ أماكن تأوي إليها سفنه، ولا نغلو إذا قلنا: إنّ المعزّ لدين الله، بفضل أسطوله القوي، جعل غربي البحر المتوسّط بحيرة فاطمية[١]، وذلك نظراً لقلّة الاضطرابات الداخلية في عهده، ونتيجة سياسة اللين والتفتح التي انتهجها أحياناً مع الثائرين. ولذا وجد المجال متسعاً للاهتمام بالأسطول، حيث اتخذ من المراسي المختلفة مأوى لقطع هذا الأسطول. وعمل المعزّ جاهداً على تحصين موانئه، حتّى أنّه قال[٢]: «لئن امتد المقام هنا، أي في المنصورية، لنجرينَّ البحر بحول الله وقوته إلينا في خليج حتّى تكون مراكبنا تحطّ وتقلع بحضرتنا». ولا شكّ أن هذا يدلّ على مدى عنايته أكثر من أسلافه بالجيش البحريّ، حيث أراد أن يجعل من «المنصورية» ميناء ثالثاً من حيث الأهمية بعد «المهديّة» و«سوسة»[٣]. وقد كثرت في عهده المحارس والثغور مثل: سبته، ومليلة، ووهران، وجزائر بني مرغنة، وبجاية، وجيجل، وسكيكدة، وبونة، ومرسى الخزر، وبنزرت، وتونس، وسوسة، والمهديّة، وصفاقس، وقابس، وطرابلس، وبنغازي، حتّى بلغ عددها على ما روي أكثر من عشرة آلاف حصن مبنية بالحجارة والكلس وأبواب الحديد[٤].

---

(١) مختار العبادي، تاريخ البحريّة الإسلاميّة في مصر والشّام، ص ٧٧.

(٢) النعمان، المجالس، ص ٥٩٢، العبادي، ص ٧٢٠، **lArchitecture musuimane, p. 412**.

(٣) حسن إبراهيم حسن، المعزّ لدين الله، ص ١٨٥، **Histoire de l'Afrique, p. 329**.

(٤) البكريّ، المغرب، ص ٣٧ و٥٥ و٦٤ و٦٥ و٨٢ و٨٣ و٨٥. حسن حسني عبد الوهّاب، بساط العقيق، ص ٥٢.

ولا عجب أن وجدنا هذا الأسطول يمثل العامل الأكبر في انتصارات الفاطميّين البحريَّة، ويعود إليه الفضل في تزويد جوهر بالإمدادات أثناء فتحه مصر[١]. ونلاحظ تقدّماً ملموساً في قوة الأسطول الفاطميّ في عهد المعزّ، بما في ذلك القطع البحريَّة العاملة بالمغرب الأوسط[٢]. ويمكننا أن نوجز أهم العوامل التي ساعدت على نمو الأسطول وقوته كالآتي:

١ ـ صلاحية الموقع الجغرافي لبلاد المغرب وكثرة موانيه، ووجود أحواض لبناء السفن مثل: المهديَّة، وسوسة، وبونة (عناية)، ومرسى الخزر، والقالة، وبجاية، وغيرها. وتوفّر المواد اللازمة لبناء السفن كالأخشاب التي تصنع منها ألواح السفن، والحديد الذي يوجد في صقلية، وبونة، وبجاية، والإربس، بالإضافة إلى القطران والحبال[٣].

٢ ـ وراثة الفاطميّين لأسطول قويّ عن الأغالبة، يعود تاريخ نشأته إلى عهد حسان بن النعمان (٧٥ ـ ٧٨هـ/ ٩٦٥ ـ ٩٦٨م)، حيث عملوا على تنميته وتطويره، ولم يبدؤوا من الصفر في هذاالمجال[٤].

٣ ـ وجد الفاطميّون بين أهل المغرب إطارات ذات كفاية عالية، عارفة بالملاحة والأمور البحريَّة، ولها خبرة ودراية في هذا المجال منذ عهد الفينيقيين، فكان هذا أحد العوامل في قوة بحريّتهم ونجاحها[٥].

٤ ـ يعتبر مركز صقلية البحريّ المهمّ من العوامل التي ساعدت على قوة الأسطول وتحكمه في مياه الحوض الغربي المتوسّط، وقد أصبحت محطة بحريَّة مهمة

---

(١) حسن إبراهيم حسن وآخر، ص ١٨٥ و١٨٦.

(٢) البحريّة الجزائرية، نشر المكتبة الوطنيّة الجزائرية، ص ٢٧.

(٣) مختار العبادي وآخر، **تاريخ البحريّة الإسلاميّة في مصر والشّام**، ص ٧١ إلى ٧٦، وابن عذاري، البيان، ج ١، ص ١٠٢، وحسن حسني عبد الوهّاب، بساط العقيق، ص ٤٩ و٥٠، وعبد الله عنان، **مصر الإسلاميّة وتاريخ الخطط المصريّة**، ص ١٢٦ و١٢٧، «Le passe de L'Afrique du nord. p,412».

(٤) العبادي، **البحور الإسلاميّة**، ص ٧٧ و٧٨.

(٥) ابن الأثير، **الكامل**، ج٦، ص ٣٣٤ و٣٣٥، والمالكي، **رياض النفوس**.

للمسلمين منذ أن فتحت سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م على يد أسد بن الفرات[١].

٥ ـ هذا ويمكن أن نعتبر تأصّل فكرة الجهاد عند الفاطميّين وتطلّعهم إلى التوسع شرقاً وغرباً، وخوفهم من الخطر الخارجيّ المتمثّل في الروم خصوصاً، من أهم الحوافز التي جعلتهم يعنون أشدّ العناية بأمور الأسطول حتّى تكون لهم قوة بحريَّة قادرة على تحقيق آمالهم في توسيع رقعة دولتهم ورد الخطر الخارجيّ المسيحي كما سبقت الاشارة.

٦ ـ عني المعزّ بالأسطول أكثر من أسلافه لأنّه كان يرمي إلى تكوين قوة بحريَّة كبيرة، يسيطر بها على حوضَي البحر المتوسِّط الغربي والشّرقيّ على السواء، ويقارع بها كلاً من الأمويين والروم في الحوض الأول، والعبّاسيّين في الحوض الثّاني. كما كان ينوي أن يتخذ من سواحل مصر والشّام جسراً يعبر منه إلى بغداد[٢].

٧ ـ وما زاد من قوة الأسطول في عهد المعزّ وراثته لأسطول الإخشيديّين. فبعد فتحه مصر وجد بين المصريّين جنداً من أهل الكفاية في ميدان الملاحة النهرية والبحريَّة معاً. وعقب فتح مصر والشّام حقق ما كان يطمح إليه في هذا المجال، إذ امتدّ نفوذه البحريّ من سبته غرباً إلى أنطاكية شرقاً، بالإضافة إلى الموانئ المطلّة على المحيط الأطلسي، وبذلك بلغ الأسطول في عهده ذروة مجده[٣].

وإلى هذا الأسطول الفاطميّ يرجع فتح مصر في أسرع وقت، فقد كان همزة الوصل بين جيوش جوهر الغازية والمعزّ في المغرب. وفي حراسة هذا الأسطول كانت الإمدادات تصل إلى جوهر بسهولة. وقد اتخذ المعزّ من بعض المدن المصريَّة

---

(١) مختار العبادي، **البحريَّة الإسلاميَّة**، ص ٦٨ و٦٩ و٧٠، Grand L'arousse. p. 521.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج ١، ص ١٨٠، وعبد العزيز سالم، **المغرب الكبير**، ص ٦١٤ و٦١٥، وأرشبالد لويس، ص ٢٣٥ و٢٣٦، وسرور، **سياسة الفاطميّين الخارجيَّة**، ص ٢٢١، ومُحمَّد صابر دياب، **سياسة الدُّول الإسلاميَّة**، ص ١١٧.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٣١، وابن حماد، **تاريخ بني عبيد**، ص ٤٠، **البداية والنهاية**، ج١، ص ٢٦٦، وحسن إبراهيم حسن وآخر، **المعزّ لدين الله**، ص ٨٣ و٨٤، صابر دياب، ص ١٠٢.

دوراً لصناعة السفن، فأنشأ في المقص دار صناعة ضخمة، وصفها المسبحي المؤرخ المصريّ المتوفّى سنة ٤٢٠هـ بقوله[1]: «إنه لم يُرَ مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسناً». وقال ابن أبي طي[2]: «لم يُرَ مثلها في البحر على ميناء». ويظهر أنّ المعزّ لم يهمل دار صناعة الفسطاط التي كانت تسمى «دار صناعة مصر»، كما عني بإقامة دور صناعة السفن في موانئ مصر الهامة كالإسكندريّة، ودمياط[3].

ولم يكن بناء السفن في مصر راجعاً إلى خوف المعزّ من غارات الروم والقرامطة على مصر والشّام فحسب، بل كان ذلك راجعاً إلى رغبته في بسط نفوذه على البلاد التي قد يتخذها الأعداء طريقاً يغيرون منه على مصر. بالإضافة إلى ما كان يرمي إليه المعزّ لدين الله من اتخاذ مصر والشّام قنطرة يعبر منها إلى بغداد حاضرة العبّاسيّين في ذلك الحين[4]. أضف أنّه حرص على أن تكون لأسطوله السيادة والتفوّق على سائر أساطيل البحر المتوسّط. ولا غرو فقد دخلت في حوزة المعزّ لدين الله ـ بعد أن تمّ له فتح مصر والشّام ـ البلاد الواقعة على البحر المتوسّط من أنطاكية إلى سبتة، ووقعت في يده موانئ المغرب الأقصى المطلّة على المحيط الأطلسي[5].

ومن ثم ملأ المعزّ كثيراً من موانئ الشّام المهمة، مثل صور، عكا، وعسقلان، بالسفن الكثيرة المختلفة الأنواع وأهمها الشلنديات[6]، والشواني

(١) حسن إبراهيم حسن وآخر، المعز لدين الله، ص ٨٣ و٨٤، وصابر دياب، **النّظم الإسلاميّة**، ص ٥٢١.

(٢) المقريزيّ، خطط، ج٢، ص ١٩٥.

(٣) ابن كثير، ج١، ص ٢٦٦، والمقريزيّ، خطط، ج١، ص ٣٢٩ و٣٣٠.

(٤) الطّبريّ، ج٦، ص ٢٥٧، النعمان، **افتتاح الدعوة**، ص ٣٢ و٥٤، ٧١، وابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٤٧، ١٦١، وابن عذاري، البيان، ج١، ص ١٧١ ـ ١٨١، «Encyclopédie de 19 - l'Islam, pp. 13».

(٥) مختار العبادي وآخر، ص ٧٦ و٧٧.

(٦) مفردها شلندي، من المراكب المسطّحة، وتختصّ بحمل العتاد والرّجال، مختار العبادي وآخر، **تاريخ البحريّة الإسلاميّة في مصر والشّام**، ص ٣٥ و٣٦، وماجد، **نظم الفاطميّين**، ج١، ص ٢٢٢. وإبراهيم حسن، المعزّ لدين الله، ص ١٨٦.

الحربيَّة[1]، والمسطحات[2]، والطرادات[3]، والعشاريات[4]، والحرّاقات[5]. وقد رأينا موقف أسطول المعزّ من صور وسواها في حروبه مع الروم، كما رأينا كيف اتخذ جوهر من عكا، وعسقلان، مستودعات للإمدادات التي كانت تتدفق على جيوش الفاطميّين في بلاد الشّام، حتى أنّ قادة المعزّ اتخذوا منها أماكن يفرّون إليها مع جندهم من وجه أعدائهم، ولا سيما القرامطة[6].

ولأهمية السواحل الشّاميَّة في نظر المعزّ كان يعيّن عليها قادة وولاة، ليكون الاتصال محكماً بين مصر وبلاد الشّام، وقد قدّرت سفن الأسطول الفاطميّ التي بنيت في دور الصناعة المصريَّة بأكثر من ستمائة قطعة مختلفة الأشكال والأحجام، على حين بلغ عدد السفن في أواخر عهد الدَّولة الفاطميَّة مائة قطعة فقط[7].

وهكذا استغلّ المعزّ لدين الله موقع مصر والشّام الإستراتيجي، فكوّن أسطوله الشَّرقيّ الضخم، ولو قدّر له البقاء طويلاً لكان هذا الأسطول أكثر ضخامة وأبعد أثراً. وقد وصف المقريزيّ عناية المعزّ بالأسطول بهذه العبارة[8]: «لمّا سار الروم إلى البلاد الشَّاميَّة بعد سنة خمسين وثلاثمائة اشتدّ أمرهم بأخذهم البلاد، وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدم المعزّ لدين الله، وأنشأ المراكب الحربيَّة، واقتدى به بنوه وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد، واعتناء بالأسطول، وواصلوا إنشاء

---

(١) مفردها شونة، وهي سفينة كبيرة، تشبه البوارج البحريَّة في يومنا هذا، وبها آلات الهجوم والدفاع، وماجد، المرجع نفسه، ومختار العبادي وآخر، المرجع نفسه، ص ١٣٦، ومُحمَّد صابر دياب، **سياسة الدُّول الإسلاميَّة**، ص ١٠٧، «Dozy T. I. 717».

(٢) نوع من السفن.

(٣) واحدها طراد، وهي من السفن الصغيرة القوية السريعة، تحمل الواحدة منها نحو مائة فارس. والعبادي وآخر، ص ١٣٥. وحسن إبراهيم حسن وآخر، المرجع نفسه، ص ١٨٦.

(٤) من القوارب النهرية التي استخدمها الفاطميّون في غزواتهم البحريَّة واحدها عشيري.

(٥) تلقي الشواني في الضخامة، وتحمل المنجنيقات وغيرها من معدّات الهجوم، مختار العبادي، المرجع نفسه، ص ١٣٤، حسن إبراهيم حسن وآخر، المرجع نفسه، ص ١٨٧. ومُحمَّد صابر دياب، المرجع نفسه، ص ١٠٨ و١٠٩.

(٦) المقريزيّ، خطط، ج١، ص ١٩٣، وسهيل زكّار، **القرامطة**، ص ٣٩٣ وما بعدها.

(٧) المقريزيّ، خطط، ج٢، ص ٩١٣، وحسن إبراهيم حسن، المعزّ لدين الله، ص ١٨٦ و١٨٧.

(٨) المصدر نفسه.

المراكب بمدينة مصر، وإسكندريَّة، ودمياط، من الشواني الحربيَّة، والشلنديات، والمسطّحات، وتسييرها إلى بلاد الساحل مثل صور، وعكا، وعسقلان، وكانت في أيّام المعزّ تزيد على ستمائة قطعة». وكان للأسطول أمير يدعى «قائد القوّاد»، وقد سمّي بذلك لأنّه يرأس عشرة قوّاد، كما كان يطلق عليه «أمير الجيش» و«المستوفي»[1]. وقد بلغ من عناية المعزّ ومن جاء بعده من الخلفاء بالأسطول أنّ الخليفة كان ينفق عليه في غزواته بنفسه، ويساعده وزيره أو يقوم مقامه. ولم يكن بحّارة الأسطول في مرتبة واحدة، فهناك جماعة كانت تتقاضى راتباً قدره ديناران، وأخرى تتقاضى ثمانية، وثالثة عشرة دنانير، ورابعة خمسة عشر ديناراً، وخامسة عشرين ديناراً، وسادسة خمسة وعشرين ديناراً. أمّا أمير الأسطول أو «مُقَدَّمُهُ» فكان من كبار الأمراء والأعيان، وهو أمر لا بدَّ منه على حدّ قول المقريزيّ، أن يقوم على الأسطول كبير من الأعيان من أمراء الدَّولة وأقواهم[2]. كما كان الخليفة يقطع رجال الأسطول إقطاعات عرفت باسم «أبواب الغزاة». وكان قائد الأسطول يشرف عليه، ويتناوب القوّاد العشرة الإشراف العملي، فيأتمر الجميع بأمر القائد الذي تؤول الرياسة إليه[3].

ولكي يشجّع الخليفة رجال الأسطول أو الغزاة ـ كما كانوا يسمونهم ـ كان يترك لهم من الغنائم المال والثياب والمتاع، ولا يستبقي سوى الأسرى والسلاح. وكانت الفسطاط من أهم مراكز الأسطول، وكان الخليفة يشاهد بنفسه حفلة النفقة على الأسطول عند خروجه، ويبارك رجاله، ويدعو لهم بالتوفيق، وكان أيضاً يحضر حفلة استقباله عند عودته. وقد بلغ اهتمام الخلفاء الفاطميّين بالأسطول أنّهم اتخذوا لهم «منظرة»[4] بالمقص، يحتفلون فيها بتوديع الأسطول واستقباله، ويتضح ذلك من هذا الوصف الشائق الذي أورده المقريزيّ[5]: «ويتولى الخليفة بنفسه

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) حسن إبراهيم حسن وآخر، المعزّ لدين الله، ص ١٨٨، وماجد، **الحضارة الإسلاميَّة في العصور الوسطى**، ص ٧٩.

(٥) حسن، **نظم الفاطميّين**، ص ٢٧١.

بحضور الوزير. فإذا أراد النفقة فيما تعيّن من عدة المراكب السائرة، فيتقدم إلى النقباء بإحضار الرجال، وفيهم من كان يتعيّش بمصر والقاهرة، وفيهم من هو خارج عنهما، فيجتمعون، وكانت لهم المشاهرة والجرايات في مدة أيّام سفرهم، وهم معروفون عند عشرين عريفاً يقال لهم النقباء، واحدهم نقيب».

وكان رجال الأسطول يشغلون مكانة سامية بين موظفي ديوان الجيش، ولا غرو، فإنّ صاحب ديوان الجيش، وهو المستوفي، كان أمير الأسطول. وبذلك وضع المعزّ لدين الله أساس نظام البحريَّة في مصر[1]، ونهج نهجه من جاء بعده من الخلفاء، إلاّ أنّهم لم يصلوا بالجيش والأسطول إلى ما وصل إليه المعزّ.

وليس أدلّ على اهتمام المعزّ بالأسطول من اعتماده على «ديوان الجهاد»، أو «ديوان العمائر» كما كانوا يسمونه في تنظيم شؤون الأساطيل، ووقف الأموال الضخمة للإنفاق على الأسطول ورجاله. وكثيراً ما كان المعزّ يمدّ هذا الديوان بالأعطيات والهبات من بيت المال.

وكذلك عني المعزّ بالأسطول التّجاريّ لينقل السلع المصريَّة إلى البلدان الأخرى، ويعود محمّلاً بالسلع من هذه البلدان[2]. وقد أصبح للفاطميين أسطولان تجاريّان، أحدهما في البحر المتوسّط، والآخر في البحر الأحمر، فكانت الإسكندريَّة، ودمياط، في مصر، وعسقلان، وعكا، وصور، وصيدا في الشّام، من أهمّ الموانئ الفاطميَّة[3] في البحر المتوسّط، كما كانت عيذاب من أهم موانئ البحر الأحمر، وكانت مزوّدة بأسطول حربيّ يتولّى حماية الأسطول التّجاريّ والقضاء على اللصوصية في هذا البحر[4].

وقد عني الخليفة المعزّ «بديوان الإقطاع» الذي كان تابعاً «للديوان الجيش»، وكان عمل صاحبه مقصوراً على النّظر في الإقطاعات التي اقتطعها رجال الجيش

(١) المقريزيّ، خطط، ج٢، ص ١٩٣.

(٢) تاريخ الدعوة الإسماعيليّة، ص ١٨٤، ورابح بونار، المغرب العربيّ، ص ١٨٧.

(٣) مختار العبادي وآخر، مرجع سابق، ص ١٤١، وماجد، مرجع سابق، ج١، ص ٢٢٧.

(٤) صابر مُحمّد دياب، سياسة الدُّول الإسلاميَّة في حوض البحر المتوسّط، ص ١٠٧ و١٠٨.

وخاصة الممتلكات الكثيرة التي كانت تابعة للإخشيديّين من قبل[١].

وصفوة القول إنّ المعزّ لدين الله نهض بالجيش والبحريّة نهضة مباركة مشهودة، كان لها أثر بعيد المدى فيما قام به الفاطميّون من فتوح وما نالوه من انتصار وظفر. وما كان هذا ليتم إلاّ باستخدام المقاتلين الطرق العلميَّة في المجال البحريّ، وبما تهيّأ لهم من عدّة وأسلحة، في مقدّمتها النفط الخاص بإحراق مراكب العدو. كما استخدموا الكلاليب الحديد التي تُرمى على سفن العدو بغية إغراقها، أو العبور إليها بواسطة الألواح الخشبيَّة والسلالم، كذلك استخدموا السيوف ومختلف الأسلحة الخفيفة[٢]، وقد بلغت قطع الأسطول الفاطميّ بالمغرب ما يزيد على ثلاثمائة، كما بلغت في عهد المعزّ في مصر أكثر من ستمائة قطعة[٣]. لكنّ شأن الأسطول أخذ بالضعف والتدهور في آخر عهدهم بعدما وصل إلى مائة وعشرين سفينة فقط.

ومما تقدّم يتجلّى لنا أنّ الفاطميّين عنوا عناية كبرى بالأسطول ورجاله في المغرب، وبعد رحيلهم إلى مصر، واحتلّ رجاله مكانة بارزة في ديوان الجيش، وبذلك سطّر الفاطميّون صفحة زاهية مشرقة في التّاريخ العربيّ، وبنوا مجداً تليداً انبعث منه عبق البطولة وأريج الجهاد.

---

(١) انظر م ـ أ ـ م مقال الإخشيد، ص ٥١٢، «Gobrin, Le Magreb,» p. 570 «Gautier. Le passé, p. .412 Dozy suplement aux dixtionnaires Arabesm p. 67, leir l'espague, p. 332»

(٢) مختار العبادي وآخر، مرجع سابق، ص ١٤١، وماجد، **نظم الفاطميّين**، ج١، ص ٢٢٧.

(٣) المقريزي، مرجع سابق، ج٢، ص ١٩٣، وحسن إبراهيم حسن وآخر، مرجع سابق، ص ٨٦ و٨٧.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**.
- **نهج البلاغة**.
- ابن حنبل، أحمد، **المسند**، جزء ١، طبعة بيروت.
- ابن حجر، **الصواعق المحرقة**، طبعة بيروت.
- أسد حيدر، **الإمام الصّادق والمذاهب الأربعة**، مكتبة الصَّدر، طهران، ١٤١١هـ.
- أحمد الوائليّ، **هوية التَّشيُّع**، دار الكتبي، بيروت، ط الثَّالثة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- ابن الأثير، **تاريخ ابن الأثير**، جزء ٤، دار صادر، بيروت ـ لبنان.
- ابن أبي الحديد المعتزلي، **شرح نهج البلاغة**، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، جزء ٣، طبعة بيروت.
- ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، جزء ٥، طبعة ١٩٥٣.
- أبو القاسم الخوئي، **منهاج الصالحين**، جزء أول، طبعة الكويت.
- آدم متز، **الحضارة الإسلاميَّة في القرن الرَّابع الهجريّ**، جزآن، ترجمة مُحمَّد عبد الهادي أبو ريده، طبع لجنة التَّأليف والتَّرجمة، ط ٣، القاهرة، ١٣٧٧هـ.
- الإدريسيّ، الشَّريف الإدريسيّ المتوفّى (٥٤٨هـ/ ١١٥٤م)، **وصف إفريقيا الشَّماليَّة والصَّحراويَّة**، تصحيح هنري بيرس، الجزائر، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

- أرشبالد لويس، **القوى البحريَّة والتِّجاريَّة في حوض البحر المتوسِّط (٥٠٠ ـ ١١٠٠م)**، ترجمة أحمد عيسى، نشر مكتبة النَّهضة المصريَّة، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ابن الأثير، أبو الحسن عليّ بن الكرم مُحمَّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ)، **الكامل في التّاريخ**، ٨ أجزاء، نشر دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
- ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي المتوفّى (٣٦٧هـ)، **كتاب صورة الأرض**، بيروت، مكتبة الحياة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن مُحمَّد المتوفّى (٨٠٨هـ)، **المقدِّمة والكتاب**، نشر دار الكتب اللُّبنانيّ، بيروت، ١٩٦٧م.
- ابن خلكان، أبو العبّاس شمس الدّين بن مُحمَّد بن أبي بكر المتوفّى (٦٨١هـ/ ١١٨١م)، **وفيّات الأعيان** ج٢ و٣ و٤، دار الثّقافة، بيروت.
- ابن سعد، عريب بن سعد القرطبيّ المتوفّى سنة ٣٨٠هـ، **صلة التّاريخ الطَّبريّ**، القاهرة، دار الاستقامة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.
- ابن سعد المغربيّ، أبو الحسن عليّ بن موسى المتوفّى (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م).
- أبو زرعة الدِّمشقيّ، الحافظ عبد الرحمن النصري، **تاريخ أبي زرعة الدِّمشقيّ**، مطبوعات مجمع اللّغة العربيَّة في دمشق.
- أحمد صادق سعد، **تاريخ مصر الاجتماعيّ الاقتصادي في ضوء النمط الآسيوي للإنتاج**، الطَّبعة الأولى، منشورات دار ابن خلدون، بيروت، حزيران ١٩٧٩.
- أبو الفداء، الحافظ بن كثير، المتوفّى ٧٧٤هـ.
- **المغرب وسورية وبلاد العرب**، بالاشتراك مع أحمد طه شرف، مكتبة النَّهضة، القاهرة، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.
- البلاذري، أبو العبّاس أحمد، **فتوح البلدان**، بيروت، دار النَّشر للجامعيين، ١٣٧٧هـ: ١٩٨٧م.

- ابن سعد القرطبيّ المتوفّى ٣٨٠هـ، **صلة التّاريخ الطّبريّ**، دار الاستقامة، القاهرة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.
- ابن سعد المغربيّ، عليّ بن موسى المتوفّى ٦٨٥هـ، **المغرب في حلي المغرب**، جزءان، تحقيق شوقي ضيف، ط٢، نشر دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤م.
- إبراهيم نصر الله، **حلب والتّشيُّع**، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، لبنان ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- ابن سعد، مُحمَّد، **الطبقات الكبرى**، بيروت، دار بيروت، ١٣١٦هـ، ١٩٥٧م.
- ابن شداد، بهاء الدّين، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، ط مصر، ١٩٦٦م.
- ابن عبد الحق البغداديّ، عبد المؤمن، **مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، ط مصر، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٥م.
- ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ط بيروت، المركز الإسلاميّ للبحوث، تحقيق دوروتيا كرافولسكي، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م.
- ابن عساكر، عليّ بن الحسن، **تاريخ مدينة دمشق**، ط مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق، في سنوات متعددة.
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف الأتابكي، **النُّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصر، المؤسَّسة العامة للتَّأليف والتَّرجمة والطِّباعة والنَّشر.
- ابن جبير، مُحمَّد بن أحمد الكناني، **الرحلة**، بيروت، دار التراث، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
- ابن حزم الأندلسيّ، مُحمَّد بن علي، **جمهرة أنساب العرب**، طبعة بيروت، دار الكتب العلميَّة، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٣م.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدّين أحمد، **الدرر الكامنة في أعلام المائة الثَّامنة**، طبعة مصر، دار الكتب الحديثة.

- أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ص ٢، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.
- أبو نعيم الأصفهاني الحافظ، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت، دار الكتاب العربيّ، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.
- الدُّكتور إبراهيم عليّ طرخان، **الإقطاع الإسلاميّ: أصوله وتطوّره**، ١٩٨٠.
- الدُّكتور أحمد دراج، مجلَّة «**المجلَّة**» المصريَّة الأدبيَّة، ١٩٦٩.
- إدمون رباط، **الوسيط في القانون الدستوري اللُّبنانيّ**، منشورات الجامعة اللُّبنانيَّة، ١٩٧٠.
- **تاريخ الخلفاء الفاطميين في المغرب**.
- الدُّكتورة أنطوانيت باسيلي، «ثغور العرب في التّاريخ»، مجلَّة «تاريخ العرب والعالم»، ١٩٨١م.
- الأصفهاني، **المحاضرات**، جزء ٢، طبعة بيروت. إخوان الصَّفاء، **رسائل إخوان الصَّفاء**، الدّار الإسلاميَّة، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
- الدُّكتور أحمد مختار العبادي والدُّكتور السَّيِّد عبد العزيز سالم، دار النَّهضة، بيروت ـ لبنان، ١٩٨١.
- البكريّ: أبو عبد الله بن العزيز بن مُحمَّد مصعب الحافظ المتوفّى (٤٨٧هـ)، **المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب**، تحقيق دوسلان، نشر مكتبة المثنى، بغداد. **جغرافية الأندلس وأوروبا**، تحقيق عبد الرحمن الحجّيّ، بيروت، سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
- بونار، رابح، **المغرب العربيّ تاريخه وثقافته**، الشركة الوطنيَّة للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٦٨م.
- البكريَ بن مُحمَّد، مصعب الحافظ المتوفّى ٤٨٧هـ، **جغرافية الأندلس وأوروبا**، تحقيق عبد الرحمن الحجي، بيروت، طبعة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

تأسيس ١٣٥٢ هـ.ش

- الترمذي، **صحيح الترمذي**، جزء ٢ ـ ٥.
- ثابت بن سنان وابن العديم، **تاريخ أخبار القرامطة وترجمة الحسن الأعصم**، تحقيق سهيل زكّار، دار الأمانة، بيروت، سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- جعفر السّبحانيّ، **تذكرة الأعيان**، مؤسّسة الإمام الصّادق ﷺ، قم المقدسة، الجمهورية الإسلاميَّة الإيرانية، ١٤١٩هـ.
- جعفر السّبحانيّ، **بحوث في الملل والنّحل**، الدّار الإسلاميَّة، بيروت ـ لبنان: ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
- جعفر السّبحانيّ، **الدَّولة الإسماعيليَّة**، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م، الدّار الإسلاميَّة، بيروت.
- جعفر الخليلي، **موسوعة العتبات المقدسة**، المدخل.
- جبرياللي في ندوة ألفيَّة القاهرة، مجلَّة «المجلَّة» المصريَّة الأدبيَّة، عدد أيّار ١٩٦٩.
- جعفر المهاجر، **التأسيس لتاريخ الشّيعة في لبنان وسورية**، دار الملاك، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- الجوذريّ، أبو عليّ منصور العزيزي، المتوفّى أواخر القرن ٤٨٥هـ، **سيرة الأستاذ جوذر**، تحقيق مُحمَّد كامل حسن ومُحمَّد عبد الهادي شعيرة، طبعة الاعتماد، مصر ١٩٤٥م.
- جوليان، شارل أندريه، **تاريخ إفريقيا الشَّماليَّة**، تعريف مُحمَّد مزالي، البشير بو سلامة، طبع السداد، ١٩٦٩م.
- جواد بولس، **التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشّامي الأدنى منذ الإسلام**، دار عواد ـ بيروت ـ دون تاريخ.
- حسن الأمين، **دائرة المعارف الإسلاميَّة الشيعية**، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، طبعة خامسة.

- حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الدَّولة الفاطميَّة في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب**، ط ٢، ٣ أجزاء، مكتبة النَّهضة المصريَّة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السيّاسيّ والدّينيّ والثّقافيّ والاجتماعيّ**، ٣ أجزاء، مكتبة النَّهضة المصريَّة، القاهرة، ١٩٦٢م.
- حسن إبراهيم حسن، **عبيد الله المهديّ إمام الشّيعة الإسماعيليَّة ومؤسس الدَّولة الفاطميَّة في المغرب وسورية وبلاد العرب**، مكتبة النَّهضة، القاهرة، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.
- حسن عليّ إبراهيم، **تاريخ جوهر الصّقليّ**، قائد المعزّ لدين الله الفاطميّ، ط ٢، مكتبة النَّهضة المصريَّة، القاهرة، عام ١٩٦٣م.
- الحمويّ، شهاب الدّين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحمويّ الروي البغداديّ المتوفّى (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، **معجم البلدان**، ٥ أجزاء، بيروت، ١٩٥٥م.
- العلّامة الحلي، كشف المراد.
- الحر العاملي، **وسائل الشّيعة**، جزء ١٤، طبعة طهران.
- خليل الزور، **الحياة العلميَّة في الشّام في القرنين الأول والثّاني للهجرة**، طبعة بيروت، دار الآفاق.
- **دراسات في العقائد والفرق الإسلامية**.
- الدباغ، عبد الرحمن بن عبد الله الأنصاريّ، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، ٤ أجزاء، المطبعة العربيَّة بتونس، ١٣٢١هـ.
- دياب، صابر مُحمَّد، **سياسة الدُّول الإسلاميَّة في حوض البحر المتوسّط في أوائل القرن الثّاني الهجريّ حتّى نهاية العصر الفاطميّ**، نشر عالم الكتب، ط ١، القاهرة ١٩٧٣م.
- الذهبي، مُحمَّد بن أحمد عثمان، **بغية الوعاة**، طبعة بيروت، ١٩٧٤م.
- الذهبي، مُحمَّد بن أحمد عثمان، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، طبعة بيروت، دار الكتاب العربيّ، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

- روح الله الموسويّ الخميني «قدس»، **تحرير الوسيلة**، جزء ١، طبعة بيروت.

- الرازي، **مفاتيح الغيب**، جزء ١٢، طبعة بيروت.

- آل زكّار، دار الأمانة، بيروت، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

- الزمخشري، **الكشاف في تفسير القرآن**، جزء ٣، طبعة بيروت.

- زكريّا كايا، **حقيقة تاريخ المشرق**، مطارحات في المسألة الشَّرقيَّة، الجبهة الشَّرقيَّة، الطَّبعة الأولى، ١٩٩٤م.

- الزركلي، خير الدّين، **الأعلام**، الطَّبعة الثّالثة.

- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاوغلي، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، ط بيروت، دار الشروق، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

- السّيوطيّ، **الدرّ المنثور**، طبعة بيروت.

- السدي، **تفسير السدي**، جزء ٢٢٢، طبعة مصر.

- سرور، مُحمَّد جمال الدّين، **سياسة الفاطميّين الخارجيَّة**، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

- سالم، السَّيِّد عبد العزيز، **المغرب الكبير (العصر الإسلاميّ)**، الدّار القوميَّة، القاهرة، ١٩٦٦م.

- سعيد عاشور، **الحركة الصَّليبيّة**، مصر، مكتبة الأنجلو المصريَّة، ١٩٦٣م.

- عبد المجيد عبد الملك، **ساحل بلاد الشّام والصراعات الدولية (٢٥٠٠ ق.م - ٢٠٠١م): دراسة جيوبوليتيكية وجيوستراتيجية**، منشورات بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، الطَّبعة الثّانية، ٢٠٠٢.

- الشهيدان الأول والثّاني، **شرح اللّمعة الدّمشقيَّة**، مطبعة الآداب، النجف الأشرف.

- **شرح شافية أبي فراس الحمداني في مناقب آل الرسول ﷺ**.

- الشهرستاني، **نهاية الإقدام**.
- شاكر خصباك، **في الجغرافية العربيَّة**، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٨م.
- طه حسين، **الفتنة الكبرى**، مطبعة مصر.
- طه حسين، **عليّ وبنوه**، فصل ٥، طبعة مصر.
- الطَّبريّ، **ذخائر العقبى**، طبعة بيروت.
- الطوسي، **التهذيب**، جزء ٢، طبعة بيروت.
- الطَّبريّ، مُحمَّد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
- صائب عبد الحميد، **منهج في الانتماء المذهبي**، دار المودة، بيروت ـ لبنان، ط ١، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
- صالح الورداني، **الشّيعة في مصر**، دار الرأي للطّباعة والنَّشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
- صالح العلي، **إمتداد العرب في صدر الإسلام**، بيروت، مؤسَّسة الرسالة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- الفيروزآبادي، **فضائل الخمسة من الصحاح الستة**.
- فاروق حبلص، **المساجد والكنائس**، منشورات دار الإنشاء للصّحافة والطّباعة والنَّشر، طرابلس، لبنان، الطَّبعة الأولى، ١٩٨٨م.
- قاسم عبده قاسم، **التنظيم البحريّ الإسلاميّ في شرقيّ المتوسِّط**، بيروت ١٩٨١م.
- القاضي عيّاض، **ترتيب المدارك**، جزء أول.
- القلقشندي، أحمد بن علي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ط مصر، المؤسَّسة المصريّة العامة للتَّأليف والتَّرجمة والطّباعة والنَّشر.

- عبد القادر بدران، **تهذيب تاريخ دمشق**، ط بيروت، لبنان ١٩٧٩م.
- عبد الله خورشيد البري، **القبائل العربيَّة في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة**، ط مصر، دار الكاتب العربيّ ١٩٦٧م.
- عمر رضا كحالة، **التّاريخ والجغرافية في العصور الإسلاميَّة**، ط دمشق، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.
- عبد الحسين شرف الدّين، **الفصول المهمة في تأليف الأمة**.
- عمر عبد السَّلام التَّدمريّ، **لبنان من قيام الدَّولة العبّاسيَّة حتّى سقوط الدَّولة الإخشيديَّة**، دار جروس برس، طرابلس، لبنان، الطّبعة الأولى ١٩٩٢م.
- الدُّكتور عارف تامر، **الموسوعة التّاريخية الفاطميَّة**.
- الدُّكتور عمر السعيدي، دراسات تاريخية: مجلّة علمية فصلية تعنى بالدِّراسات حول تاريخ العرب، كانون الثّاني ١٩٨٢، تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق.
- عليّ عزيز الإبراهيم، **محنة الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام مع الغلاة**، مخطوط.
- **عيون أخبار الرضا**، طبعة دار العلم بقم، ١٣٧٧هـ.
- عبد الله الغريفي، **التّشيُّع**، دار العارف، بيروت، ط ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.
- عبّاس محمود العقّاد، **فاطمة الزَّهراء، والفاطميّون** - منشورات دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان.
- عبد الحسين الأميني، **الغدير**، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، المجلد ٤، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.
- عليّ عزيز الإبراهيم، **الإمام عليّ عليه السلام وملاحم نهج البلاغة**، بيروت، الطَّبعة الأولى، الدّار الإسلاميَّة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٩م.
- عبد الرحمن الجزيري، **الفقه على المذاهب الأربعة**، جزء أول، طبعة القاهرة.

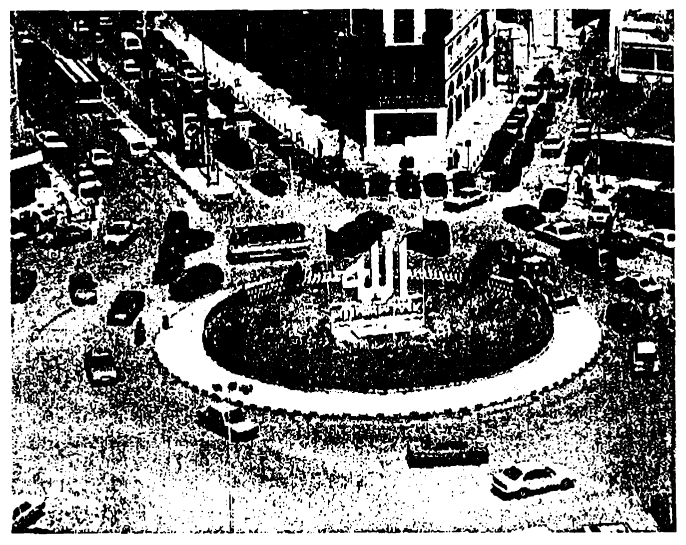
- عبد الرحمن بن مُحمَّد بن عبد الله الأنصاريّ، **كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، ٤ أجزاء، المطبعة العربيَّة، تونس، ١٣٢١.
- كمال سليمان الصَّليبيّ، **منطلق تاريخ لبنان**، الطَّبعة الأولى، ١٩٧٩م، منشورات كارافان، نيويورك، أمريكا.
- الكيلاني، **توفيق التطبيق**.
- كامل مصطفى، **الصلة بين التصوف والتَّشيُّع**، طبعة أولى، بغداد مصر، ١٩٦٩م.
- الإمام الأكبر مُحمَّد الحسين آل كاشف الغطاء، **أصل الشّيعة وأصولها**، منشورات مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطَّبعة الرَّابعة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- مُحمَّد عليّ مكي، **لبنان من الفتح العربيّ إلى الفتح العثمانيّ**، ٦٣٥هـ، ١٥١٦م، منشورات دار النَّهار، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٧م.
- ماجد، عبد المنعم، **تاريخ الحضارة الإسلاميَّة في العصور الوسطى**، القاهرة، نشر مكتبة الأنجلو المصريَّة، ١٩٦٣م.
- ماجد، عبد المنعم، عليّ البنا، **الأطلس التّاريخيّ للعالم الإسلاميّ في العصور الوسطى**، القاهرة ط ٢، دار الفكر عام ١٩٦٧م.
- مسلم بن الحجّاج القشيري، **صحيح مسلم**، طبعة بيروت.
- المتّقي الهندي، **كنز العمّال**، ج ٦، مكتبة التراث الإسلاميّ، حلب، سوريا.
- مُحمَّد فريد وجدي، **دائرة المعارف**، جزء ٥، طبعة ٤، ١٣٨٦هـ.
- المسعودي، **مروج الذهب**، طبعة ١٩٤٨م، المكتبة الإسلاميَّة، بيروت، جزء ٣.
- المظفّر، تاريخ الشّيعة.
- مُحمَّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- مرتضى العسكري، **معالم المدرستين**، جزء ١، طبعة طهران.
- مُحمَّد رضا المظفّر، **عقائد الإماميَّة**، دار الصفوة، بيروت ـ لبنان، ١٤١٣هـ.
- مُحمَّد مرتضى الزبيدي، **تاج العروس**، جزء ٥.
- مُحمَّد النعمان «الشيخ المفيد»، **تصحيح الاعتقاد**، طبعة إيران.
- محسن الأمين، **أعيان الشّيعة**، جزء ١، دار التعارف، بيروت ط ٥، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- مُحمَّد النعمان، الشيخ المفيد، **أوائل المقالات**.
- الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، جزء ٣.
- مجلة البحرين الثّقافيَّة، العدد ٥٣، السنة ٢٠٠٢، الموضوع المتعلّق بالرحالة ناصر خسرو.
- مُحمَّد عبد الله عنان، **الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطميَّة**.
- مُحمَّد باقر الصَّدر، **نشأة الشّيعة والتّشيُّع**، الغدير للدّراسات والنَّشر، بيروت ـ لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
- مُحمَّد جواد مغنية، **الشّيعة والحاكمون**، منشورات دار مكتبة الهلال ودار الجواد، بيروت ـ لبنان، ط ٢، ١٩٩٢م.
- مُحمَّد كامل البابا، «**طرابلس في التاريخ**» جرّوس برس، طرابلس ـ لبنان.
- مُحمَّد كرد علي، **خطط الشّام**، ط بيروت، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م.
- المقدسي، مُحمَّد بن أحمد بن أبي بكر البناء، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط ليدن، مطبعة بريل، ١٩٠٦م.
- المقريزيّ، تقي الدّين أحمد، **كتاب السلوك في معرفة دول الملوك**، ط مصر، دار الكتب ١٩٧٠م.
- ميخائيل زابوروف، **الصَّليبيّون في الشَّرق**، ط موسكو، دار التقدم ١٩٨٦م.

- السَّيِّد مرتضى الرضوي، **آراء المعاصرين حول آثار الإماميَّة**، مطبعة النجاح بالقاهرة، الطَّبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- ناصر خسرو، **سفرنامة**، ترجمة يحيى الخشّاب، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٠م.
- هاشم الموسويّ، **التَّشيُّع، نشأته، معالمه**، الغدير للدِّراسات والنَّشر، بيروت ـ لبنان، ١٤١٤هـ.
- يحيى الخشّاب، مجلَّة (المجلَّة المصريَّة المحتجبة)، عدد أيّار ١٩٦٩، خاصّ بألفيَّة القاهرة.
- يحيى قاسم فرحات، **الشّيعة في طرابلس من الفتح العربيّ حتّى الفتح العثمانيّ**، دار الملاك، الطَّبعة الأولى ١٩٩٩م، بيروت ـ لبنان.
- اليعقوبي، أحمد بن جعفر الأخباري، **تاريخ اليعقوبي**، ط النجف الأشرف، المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.
- الإنشاء/ الطرابلسية، عدد خاص، تشرين الثّاني ١٩٩٨، خلاصة مستمدة من مجموعة دراسات، لعدد من الباحثين تناولوا طرابلس ـ الشّام في الزمن الفاطميّ، بإشراف الدُّكتور سهيل زكّار، محفوظات مكتبة الأسد، دمشق.
- التواني بو بكر، من دراسة «الأسطول الفاطميّ»، مجلَّة التراث العربيّ، مجلَّة فصلية تصدر عن اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، العددان ٢٥ و٢٦، السنة السّابعة، تشرين الأول وكانون الثّاني «أكتوبر ويناير» ١٩٨٦ و١٩٨٧م صفر وجمادى الأولى ١٤٠٧هـ.
- Dozy, R.- Supplement aux dixtionnaires Arabes Paris 1967.
- Gaulhier E. F. Le passé de l'Afrique du nord petite Bibliothèque, Paris 1952.
- Golvin L. Le Maghreb central à l'eppoque des Zirides Mitiers graphiaues, Paris 1957.
- Julien ch. André Histoire de l'Afrique du nord. Payot. Paris 1931.
- Marcais Gorges L'architecture Muslmane d'occident: Tunis- Algerie Maroc Espagne et sicile, Paris 1954.

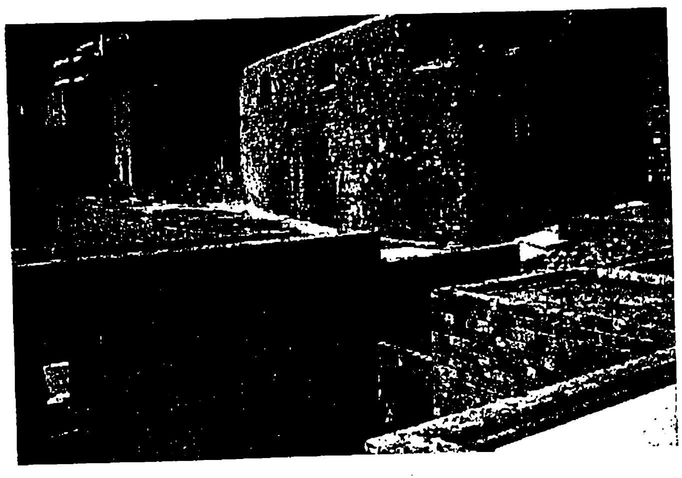
- Provencal Levi. L'espagne musulmane aux Xeme sicile institution et vie social larosde, Paris 1932.
- Atlas géologique de l'algerie Redigé Par Stephon-Gazelle Adolph jourdon imprimeur libraire Educateur Alger 1911.
- Grand larousse Paris 1960-1961-1963.
- Encyclopédie de l'Islam, Paris 1913-1934-1954.

الصور والخرائط

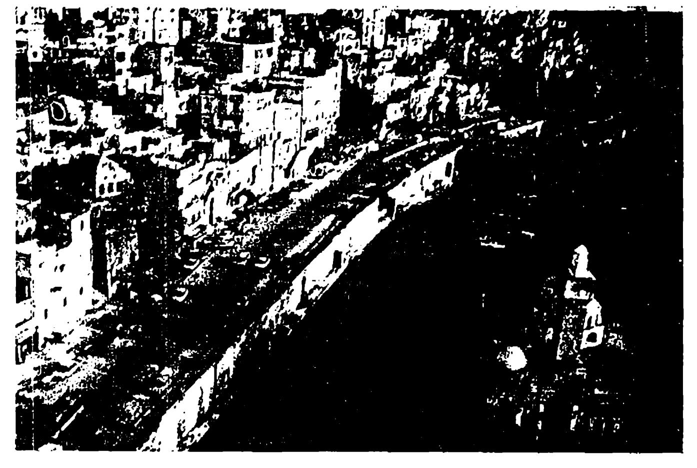


مدينة طرابلس: منظر جوي لساحة عبد الحميد كرامي (المعروفة بساحة النور)

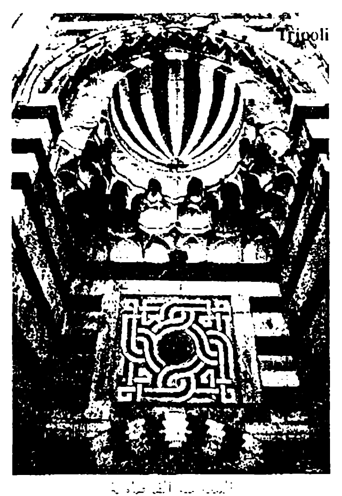
الجامع المنصوري الكبير (المملوكي) ٦٩٣هـ ١٢٩٤م)



طرابلس القديمة وجامع الأويسية (العصر العثماني)



منظر جوي لنهر أبي علي وجامع البرطاسي


Tripoli

[illegible]


Tripoli

[illegible]


Tripoli

[illegible]

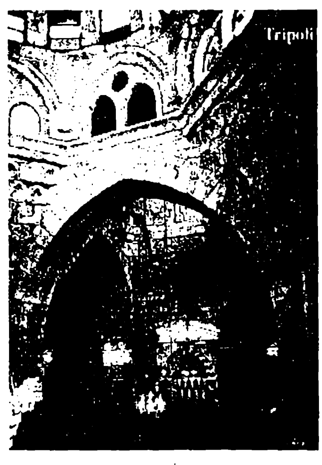

طرابلس

[illegible]



المدرسة الخيرانية (العصر المماليك ٧٢٦هـ/ ١٣٦٢م)





خان الخياطين
(بيزنطي - مملوكي)

جامع البرطاسي
(العصر المماليك (٧١٠هـ/ ١٣١٠م)

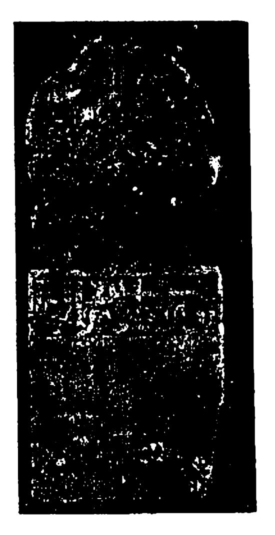


كتابة قرآنية على شاهد الضريح الفاطمي



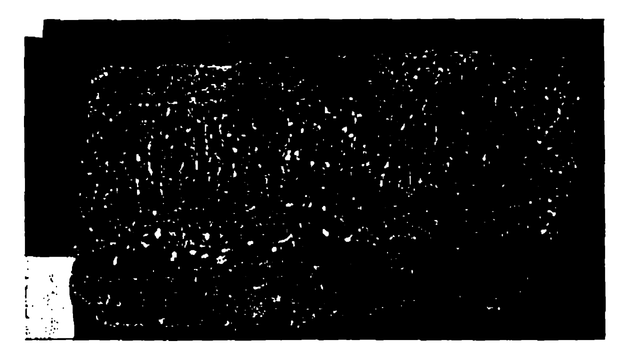


زخرفة واجهة الضريح الفاطمي

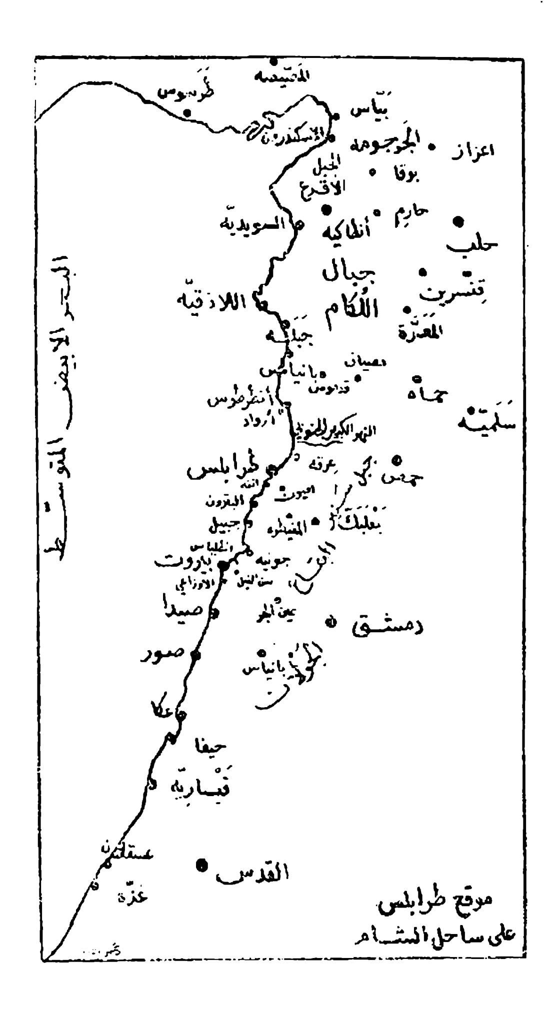


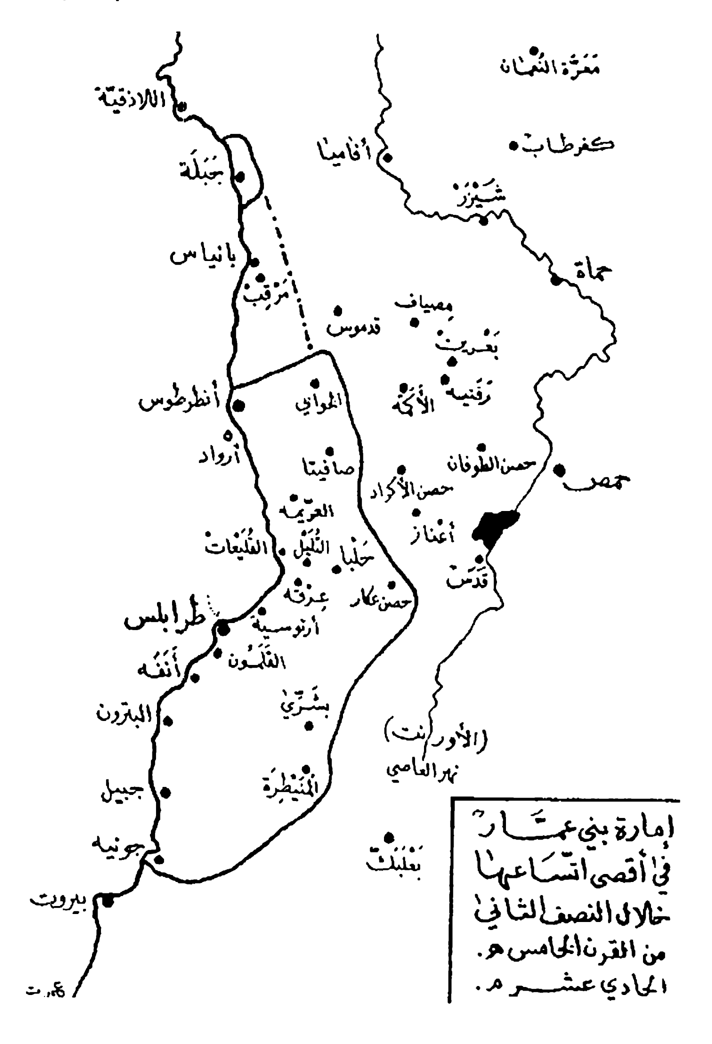


الواجهة الأخرى من الضريح الفاطمي



كتابة قرآنية بالخط الكوفي على حائط الضريح الفاطمي داخل قلعة طرابلس


المصّيصه
طرسوس
بيّاس
الاسكندرونه
الجوجومه
اعزاز
بوقا
الجبل الاقرع
حارم
السويديّه
انطاكيه
حلب
جبال اللكام
قنسرين
اللاذقيّه
جبلة
المعرّة
مصياف
بانياس
قدموس
حماه
انطرطوس
ارواد
سلميّه
النهر الكبير الجنوبي
طرابلس
عرقه
حمص
البترون
بعلبك
جبيل
المنيطره
بيروت
جونيه
الاوزاعي
صيدا
عين الجر
دمشق
صور
بانياس
عكا
حيفا
قيساريه
عسقلان
القدس
غزّة
البحر الابيض المتوسط
موقع طرابلس
على ساحل الشام


معرة النعمان
اللاذقية
أفاميا
كفرطاب
جبلة
شيزر
بانياس
حماة
مرقب
مصياف
قدموس
بعرين
أنطرطوس
الموازي
رفنية
الأكمة
أرواد
صافيتا
حمص الطوفان
حمص
حصن الأكراد
العريمة
أعناز
القليعات
التليل
حلبا
قدس
عرقة
حصن عكار
طرابلس
أرتوسية
أنفه
القلمون
البترون
بشري
(الأورنت)
نهر العاصي
المنيطرة
جبيل
جونيه
بعلبك
بيروت
إمارة بني عمار
في أقصى اتساعها
خلال النصف الثاني
من القرن الخامس هـ.
الحادي عشر م.

معرة النعمان
اللاذقية
أفاميا
كفرطاب
جبلة
شيزر
بلنياس
المرقب
حماه
قدموس
مصياف
مرقية
الخوابي
بعرين
رفنية
الأكمة
أنطرطوس
صافيتا
حصن الطوفان
أرواد
حصن الاحمر
حصن الأكراد
حمص
العريمة
أعناز
بحيرة قدس
القليعات
التليل
حلبا
حصن عكار
عرقة
طرابلس
أرتوسية
القلمون
صنجيل
سير
نهر العاصي
أنفه
ديربلمند
بشري
البترون
الحدث
جبيل
المنيطرة
بعلبك
جونية
بيروت

حدود إمارة طرابلس الصليبية

١ فرسان الاسبتارية
٢ كونتية طرابلس
٣ فرسان الداوية
٤ فرسان الاسبتارية
٥ كونتية طرابلس
٦ أسرة امبريا تشي

الفهرس

مكتبة، ١٢٥٢، دمشق